

الجواب الكافي
لمن سأل عن الدواء الشافي

الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي

تأليف
الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قسيم الجوزي
(٦٩١ — ٧٥١)

حقيقه
محب الدين الخطيب
(١٣٠٣ — ١٣٨٩)

المكتبة الشافعية

طبع فى دارنا السلفية

الطبعة الأولى سنة ١٣٩٤ من الهجرة

الطبعة الثانية سنة ١٣٩٧ من الهجرة

الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٠ من الهجرة

الطبعة الرابعة سنة ١٤٠٧ من الهجرة

(جميع حقوق الطبع والنقل والاقتباس والتصوير محفوظة)

الطبعة الرابعة

(طبعة جديدة مشروعة)

عنيت بطبعه

دارنا للطبع السلفية

٢١ شارع الفتح بالروضة — القاهرة • تليفون ٨٤٠٣٦٤

مقدمة الناشر

إن الإمام شمس الدين أبا عبد الله محمد ابن الشيخ الصالح أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية رضى الله عنه وعن آله الصالحين ، قد أنحف المكتبة الإسلامية بوابل من التراث الإسلامى الذى لا ينضب معينه ، ومازال المسلمون يتلقون دروسه القيمة سلفاً عن خلف إلى يوم الساعة .

ولد ابن قيم الجوزية سنة إحدى وتسعين وستائة ، ولازم الشيخ تقي الدين بن تيمية وأخذ عنه وتفنن فى كافة علوم الإسلام . وكان عارفاً فى علم التفسير لا يجارى فيه ، ويعلم الحديث ومعانيه وفقهه ودقائق الاستنباط منه لا يلحق فى ذلك ، ويعلم الفقه والأصول العربية ، وله فيها اليد الطولى ، ويعلم الكلام والتصوف .

أخذ عنه العلوم خلق كثير فى حياة شيخه إلى أن مات ، وانتفعوا به . وهذه المؤلفات القيمة التى قام بتأليفها هى :

- ١ — تهذيب سنن أبى داود .
- ٢ — سفر المهجرتين وباب السعادتين .
- ٣ — مدارج السالكين بين منازل ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ وهو شرح منازل السائرين لشيخ الإسلام الأنصارى .
- ٤ — عقد محكم الأحياء بين الكلم الطيب والعمل الصالح إلى رب السماء .
- ٥ — شرح أسماء الكتاب العزيز .
- ٦ — زاد المسافر إلى منازل السعداء فى هدى خاتم الأنبياء .
- ٧ — زاد المعاد فى هدى خير العباد .
- ٨ — حلى الأفهام فى ذكر الصلاة والسلام على خير الأنام .
- ٩ — بيان الدليل على استغناء المسابقة عن التحليل .
- ١٠ — نقد المنقول ، والمحك المخير بين المردود والمقبول .
- ١١ — بدائع الفوائد .
- ١٢ — الشافية الكافية فى الانتصار للفرقة الناجية — وهى القصيدة النونية فى السنة .
- ١٣ — الصواعق المنزلة على الجهمية والمعتلة .
- ١٤ — حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح .
- ١٥ — نزهة المشتاقين وروضة المحبين .
- ١٦ — الكافى لمن سائل عن الدواء الشافى .

- ١٧ — تحفة الودود فى أحكام فى المولود .
- ١٨ — مفتاح دار السعادة .
- ١٩ — اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو الفرقة الجهمية .
- ٢٠ — رفع اليدين فى الصلاة .
- ٢١ — نكاح المحرم . ٢٢ — تفضيل مكة على المدينة .
- ٢٣ — فضل العلم . ٢٤ — عدة الصابرين .
- ٢٥ — الكبائر . ٢٦ — حكم تارك الصلاة .
- ٢٧ — نور المؤمن وحياته . ٢٨ — حكم إغمام هلال رمضان .
- ٢٩ — التحرير فيما يحل ويحرم من لباس الحرير .
- ٣٠ — بطلان الكيمياء من أربعين وجهاً .
- ٣١ — الفرق بين الخلعة والحبة ، ومناظرة الخليل لقومه .
- ٣٢ — الكلم الطيب والعمل الصالح .
- ٣٣ — الفتح القدسى . ٣٤ — التحفة المكية .
- ٣٥ — أمثال القرآن . ٣٦ — شرح الأسماء الحسنى .
- ٣٧ — أيمان القرآن . ٣٨ — المسائل الطرابلسية .
- ٣٩ — الصراط المستقيم فى أحكام أهل الجحيم .
- ٤٠ — أعلام الموقعين عن رب العالمين .

ولقد شهد العلماء له بالعلم والورع . قال عنه ابن حجر : « كان جرى الجنان ،
واسع العلم ، عارفاً بالخلاف ومذاهب السلف » .

قال القاضى برهان الدين الزرعى :

ما تحت أديم السماء أوسع علماً منه ، ودرس بالصدرية ، وأمّ الجوزية وكتب
بخطه ما لا يحصى تصانيف كثيرة جداً فى مختلف العلوم .

إن كتاب الجواب الكافى مصنف من مجموعة المصنفات التى تبلغ الأربعين . إن
الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى دليل لكل محتار ، وشفاء لكل سقيم ،
وبلسم لمن عاش فى اضطراب نفسى ، نفع الله به . وجعلنا ممن يستمعون القول
فيتبعون أحسنه والله المستعان .

فصلى الله عليه وسلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

سئل الشيخ الإمام العالم العلامة المتقن الحافظ الناقد شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن الشيخ الصالح أبي بكر ، عرف بابن قيم الجوزية رضى الله عنه :
ما تقول السادة العلماء ، أئمة الدين ، رضى الله عنهم أجمعين ، فى رجل ابتلى ببليّة ، وعلم أنها إن استمرت به أفسدت عليه دنياه وآخرته ؟ وقد اجتهد فى دفعها عن نفسه بكل طريق ، فما يزداد إلا توقداً وشدة ، فما الحيلة فى دفعها ؟ وما الطريق إلى كشفها ؟ فرحم الله من أعان مبتلى . والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه .
أفتونا مأجورين رحمكم الله تعالى .

فأجاب الشيخ الإمام العالم شيخ الإسلام مفتى المسلمين شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب إمام المدرسة الجوزية رحمه الله تعالى :
البحمد لله ، أما بعد : فقد ثبت فى صحيح البخارى من حديث أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما أنزل الله داءً إلا أنزل الله له شفاءً » .

وفى صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ ، فإذا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ بَرَأَ بإِذْنِ اللَّهِ » .
وفى مسند الإمام أحمد من حديث أسامة بن شريك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ اللَّهَ لَمْ يُنْزِلْ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً ، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ ، وَجَهِلَهُ » .

مَنْ جَهَلَهُ . وفي لفظ « إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ شِفَاءً ، أَوْ دَوَاءً ، إِلَّا دَاءً وَاحِدًا . قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هُوَ ؟ قال : الهرم » . قال الترمذی : هذا حديث صحيح .

وهذا يعم أدواء القلب والروح والبدن وأدويتها ، وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم الجهل داء وجعل دواءه سؤال العلماء .

فروى أبو داود في سننه من حديث جابر بن عبد الله قال : « خرجنا في سفر ، فأصاب رجلاً منا حجر ، فشجه في رأسه ، ثم احتلم ، فسأل أصحابه فقال : هل تجدون لي رخصة في التيمم ؟ قالوا : ما نجد لك رخصة ، وأنت تقدر على الماء . فاغتسل فمات . فلما قدمنا على النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك . فقال : قَتَلُوهُ ، قَتَلَهُمُ اللَّهُ ! أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا ؟ فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ ، إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيْمَّمَ وَيَعْصِرَ - أَوْ يَعْصِبَ - عَلَى جَرْحِهِ خِرْقَةً ، ثُمَّ يَمْسَحُ عَلَيْهَا ، وَيَغْسِلُ سَائِرَ جَسَدِهِ » فأخبر أن الجهل داء ، وأن شفاءه السؤال .

وقد أخبر سبحانه عن القرآن أنه شفاء ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ؟ أَأَعْجَمِي وَعَرَبِي ؟ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً ﴾ [فصلت : ٤٤] . وقال : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء : ٨٢] . و « من » هنا لبيان الجنس لا للتبعض ، فإن القرآن كله شفاء ، كما قال في الآية المتقدمة ، فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والبشك والريب ، فلم ينزل الله سبحانه وتعالى من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أنجع في إزالة الداء من القرآن .

وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي سعيد قال : « انطلق نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في سفرة سافروها ، حتى نزلوا على حي من أحياء العرب .

فماستضافوهم ، فأبوا أن يضيفوهم فلدغ سيد ذلك الحي ، فسعوا له بكل شيء
فلا ينفعه شيء ، فقال بعضهم : لو أتيتهم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لغله أن يكون
عند بعضهم شيء ، فأتوهم ، فقالوا : يا أيها الرهط ، إن سيدنا لدغ ، وسعينا له
بكل شيء لا ينفعه شيء . فهل عند أحد منكم من شيء ؟ فقال بعضهم : نعم ،
والله إني لأرقي ، ولكن والله لقد استضعفناكم فلم تضيفونا ، فما أنا براق لكم حتى
تجعلوا لي جعلا ، فصالحوهم على قطع من الغنم ، فانطلق يتفأل عليه ويقرأ :
﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ فكانما نشط من عقال ، فانطلق يمشي ، وما به قلبه (١)
فلو فوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه . فقال بعضهم : اقتسموا . فقال الذي رقى :
فلا نفعل حتى نأتي النبي صلى الله عليه وسلم فنذكر له الذي كان ، فننظر ما
يأمرنا . فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكروا له ذلك فقال :
وما يدريك أنها رقية ؟ ثم قال : قد أصبتم ، اقتسموا واضربوا لي معكم سهماً .
فقد أثر (هذا) الدواء في هذا الداء وأزاله ، حتى كأنه لم يكن . وهو أسهل دواء
سواء يسره ، ولو أحسن العبد التداوى بالفاتحة لرأى لها تأثيراً عجيباً في الشفاء .
ومكنت بمكة مدة يعتريني أدواء ولا أجد طبيباً ولا دواء فكنت أعالج نفسي
بالفاتحة ، فأرى لها تأثيراً عجيباً ، فكنت أصف ذلك لمن يشتكي ألماً ، فكان
كثير منهم يبرأ سريعاً ..

ولكن ههنا أمر ينبغي التفطن له ، وهو أن الأدكار والآيات أو الأدعية التي
يستشفى بها ويرقى بها ، هي في نفسها نافعة شافية . ولكن تستدعي قبول المهل ،
سوقوة همة الفاعل ، وتأثيره ، فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل ،
أو لعدم قبول المتفعل ، أو لمانع قوى فيه يمنع أن ينجع فيه الدواء كما يكون
ذلك في الأدوية والأدواء الحسية ، فإن عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة

(١) في النهاية : غلبة - بحر كات - أي غلة .

لذلك الدواء ، وقد يكون المانع قوى يمنع من اقتضائه أثره . فإن الطبيعة إذا أخذت الدواء بقبول تام كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول . فكذلك القلب إذا أخذ الرقى والتعاويذ بقبول تام ، وكان للراق نفس فعالة وهمة مؤثرة في إزالة الداء .

وكذلك الدعاء ، فإنه من أقوى الأسباب في دفع المكروه ، وحصول المطلوب ، ولكن قد يتخلف أثره عنه ، إما لضعفه في نفسه - بأن يكون دعاء لا يحبه الله ، لما فيه من العدوان - وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء ، فيكون بمنزلة القوس الرخو جداً فإن السهم يخرج منه خروجاً ضعيفاً ، وإما لحصول المانع من الإجابة : من أكل الحرام ، ورين الذنوب على القلوب ، واستيلاء الغفلة والشهوة واللهو وغلبتها عليها . كما في مستدرک الحاكم من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة » .

واعلموا أن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاه ، فهذا دواء نافع مزيل للداء . ولكن غفلة القلب عن الله تبطل قوته ، وكذلك أكل الحرام يبطل قوته ويضعفها ، كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ : لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون : ٥١] وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [البقرة : ١٧٢] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء : يارب يارب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام وغُلَىٰ يالْحَرَامِ ، فإني يستجاب لذلك ؟ » وذكر عبد الله ابن الإمام أحمد في كتاب الزهد لأبيه « أصاب بنى إسرائيل بلاء ، فخرجوا

مخرجًا ، فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن أخبرهم : أنكم تخرجون إلى الصعيد بأبدان نجسة ، وترفعون إلى أكفأ قد سفكتم بها الدماء ، وملأتم بها بيوتكم من الحرام ، الآن حين اشتد غضبي عليكم ؟ ولن تزدادوا مني إلا بُعْدًا . وقال أبو ذر : يكفي من الدعاء مع البر ما يكفي الطعام من الملح .

فصل

والدعاء من أنفع الأدوية ، وهو عدو البلاء ، يدافعه ويعالجه ، ويمنع نزوله ، ويرفعه ، أو يخففه إذا نزل ، وهو سلاح المؤمن كما روى الحاكم في صحيحه من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الدُّعَاءُ سِلَاحُ الْمُؤْمِنِ ، وَعِمَادُ الدِّينِ ، وَتَوَارُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » .

وله مع البلاء ثلاث مقامات :

أحدها : أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه .

الثاني : أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء ، فيصاب به العبد ، ولكن قد يخففه وإن كان ضعيفًا .

الثالث : أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه .

وقد روى الحاكم في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها ، قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا يُغْنِي حُلْرٌ مِنْ قَدَرٍ . وَالدُّعَاءُ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزَلِ ، وَإِنَّ الْبَلَاءَ لَيَنْزِلُ فَيُلْقَاهُ الدُّعَاءُ فَيَعْتَلِجَانِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » . وفيه أيضًا من حديث ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الدُّعَاءُ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزَلِ ، فَعَلَيْكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِالدُّعَاءِ » .

وفيه أيضًا من حديث ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لَا يَرُدُّ الْقَدَرُ إِلَّا الدُّعَاءُ ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إِلَّا الْبِرُّ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ » .

فصل

ومن أنفع الأدوية : الإلحاح في الدعاء .

وقد روى ابن ماجه في سننه من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ » .

وفي صحيح الحاكم من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لَا تَعْجُزُوا ^(١) فِي الدُّعَاءِ ، فَإِنَّهُ لَا يَهْلِكُ مَعَ الدُّعَاءِ أَحَدٌ » .

وذكر الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُلِحِّينَ فِي الدُّعَاءِ » .

وفي كتاب الزهد للإمام أحمد عن قتادة قال : قال مورك : « ما وجدت للمؤمن مثلاً إلا رجلاً في البحر على خشبة ، فهو يدعو : يا رب . . يا رب ، لعل الله عز وجل أن ينجيه » .

فصل

ومن الآفات التي تمنع ترتب أثر الدعاء عليه : أن يستعجل العبد ، ويستبطئ الإجابة ، فيستحسر ويدع الدعاء . وهو بمنزلة من بذر بذراً أو غرس غرساً ، فجعل يتعاهده ويسقيه ، فلما استبطأ كماله وإدراكه تركه وأهمله .

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ ، يَقُولُ : دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي » .

وفي صحيح مسلم عنه : « لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ، ما لم يستعجل . قيل : يا رسول الله ما الاستعجال ؟ قال : يقول قد دعوت وقد دعوت ، فلم أر يستجاب لي ، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء » .

(١) المراد لا تقفروا ولا تضعفوا في الدعاء ، ولا تهونوا من شأن الدعاء فتظنوا عدم فائدته ، بل ادعوا ربكم تضرعاً وخفية وأنتم موقنون بالإجابة .

وفي مسند أحمد من حديث أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل . قالوا : يا رسول الله ، كيف يستعجل ؟ قال
يقول : قد دعوت ربى فلم يستجب لى » .

فصل

وإذا جمع مع الدعاء حضور القلب وجميعته بكليته على المطلوب ، وصادف
وقتاً من أوقات الإجابة الستة - وهو : الثلث الأخير من الليل ، وعند الأذان ،
وبين الأذان والإقامة ، وأدبار الصلوات المكتوبات ، وعند صعود الإمام يوم
الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة من ذلك اليوم ، وآخر ساعة بعد العصر -
وصادف خشوعاً في القلب ، وانكساراً بين يدي الرب ، وذلاً له وتضرعاً ورقة ،
واستقبال الداعي القبلة ، وكان على طهارة ، ورفع يديه إلى الله ، وبدأ بحمد الله
والثناء عليه ، ثم ثنى بالصلاة على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ،
ثم قدم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار ، ثم دخل على الله ، وألح عليه في
المسألة ، وتلقه ودعاه رغبة ورهبة ، وتوسل إليه بأسائه وصفاته وتوحيده وقدم
بين يدي دعائه صدقة ، فإن هذا الدعاء لا يكاد يرد أبداً . ولا سيما إن صادف
الأدعية التي أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنها مظنة الإجابة ، أو أنها متضمنة
للاسم الأعظم .

فمنها ما في السنن و (في) صحيح ابن حبان من حديث عبد الله بن بريدة عن
أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً يقول : « اللهم إني أسألك بأنى
أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت ، الأعد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن
له كفواً أحد . فقال : لقد سأل الله بالاسم الذى إذا مثل به أعطى ، وإذا دُعِ
به أجاب » . وفي لفظ : « لقد سألت الله باسمه الأعظم » .

وفي السنن وصحيح ابن حبان أيضاً من حديث أنس بن مالك : « أنه كان

مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً ورجل يصلى ، ثم دعا فقال : اللهم إني أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا حي يا قيوم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لقد دعا الله باسمه العظيم ، الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى .

وأخرج الحليين الإمام أحمد فى مسنده .

وفى جامع الترمذى ، من حديث أسماء بنت يزيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين ﴿ وَلِلَّهِ كُفُوفُ إِلَهٍ وَاحِدٌ ﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ١٦٣] . وفاتحة آل عمران ﴿ أَلَمْ . اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ . قال الترمذى : هذا حديث صحيح .

وفى مسند الإمام أحمد وصحيح الحاكم من حديث أبي هريرة وأنس بن مالك وربيعة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أَلِظُوا بِيَاذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » يعنى تعلقوا بها والزموها وداوموا عليها .

وفى جامع الترمذى من حديث أبي هريرة رضى الله عنه : « أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا أَهَمَّهُ الْأَمْرُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فِي الدَّعَاءِ قَالَ : يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ »

وفيه أيضاً من حديث أنس بن مالك ، قال : « كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ قَالَ : يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ . بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ » .

وفى صحيح الحاكم من حديث أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اسم الله الأعظم فى ثلاث سور من القرآن : البقرة ، وآل عمران ، وطه » . قال القاسم : فالتمستها فإذا هى آية ﴿ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾

وفى جامع الترمذى وصحيح الحاكم من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « دَعَا ذِي النَّوْنِ ، إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ » ﴿ أَنْ .

لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿ [الْأَنْبِيَاء : ٨٧] أَنَّهُ لَمْ يَذْعُ بِهَا مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ » . قال الترمذى : حديث صحيح .
وفي مستدرک الحاكم أيضًا من حديث سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم :
« أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشَيْءٍ إِذَا نَزَلَ بِرَجُلٍ مِنْكُمْ أَمْرٌ مَهُمٌ فَلَدَعَا بِهِ يَفْرُجُ اللَّهُ عَنْهُ ؟
دُعَاءُ ذِي النَّوْنِ » .

وفي صحيحه أيضًا عنه أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقُولُ : « هَلْ
أَدُلُّكُمْ عَلَى اسْمِ اللَّهِ الْأَعْظَمِ ؟ دُعَاءُ يُونُسَ . قال رجل : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هَلْ كَانَتْ
لِيُونُسَ خَاصَّةٌ ؟ فَقَالَ : أَلَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ،
وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الْأَنْبِيَاء : ٨٨] فَإِنَّمَا مُسْلِمٌ دَعَا بِهَا فِي مَرَضِهِ أَرْبَعِينَ
مَرَّةً فَمَاتَ فِي مَرَضِهِ ذَلِكَ أُعْطِيَ أَجْرَ شَهِيدٍ ، وَإِنْ بَرَأَ بَرَأَ مَغْفُورًا لَهُ » .

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ
يَقُولُ عِنْدَ الْكَرْبِ : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ،
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ » .

وفي مسند الإمام أحمد من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ :
« عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا نَزَلَ كَرْبٌ أَنْ أَقُولَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ » .

وفي مسنده أيضًا من حديث عبد الله بن مسعود . قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حُزْنٌ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ
ابْنُ عَبْدِكَ ابْنِ أَمَتِكَ ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ ،
أَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ

أَوْ أَنْزَلَتْهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ اسْتَغَاثُتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ : أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ رَبِيعَ قَلْبِي ، وَنُورَ صَدْرِي ، وَجَلَاءَ حُزْنِي ، وَذَهَابَ هَمِّي ، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلْ هَمِّهِ وَحُزْنَهِ ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا ، فَقِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَلَا نَتَعَلَّمُهَا ؟ قَالَ : بَلَى ، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا .

وقال ابن مسعود : « ما كُرب نبي من الأنبياء إلا استغاث بالتسبيح » .
وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب المجابين وفي الدعاء عن الحسن قال : « كان رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من الأنصار يكنى أبا معلق ، وكان تاجراً يتجر بمال له ولغيره ، يضرب به في الآفاق ، وكان ناسكاً ورعاً ، فخرج مرة فلقبه لص مقلع في السلاح . فقال له : ضع ما معك ، فأني قاتلك . قال : ما تريد من دى^(١) ؟ شأنك بالمال . قال : أما المال فلي ، ولست أريد إلا دمك . أما إذا أبيت فذرني أصلي أربع ركعات . قال صل ما بدا لك . فتوضأ ثم صلى أربع ركعات . فكان من دعائه في آخر سجوده أن قال : يا ودود يا ودود ، يا ذا العرش المجيد ، يا فعالاً لما تريد ، أسألك بعزك الذي لا يرام ، وبملكك الذي لا يضام ، وببنورك الذي ملأ أركان عرشك : أن تكفيني شر هذا اللص : يامغيث أغثنى ، يا مغيث أغثنى . ثلاث مرات . فإذا هو بفارس قد أقبل بيده حربة قد وضعها بين أذني فرسه ، فلما بعصر به اللص أقبل نحوه ، فطعنه فقتله . ثم أقبل إليه فقال : قم . فقال : من أنت باني أنت وأمي ؟ فقد أغثنى الله بك اليوم . فقال : أنا ملك من أهل السماء الرابعة ، دعوت بدعائك الأول فسمعت لأبواب السماء قفقهة . ثم دعوت بدعائك الثاني فسمعت لأهل السماء ضجة . ثم دعوت بدعائك الثالث فقيل لي : دعاء مكروب . فسألت الله أن يولياني قتله . قال

(١) في الأصل « ما تريد لي دى » ولعل الصواب ما أثبتناه .

الحسن : فمن تَوْضُأً وصلّى أربع ركعات ودعا بهذا الدعاء استجيب له مكروباً
كان أو غير مكروب .

فصل

وكثيراً ما نجد أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم . ويكون قد اقترن بالدعاء
ضرورة صاحبه وإقباله على الله ، أو حسنة تقدمت منه جعل الله سبحانه إجابة
دعوته شكراً لحسنه ، أو صادف وقت إجابة ونحو ذلك ، فأجيب دعوته ،
فيظن الظان أن السر في لفظ ذلك الدعاء ، فيأخذه مجرداً عن تلك الأمور التي
قارنته من ذلك الداعي . وهذا كما إذا استعمل رجل دواء نافعا في الوقت الذي
ينبغي استعماله على الوجه الذي ينبغي ، فانتفع به فظن غيره أن استعمال هذا
الدواء بمجرده كاف في حصول المطلوب كان غلطاً . وهذا موضع يغلط فيه كثير
من الناس .

ومن هذا أنه قد يتفق دعاؤه باضطرار عند قبر . فيظن الجاهل أن السر
للقبر ، ولم يعلم أن السر للاضطرار وصدق اللجأ إلى الله . فإذا حصل ذلك في
بيت من بيوت الله كان أفضل وأحب إلى الله .

فصل

والأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح . والسلاح بضاربه ، لا بحده فقط . فمتى
كان السلاح سلاحاً تاماً لا آفة به ، والساعد ساعد قوياً ، والمانع مفقود - حصلت
به النكاية في العدو . ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير ، فإذا كان
الدعاء في نفسه غير صالح ، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء
أو كان ثم مانع من الإجابة ، لم يحصل الأثر (١) .

(١) في نسخة « لم يحصل التأثير » .

فصل

وهنا سؤال مشهور ، وهو : أن المدعو به إن كان قُدِّرَ لم يكن بد من وقوعه ،
دعا به العبد أو لم يدع ، وإن لم يكن قد قدر لم يقع ، سواء سأله العبد أو
لم يسأله .

فطلت طائفة صحة هذا السؤال ، فتركت الدعاء . وقالت : لا فائدة فيه .
وهؤلاء - مع فرط جهلهم وضلالهم - متناقضون ، فإن طرد مذهبهم يوجب
تعطيل جميع الأسباب ، فيقال لأحدهم : إن كان الشيع والرى قد قدرا لك فلا بد
من وقوعهما ، أكلت أو لم تأكل . وإن لم يقدر لم يقعا أكلت أو لم تأكل .
وإن كان الولد قد قدر لك فلا بد منه ، وطئت الزوجة أو الأمة أو لم تطأ .
وإن لم يقدر ذلك لم يكن ، فلا حاجة إلى التزوج والتسرى . وهلم جرا . فهل
يقول هذا عاقل أو آدمى ؟ بل الحيوان البهيم مفطور على مباشرة الأسباب التي
بها قوامه وحياته . فالحیوانات أعقل وأفهم من هؤلاء الذين هم كالأنعام ،
بل هم أضل سبيلا .

وتكليس^(١) بعضهم وقال : الاشتغال بالدعاء من باب التعبد المحض يثيب
الله عليه الداعي من غير أن يكون له تأثير في المطلوب بوجه ما ، ولا فرق عند
هذا المتكيس بين الدعاء وبين الإمساك عنه بالقلب واللسان في التأثير في حصول
المطلوب . وارتباط الدعاء عندهم به كارتباط السكوت ، ولا فرق .

وقالت طائفة أخرى أكيس من هؤلاء : بل الدعاء علامة مجردة نصبها الله
سبحانه وتعالى أمانة على قضاء الحاجة ، فمتى وفق الله العبد للدعاء كان ذلك علامة
له وأمانة على أن حاجته قد انقضت . وهذا كما إذا رأيت غيما أسود بارداً في

(١) تكليس : ادعى الكيس وتكلفه . وهو الحزم والفظانة

زمن الشتاء ، فإن ذلك دليل وعلامة على أنه يمطر . قالوا : وهكذا حكم الطاعات مع الثواب ، والكفر والمعاصي مع العقاب ، هي أمارات محضة لوقوع الثواب والعقاب ، لا أنها أسباب له . وهكذا عندهم الكسر مع الانكسار ، والحرق مع الإحراق ، والإزهاق مع القتل . ليس شيء من ذلك سبباً ألبتة ، ولا ارتباط بينه وبين ما يترتب عليه ، إلا مجرد الاقتران العادى ، لا التأثير السببى وخالفوا بذلك الحس والعقل ، والشرع والفطرة ، وسائر طوائف العقلاء . بل أضحكوا عليهم العقلاء .

والصواب : أو ههنا قسماً ثالثاً ، غير ما ذكره السائل . وهو أن هذا المقدور قُدر بأسباب ، ومن أسبابه الدعاء . فلم يقدر مجرداً عن سببه ، ولكن قدر سببه ، فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور ، ومتى لم يأت بالسبب انتفى المقدور . وهذا كما قدر الشيع والرى بالأكل والشرب ، وقدر الولد بالوطء ، وقدر حصول الزرع بالبذر ، وقدر خروج نفس الحيوان بذبحه . وكذلك قدر دخول الجنة بالأعمال ، ودخول النار بالأعمال . وهذا القسم هو الحق . وهذا الذى حرمه السائل ولم يوفق له .

وحينئذ فالدعاء من أقوى الأسباب ، فإذا قدر وقوع المدعو به بالدعاء لم يصح أن يقال : لا فائدة فى الدعاء ، كما لا يقال : لا فائدة فى الأكل والشرب وجميع الحركات والأعمال . وليس شيء من الأسباب أنفع من الدعاء ، ولا أبلغ فى حصول المطلوب .

ولما كان الصحابة رضى الله عنهم أعلم الأمة بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم وأفقههم فى دينه كانوا أقوم بهذا السبب وشروطه وآدابه من غيرهم . وكان عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يستنصر به على عدوه . وكان أعظم جنديه . وكان يقول لأصحابه « لستم تنصرون بكثرة ، وإنما تنصرون من السماء » . وكان يقول

« إني لا أحمل همَّ الإجابة معه . ولكن هم الدعاء . فإذا ألهتم فإن الدعاء الإجابة معه » . وأخذ الشاعر هذا المعنى فنظمه ، فقال :

لو لم ترد نيل ما أرجو وأطلبه من جود كفيك ما عودتني الطلب
فمن ألهم الدعاء فقد أريد به الإجابة ، فإن الله سبحانه يقول : ﴿ اذْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] . وقال : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

وفي سنن ابن ماجه من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ » وهذا يدل على أن رضاه في سؤاله وطاعته . وإذا رضى الرب تبارك وتعالى فكل خير في رضاه ، كما أن كل بلاء ومصيبة في غضبه .

وقد ذكر الإمام أحمد في كتاب الزهد أثراً « أَنَا اللَّهُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ، إِذَا رَضِيتُ بَارَكْتُ ، وَلَيْسَ لِبَرَكَّتِي مُنْتَهَى . وَإِذَا غَضِبْتُ لَعَنْتُ ، وَلَعْنَتِي تَبْلُغُ السَّابِعَ مِنَ الْوَلَدِ » .

وقد دل العقل والنقل والفطرة وتجارب الأمم - على اختلاف أجناسها ومللها ونحلها - على أن التقرب إلى رب العالمين ، وطلب مرضاته ، والبر والإحسان إلى خلقه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير ، وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شر ، فما استجلبت نعم الله تعالى واستدفعت نقمه بمثل طاعته ، والتقرب إليه ، والإحسان إلى خلقه .

وقد رتب الله سبحانه حصول النجرات في الدنيا والآخرة وحصول الشرور في الدنيا والآخرة في كتابه على الأعمال ، ترتب الجزاء على الشرط ، والمعلول على المعللة ، والمصيب على السبب ، وهذا في القرآن يزيد على ألف موضع ، فتارة يرتب الحكم المخبري الكوني والأمر الشرعي على الوصف المناسب له ، كقوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا عَتَا عَمَّا نُهِوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ [الأعراف : ١٦٦]
 وقوله : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف : ٥٥] . وقوله : ﴿ وَالسَّارِقُ
 وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا ﴾ [المائدة : ٣٨] . وقوله : ﴿ إِنَّ
 الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ، وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ ، وَالصَّادِقِينَ
 وَالصَّادِقَاتِ ، وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ، وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ ، وَالْمُتَصَدِّقِينَ
 وَالْمُتَصَدِّقَاتِ ، وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ ، وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ،
 وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب
 : ٣٥] . وهذا كثير جدًا ، وتارة يرتبه عليه بصيغة الشرط والجزاء كقوله تعالى :
 ﴿ إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ [الأنفال :
 ٢٩] . وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾
 [التوبة : ١١] . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴾
 [الجن : ١٦] ونظائره . وتارة يأتي بلام التعليل كقوله تعالى : ﴿ لِيَلْبَرُوا
 آيَاتِهِ وَلِيَنْفَكِرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [ص : ٢٩] . وقوله تعالى : ﴿ لِيَتَكُونُوا شُهَدَاءَ
 عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] . وتارة يأتي بأداة
 : كى « التى للتعليل » ، كقوله تعالى : ﴿ كَيْلًا يَكُونُ ذُوْلَةُ بَيْنِ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾
 [الحشر : ٧] . وتارة يأتي بباء السببية كقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ
 أَيْدِيَكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٨٢] . وقوله تعالى : ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة :
 ١٠٥] . وقوله تعالى : ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا
 يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٣] . وتارة يأتي بالمفعول لأجله ظاهراً
 أو محذوفاً ، كقوله تعالى : ﴿ فَرَجُلٌ وَآمَرَاتَانِ مِنْ تَرْضُونَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ (١)
 إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ﴾ [البقرة : ٢٨٢] . وكقوله تعالى : ﴿ أَنْ

(١) نضل : أى تخطئ . لعدم ضبطها وقلة عنايتها ، لأن الشهادة ليست من شأنها

تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿ [الأعراف : ١٢٧] . وقوله : ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلُنَا ﴾ [الأنعام : ١٥٦] أَى كراهة أَنْ تَقُولُوا ، وتارة يَأْتِي بفاء السببية ، كقوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾ [الشمس : ١٤ ، ١٥] . وقوله : ﴿ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً ﴾ [الحاقة : ١٠] . وقوله : ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴾ [المؤمنون : ٤٨] ونظائره . وتارة يَأْتِي بِأداة « لَمَّا » الدالة على الجزاء كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف : ٥٥] . ونظائره . وتارة يَأْتِي بِإِنْ وما عملت فيه ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ [الأنبياء : ٩٠] . وقوله فى ضد هؤلاء : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٧] . وتارة يَأْتِي بِأداة « لَوْلا » الدالة على ارتباط ما قبلها بما بعدها ، كقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلْبَيْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات : ١٤٣ ، ١٤٤] . وتارة يَأْتِي « بَلَوْ » الدالة على الشرط ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [النساء : ٦٦] .

وبالجملة . فالقرآن من أوله إلى آخره صريح فى ترتب الجزاء بالخير والشر والأحكام الكونية والأمرية على الأسباب . بل ترتب أحكام الدنيا والآخرة ومصالحهما ومفاسدهما على الأسباب والأعمال .

ومن تفقه هذه المسألة وتأملها حق التأمل انتفع بها غاية النفع ، ولم يتكل على القدر جهلا منه ، وعجزاً وتفريطاً وإضاعة ، فمكون توكله عجزاً ، وعجزه توكلًا . بل الفقيه كل الفقيه الذى يرد القدر بالقدر ، ويدفع القدر بالقدر ، يعارض القدر بالقدر ، بل لا يمكن الإنسان أن يعيش إلا بذلك ، فإن الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هى من القدر . والخلق كلهم ساعون

بقي دفع هذا القدر بالقدر ، وهكذا من وفقه الله وألهمه رشده يدفع قدر العقوبة الأخروية بقدر التوبة والإيمان والأعمال الصالحة ، فهذا وزان القدر المخوف في الدنيا ، وما يضاده سواء ، قرب الدارين واحد ، وحكمته واحدة ، لا يناقض بعضها بعضاً ، ولا يبطل بعضها بعضاً ، فهذه المسألة من أشرف المسائل لمن عرف قدرها ، وزعأها حق رعايتها ، والله المستعان .

لكن يبقى عليه أمران بهما تتم سعادته وفلاحه :

أحدهما : أن يعرف تفاصيل أسباب الشر والخير ، وتكون له بصيرة في ذلك بما يشاهده في العالم ، وما جربه في نفسه وغيره ، وما سمعه في أخبار الأمم قديماً وحديثاً .

ومن أنفع ما في ذلك تدبر القرآن ، فإنه كفيلاً بذلك على أكمل الوجوه . وفيه أسباب الخير والشر جميعاً مفصلة مبينة . ثم السنة ، فإنها شقيقة القرآن ، وهي الوحي الثاني . ومن صرف إليهما عنايته اكتفى بهما عن غيرهما . وهما يريانك الخير والشر وأسبابهما ، حتى كأنك تعاین ذلك عياناً . وبعد ذلك إذا تأملت أخبار الأمم وأيام الله في أهل طاعته وأهل معصيته طابق ذلك ما علمته من القرآن والسنة ورأيت بتفاصيل ما أخبر الله به ووعد به ، وعلمت من آياته في الآفاق ما يدلك على أن القرآن حق ، وأن الرسول حق ، وأن الله ينجز وعده لا محالة ، فالتاريخ تفصيل لجزئيات ما عرفنا الله ورسوله به من الأسباب الكلية للخير والشر .

فصل

الأمر الثاني : أن يحذر مغالطة نفسه على هذه الأسباب . وهذا من أهم الأمور فإن العبد يعرف أن المعصية والغفلة من الأسباب المضرة له في دنياه وآخرته بولابد ، ولكن تغالطه نفسه بالانتكالي على عفو الله ومغفرته تارة ، وبالتسويق

بالتوبة وبالاستغفار باللسان تارة ، وبفعل المنذوبات تارة ، وبالعلم تارة ، وبالاحتجاج بالقدر تارة ، وبالاحتجاج بالأشياء والنظراء تارة ، وبالاقتداء بالأكابر تارة أخرى .

وكثير من الناس يظن أنه لو فعل ما فعل ثم قال (أستغفر الله) زال الذنب ، وراح هذا بهذا . وقال لى رجل من المنتسبين إلى الفقه : أنا أفعل ما أفعل ثم أقول سبحان الله وبحمده مائة مرة ، وقد غفر ذلك أجمعه كما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قال في يوم : سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت عنه خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر » . وقال لى آخر من أهل مكة : نحن أخذنا إذا فعل ما فعل^(١) اغتسل وطاف بالبيت أسبوعاً وقد محى عنه ذلك . وقال لى آخر : قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أذهب عبد ذنباً فقال : أى رب أصبت ذنباً فاغفر لى ، فغفر له ، ثم مكث ما شاء الله ، ثم أذنب ذنباً آخر ، فقال : أى رب ، أصبت ذنباً فاغفر لى ، فقال الله عز وجل : علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به . قد غفرت لعبدى ، فليصنع ما شاء » . قال : وأنا لا أشك أن لى رباً يغفر الذنب ويأخذ به . وهذا الضرب من الناس قد تعلق بنصوص من الرجاء ، واتكل عليها ، وتعلق بكلتا يديه ، وإذا عوتب على الخطايا والانهماك فيها سرد لك ما يحفظه من سعة رحمة الله ومغفرته ونصوص الرجاء . وللجهال من هذا الضرب من الناس في هذا الباب غرائب وعجائب . كقول بعضهم :

وكثر ما استطعت من الخطايا إذا كان القدوم على كريم

وقول الآخر : التنزه من الذنوب جهل بسعة عفو الله .

وقول الآخر : ترك الذنوب جرأة على مغفرة الله واستصغار

(١) وهكذا . وربما كان أصل العبارة « نحن إذا فعل أخذنا »

وقال محمد بن حزم : رأيت بعض هؤلاء يقول في دعائه : اللهم إني أعوذ بك من العصمة .

ومن هؤلاء المغرورين من يتعلق بمسألة الجبر ، وأن العبد لا فعل له البتة ولا اختيار ، وإنما هو مجبور على فعل المعاصي .

ومن هؤلاء من يغتر بمسألة الإرجاء ، وأن الإيمان هو مجرد التصديق ، والأعمال ليست من الإيمان ، وأن إيمان أفسق الناس كإيمان جبريل وميكائيل . ومن هؤلاء من يغتر بمحبة الفقراء والمشايع والصالحين ، وكثرة التردد إلى قبورهم والتضرع إليهم ، والاستشفاع بهم ، والتوسل إلى الله بهم ، وسؤاله بحقهم عليه ، وحرمتهم عنده .

ومنهم من يغتر بآبائه وأسلافه . وأن لهم عند الله مكاناً وصلاًحاً ، فلا يدعوه أن يخلّصه ، كما يشاهد في حضرة الملوك ، فإن الملوك تهب لخواصهم ذنوب أبنائهم وأقاربهم ، وإذا وقع أحد منهم في أمر مُفْطَح خَلَصه أبوه وجده بجاهه ومنزلته .

ومنهم من يغتر بأن الله عز وجل غني عن عذابه ، وعذابه لا يزيد في ملكه شيئاً . ورحمته له لا تنقص من ملكه شيئاً . فيقول : أنا مضطر إلى رحمته ، وهو أغني الأغنياء ، ولو أن فقيراً مسكيناً مضطراً إلى شربة ماء عند من في داره شط يجرى لما منعه منها ، فالله أكرم وأوسع ، والمغفرة لا تنقصه شيئاً ، والعقوبة لا تزيد في ملكه شيئاً .

ومنهم من يغتر يفهم فاسد فهمه هو وأضرابه من نصوص القرآن والسنة ، فاتكّلوا كاتكال بعضهم على قوله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ [الضحى] : وهو لا يرضى أن يكون في النار . وهذا من أقبح الجهل ، وأبين الكذب عليه ، فإنه يرضى بما يرضى به ربه عز وجل ، والله تعالى يرضيه تعذيب الظلمة .

والفسقة والخونة والمصريين على الكبائر ، فحاشا برسوله أن لا يرضى بما يرضى به ربه تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر : ٩٣] وهذا أيضا من أقبح الجهل ، فإن الشرك داخل في هذه الآية فإنه رأس الذنوب وأساسها . ولا خلاف أن هذه الآية في حق التائبين ، فإنه يغفر ذنب كل تائب من أى ذنب كان . ولو كانت الآية في حق غير التائبين لبطلت نصوص الوعيد كلها . وأحاديث إخراج قوم من الموحدين من النار بالشفاعة . وهذا إنما أتى صاحبه من قلة علمه وفهمه ، فإنه سبحانه ههنا عَمَّ وأطلق ، فعلم أنه أراد التائبين . وفي سورة النساء خصص وقيد فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨] . فأخبر الله سبحانه أنه لا يغفر الشرك ، وأخبر أنه يغفر ما دونه ، ولو كان هذا في حق التائب لم يفرق بين الشرك وغيره . وكاغترار بعض الجهال بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ [الانفطار : ٦] . فيقول : كرمه ، وقد يقول بعضهم : إنه لقن المغتر حجته ، وهذا جهل قبيح ، وإنما غره به الغرور ، وهو الشيطان ، ونفسه الأمارة بالسوء وجهله وهواه وأتى سبحانه بلفظ « الكريم » وهو السيد العظيم المطاع الذي لا ينبغي الاغترار به ولا إهمال حقه ، فوضع هذا المغتر الغرور في غير موضعه ، واغتر بمن لا ينبغي الاغترار به . وكاغترار بعضهم بقوله تعالى في النار : ﴿ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ [الليل : ١٥ ، ١٦] وقوله تعالى : ﴿ أَعْلَتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤] . ولم يدر هذا المغتر أن قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّا نُرْثِيكُمْ نَارًا تَلْظَى ﴾ [الليل : ١٤] هي نار مخصوصة من جملة دركات جهنم ، ولو كانت جميع جهنم فهو سبحانه لم يقل لا يدخلها ، بل قال ﴿ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴾ ولا يلزم من عدم صليها عدم دخولها ، فإن الصلي أخص من الدخول ، ونفى الأخص لا يستلزم نفي الأعم .

ثم إن هذا المغتر لو تأمل الآية التي بعدها لعلم أنه غير داخل فيها فلا يكون مضموناً له أن يُجَنَّبَهَا .

وأما قوله تعالى في النار : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ فقد قال في الجنة ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] . ولا ينافي إعداد النار للكافرين أن يدخلها الفساق والظلمة . ولا ينافي إعداد الجنة للمتقين أن يدخلها من في قلبه أدنى مثقال ذرة من الإيمان ولم يعمل خيراً قط .

وكاغترار بعضهم بالاعتماد على صوم عاشوراء ، أو يوم عرفة ، حتى يقول بعضهم : صوم يوم عاشوراء يكفر ذنوب العام كلها ، ويبقى صوم عرفة زيادة في الأجر . ولم يدر هذا المغتر أن صوم رمضان والصلوات الخمس أعظم وأجل من صيام يوم عرفة ويوم عاشوراء ، وهى إنما تكفر ما بينهما إذا اجتنبت الكبائر ، فرمضان إلى رمضان والجمعة إلى الجمعة لا يقويان على تكفير الصغائر إلا مع انضمام ترك الكبائر إليها ، فيقوى مجموع الأمرين على تكفير الصغائر . فكيف يكفر صوم يوم تطوع كل كبيرة عملها العبد وهو مصر عليها ، غير تائب منها؟ هذا محال . على أنه لا يمتنع أن يكون صوم يوم عرفة ويوم عاشوراء مكفراً لجميع ذنوب العام على عمومه ، وتكون من نصوص الوعد التي لها شروط وموانع ، ويكون إصراره على الكبائر مانعاً من التكفير ، فإذا لم يُصر على الكبائر لتساعد الصوم وعدم الإصرار ، وتعاونهما على عموم التكفير . كما كان رمضان والصلوات الخمس مع اجتناب الكبائر متساعدين متعاونين على تكفير الصغائر مع أنه سبحانه قد قال : ﴿ إِنْ تَجَنَّبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ [النساء : ٣١] فعلم أن جعل الشيء سبباً للتكفير لا يمتنع أن يتساعد هو وسبب آخر على التكفير ، ويكون التكفير مع اجتماع السببين أقوى وأتم منه مع انفراد أحدهما . وكلما قويت أسباب التكفير كان أقوى وأتم وأشمل .

وكاتكال بعضهم على قوله صلى الله عليه وسلم حاكيا عن ربه : « أنا عند حسن ظن عبدى بى ، فليظن بى ما شاء » يعنى ما كان فى ظنه فإنى فاعله به ، ولا ريب أن حسن الظن إنما يكون مع الإحسان ، فإن المحسن حسن الظن بربه أنه يجازيه على إحسانه ولا يخلف وعده ، ويقبل توبته ، وأما المسىء المصر على الكبائر والظلم والمخالفات فإن وحشة المعاصى والظلم والحرام تمنعه من حسن الظن بربه ، وهذا موجود فى الشاهد ، فإن العبد الآبىء المسىء الخارج عن طاعة سيده لا يحسن الظن به . ولا يجمع وحشة الإساءة إحسان الظن أبداً ، فإن المسىء مستوحش بقدر إساءته ، وأحسن الناس ظناً بربه أطوعهم له ، كما قال الحسن البصرى : إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل ، وإن الفاجر أساء الظن بربه فأساء العمل .

وكيف يكون محسن الظن بربه من هو شارد عنه ، حال مرتحل فى مساخطه وما يغضبه ، متعرض للعنته ، قد هان حقه وأمره عليه فأضاعه ، وهان نهيه عليه فارتكبه وأصر عليه ؟ وكيف يحسن الظن بربه من بارزه بالمحاربة ، وعادى أوليائه ، ووالى أعداءه ، وجحد صفات له ، وأساء الظن بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم وظن بجهله أن ظاهر ذلك ضلال وكفر ؟ وكيف يحسن الظن بمن يظن أنه لا يتكلم ولا يأمر ولا ينهى ولا يرضى ولا يغضب ، وقد قال الله تعالى فى حق من شك فى تعلق سمعه ببعض الجزئيات وهو السر من القول : ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [فُصِّلَتْ : ٢٣] فهو لاء لما ظنوا أن الله سبحانه لا يعلم كثيراً مما يعملون كان هذا إساءة لظنهم بربه ، فأرداهم ذلك الظن ، وهذا شأن كل من جحد صفات كماله ونعوت جلاله ، ووصفه بما لا يليق به ، فإذا ظن هذا أنه يدخله الجنة كان غروراً وخداعاً من نفسه وتسويلاً من الشيطان ، لا إحسان ظن بربه .

فتأمل هذا الموضع ، وتأمل شدة الحاجة إليه ، وكيف يجتمع في قلب العبد تيقنه بأنه ملاق الله ، وأن الله يسمع كلامه ويرى مكانه ، ويعلم سره وعلايته ، ولا يخفى عليه خافية من أمره ، وأنه موقوف بين يديه ومسئول عن كل ما عمل ، وهو مقيم على مسأخطة مضيع لأوامره ، معطل لحقوقه ، وهو مع هذا يحسن الظن به ، وهل هذا إلا من خدع النفوس وغرور الأمانى ؟ وقد قال أبو أمامة سهل بن حنيف : « دخلت أنا وعروة بن الزبير على عائشة رضى الله عنها فقالت : لو رأيتم رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض له ، وكانت عنده ستة دنانير أو سبعة دنانير ، فأمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أفرقها ، فشغلنى وجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عافاه الله ، ثم سألتى عنها فقال : ما فعلت ؟ أكنت فرقت الستة الدنانير ؟ فقلت : لا والله ، لقد كان شغلنى وجعك ، فدعا بها فوضعها في كفه ، فقال : « ما ظن نبي الله لو لقي الله وهذه عنده ؟ » . وفي لفظ « ما ظن محمد بربه لو لقي الله وهذه عنده » .

فيا لله ما ظن أصحاب الكبائر والظلمة بالله إذا لقوه ومظالم العباد عندهم . فإن كان ينفعهم قولهم : حسنا ظنوننا بك إنك لم تعذب ظالما ولا فاسقا ، فليصنع العبد ما شاء ، وليرتكب كل ما نهاه الله عنه ، وليحسن ظنه بالله ، فإن النار لا تمسه ، فسبحان الله ؟ ! ما يبلغ الغرور بالعبد ، وقد قال إبراهيم لقومه : ﴿ أَفَكَا آيَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ؟ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ؟ ﴾ [الصافات : ٨٦] أى ما ظنكم به أن يفعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره .

ون تأمل هذا الموضع حق التأمل علم أن حسن الظن بالله هو حسن العمل نفسه ، فإن العبد إنما يحمله على حسن العمل حسن ظنه بربه أنه يجازيه على أعماله ويثيبه عليها ويتقبلها منه ، فالذى حملة على حسن العمل حسن الظن ، فكلما حسن ظنه بربه حسن عمله ، وإلا فحسن الظن مع اتباع الهوى عجز ،

كما في الترمذى والمسنَد من حديث شَدَاد بن أَوْس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ » .

وبالجملة فحسن الظن إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاة ، وأما مع انعقاد أسباب الهلاك فلا يتأتى إحسان الظن .

فإن قيل : بل يتأتى ذلك ، ويكون مستند حسن الظن سعة مغفرة الله ورحمته وعفوه وجوده ، وأن رحمته سبقت غضبه ، وأنه لا تنفعه العقوبة ، ولا يضره العفو .

قيل : الأمر هكذا ، والله فوق ذلك وأجل وأكرم وأجود وأرحم ، ولكن إنما يضع ذلك في محله اللائق به ، فإنه سبحانه موصوف بالحكمة والعزة والانتقام ، وشدة البطش ، وعقوبة من يستحق العقوبة ، فلو كان معول حسن الظن على مجرد صفاته وأسمائه لاشترك في ذلك البر والفاجر ، والمؤمن والكافر ، ووليهِ وعدوه ، فما ينفع المجرم أسماؤه وصفاته وقد باء بسخطه وغضبه ، وتعرض للعتة ، ووقع في محارمه ، وانتهك حرماته ، بل حسن الظن ينفع من تاب وندم وأقلع ، وبذل السيئة بالحسنة . واستقبل بقية عمره بالخير والطاعة . ثم أحسن الظن بعدها فهذا حسن الظن . والأول غرور ، والله المستعان .

ولا تستطل هذا الفصل ، فإن الحاجة إليه شديدة لكل أحد يفرق بين حسن الظن بالله وبين الغرور به قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢١٨] فجعل هؤلاء أهل الرجاء لا البطالين والفاستقين ، وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا ، إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النحل : ١١٩] فأخبر سبحانه أنه بعد هذه الأشياء غفور رحيم لمن فعلها ، فالعالم يضع الرجاء مواضعه . والجاهل المغتر يضعه في غير مواضعه .

فصل

وكثير من الجهال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه ، فضيعوا أمره ونهيه ، ونسوا أنه شديد العقاب ، وأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين . ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذنب فهو كالمعانده .

قال معروف : رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من الخذلان والحمق .
وقال بعض العلماء : من قطع عضواً منك في الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم لا تأمن أن تكون عقوبته في الآخرة على نحو هذا .

وقيل للحسن^(١) : أراك طويل البكاء . فقال : أخاف أن يطرحني ولا يبالي .

وكان يقول : إن قوماً ألتهتهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا بغير توبة ، يقول أحدهم : لأني أحسن الظن بربي ، وكذب ، لو أحسن الظن لأحسن العمل .

وسأل رجل الحسن فقال : يا أبا سعيد ، كيف نصنع بمجالسة أقوام يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير ؟ فقال : والله لأن تصحب أقواماً يخوفونك حتى تدرك أمناً خير من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى تلحقك المخاوف .

وقد ثبت في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يُجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار ، فتندلق أفتاب بطنه^(٢) فيدور في النار كما يدور الحمار برحاه ، فيطوف به أهل النار ، فيقولون : يا فلان ، ما أصابك ! ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ! فيقول : آمركم بالمعروف ولا آتية ، وأنهاكم عن المنكر وآتية » .

وذكر الإمام أحمد من حديث أبي رافع قال : « مر رسول الله صلى الله عليه

(١) في نسخة : « وقال رجل للحسن » .

(٢) الأفتاب : الأمعاء ، واحدها قتب بكسر القاف وسكون التاء المثناة - والاندلاق : خروج الماء

ونحوه دفعة واحدة

وسلم بالبقيع ، فقال : أف لك ، فظننت أنه يريدني ، فقال : لا ، ولكن هذا قبر فلان ، بعثته ساعياً إلى آل فلان ، فغلَّ نَجْرَةً فُدِّرْعَ الآن مثلها من نار .

وفي مسنده أيضاً من حديث أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مرت ليلة أُسرى بي على قوم تُقرض شفاههم بمقاريض من نار ، فقلت : من هؤلاء ! قالوا : خطباء من أمتك من أهل الدنيا ، كانوا يأُمُّرون الناس بالبر وينسَوْنَ أنفسهم » .

وفيه أيضاً من حديثه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما عُرِّج بي ، مرت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ ! فقال : هؤلاء الذين كانوا يأْكُلون لحوم الناس ، ويقعون في أعراضهم » .

وفيه أيضاً عنه ، قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول : يا مقلب القلوب والأبصار ، ثبت قلبي على دينك . فقلنا يا رسول الله ، آمنا بك وبما جئت به ، فهل تخاف علينا ؟ قال : نعم ، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف شاء .

وفيه أيضاً عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل : « مالي لم أر ميكائيل ضاحكا قط ؟ ! قال : ما ضحك منذ خلقت النار » .

وفي صحيح مسلم عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار ، فيصبغ في النار صبغة ، ثم يقال له : يا ابن آدم ، هل رأيت خيراً قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول : لا ، والله يا رب . ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة ، فيصبغ في الجنة صبغة ، فيقال له : يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط ؟ هل مر بك شدة قط ؟ فيقول : لا ، والله يا رب ، ما مر بي بؤس قط ، ولا رأيت شدة قط » .

وفي المسند من حديث البراء بن عازب ، قال : « خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار ، فانتبهنا إلى القبر ، ولما يلحد ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير ، وفي يده عود ينكت به في الأرض ، فرفع رأسه فقال : استعينوا بالله من عذاب القبر - مرتين أو ثلاثا - ثم قال : إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء ببعض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان أهل الجنة ، وحنوط من حنوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مد البصر . ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : اخرجي أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان ، فتخرج ، تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها ، فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا عمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الطيبة ؟ فيقولون : روح فلان ابن فلان ، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا ، فيستفتحون له ، فيفتح له ، فيشيئه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها ، حتى ينتهي به إلى السماء السابعة ، فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدى في عليين ، وأعيدوه إلى الأرض ، فإني منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى . قال : فتعاد روحه إلى الأرض فيأتيه ملكان ، فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربى الله عز وجل ، فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : دينى الإسلام ، فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هو (محمد) رسول الله فيقولان له : وما علمك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله عز وجل فأمنت به وصدقت ، فينادى مناد من السماء : أن صدق عبدى ، فافرشوا له من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له باباً إلى الجنة . قال : فيأتيه من روحها وطيبها ، ويفسح له في قبره

مد بصره . قال : ويأتية رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسرك ، هذا يومك الذي كنت توعده . فيقول : من أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير ، فيقول : أنا عمك الصالح ، فيقول : رب أقم الساعة . . رب أقم الساعة ، حتى أرجع إلى أهلي ومالي . قال : وإن العبد الكافر ، إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء ، سود الوجوه ، معهم المسوح ، فيجلسون منه مد البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة : أخرجي إلى سخط من الله وغضب . قال : فتغرق في جسده فينزعها كما ينزع السفود من الصوف المبتل ، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين ، حتى يجعلوها في تلك المسوح ، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملا من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون : روح فلان ابن فلان ، بأقبح أسمائه التي يسمى بها في الدنيا ، فيستفتح فلا يفتح له . ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ [الاعراف : ٤٠] فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه في سجين ، وفي الأرض السفلى ، فتطرح روحه طرْحاً ثم قرأ ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج : ٣١] فتعاد روحه في جسده ، ويأتية ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه . . هاه ، لا أدري فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : هاه . هاه لا أدري ، فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم ؟ فيقول : هاه . هاه لا أدري ، فينادى مناد من السماء : أن كذب عبدي ، فافرشوا له من النار وافتحوا له باباً إلى النار . فيأتيه من حرها وسمومها ، ويضيق عليه قبره ، حتى تختلف فيه أضلَاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح . فيقول : أبشر بالذي يسوءك ، هذا يومك الذي

كنت توعده ، فيقول : من أنت ؟ فوجهك الوجه الذى يجيء بالشر ، فيقول : أنا عملك الخبيث . فيقول : رب لا تقم الساعة .

وفى لفظ لأحمد أيضًا « ثم يقيض له أعمى أصم أبكم ، فى يده ميرزبة ، لو ضرب بها جبلا كان ترابا ، ثم يعيده الله عز وجل كما كان ، فيضربه ضربة أخرى ، فيصبح صبيحة يسمعا كل شيء إلا الثقلين » . قال البراء « ثم يفتح له باب إلى النار ، ويمهد له من فراش النار » .

وفى المسند أيضًا عنه قال : « بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ بصر بجماعة فقال : علام اجتمع هؤلاء ؟ قيل : على قبر يحضرونه ، ففزع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبدر بين يدي أصحابه مسرعًا ، حتى انتهى إلى القبر ، فجثا على ركبتيه ، فاستقبلته بين يديه لأنظر ما يصنع ، فبكى حتى بلّ الثرى من دموعه ، ثم أقبل علينا فقال : أى إخوانى ، لمثل هذا اليوم فاعلوا » .

وفى المسند من حديث بريدة قال : « خرج إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا ، فنادى ثلاث مرات : يا أيها الناس ، أتدرون ما مثلى ومثلكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . فقال : إنما مثلى ومثلكم مثل قوم خافوا عدوًا يأتيهم ، فبعثوا رجالا يتراءى لهم ، فأبصر العدو ، فأقبل لينذرهم ، وخشى أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه ، فأهوى بثوبه : أيها الناس أتيتم ، أيها الناس أتيتم - ثلاث مرات » .

وفى صحيح مسلم من حديث جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل مسكر حرام ، وإن على الله عز وجل عهدًا لمن شرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال » ، قيل : وما طينة الخبال ؟ قال : عرق أهل النار ، أو عصارة أهل النار .

وفى المسند أيضًا من حديث أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إني أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون ، أطأت السماء ، وحق لها أن تثنى ،

ما فيها موضع أربع أصابع إلا وعليه ملك ساجد ، لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً ، وما تلذذتم بالنساء على الفرش ، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله عز وجل » . قال أبو ذر : والله لوددت أنى شجرة تعضد .

وفي المسند أيضاً من حديث حذيفة قال : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة ، فلما انتهينا إلى القبر قعد على ساقيه ، فجعل يردد بصره فيه ، ثم قال : يضغط المؤمن فيه ضغطة تزول منها حمائله ، ويملاً على الكافر ناراً » . والحمائل : عروق الأنثيين .

وفي المسند أيضاً من حديث جابر قال : « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد بن معاذ حين توفي ، فلما صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضع في قبره وسوى عليه ، سبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسبحنا طويلاً ، ثم كبر فكبرنا ، فقيل : يا رسول الله ، لِمَ سبحت ؟ ثم كبرت فقال : لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره حتى فرج الله عنه » .

وفي صحيح البخارى من حديث أنى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا وضعت الجنازة ، واحتملها الرجال على أعناقهم ، فإن كانت صالحة قالت : قدموني . . قدموني ، وإن كانت غير صالحة قالت : يا ويلها ، أين تذهبون بها ؟ يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان ، ولو سمعها الإنسان لصعق » .

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تدنو الشمس يوم القيامة على قدر ميل ، ويزاد في حرها كذا وكذا ، تغلى منها الرؤوس كما تغلى القلور ، يغرقون فيها على قدر خطاياهم ، منهم من يبلغ إلى كعبه ، ومنهم من يبلغ إلى ساقيه ، ومنهم من يبلغ إلى وسطه ، ومنهم من يلجمه العرق » .

وفيه عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم : « كيف أنعم وصاحب

القرن قد التقم القرن ! وحنى جبهته يستمع متى يؤمر فينفخ . فقال أصحابه : كيف نقول ؟ قال : « قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » .

وفى المسند أيضًا عن ابن عمر يرفعه « من تعظم في نفسه ، أو اختال في مشيته ، لقي الله تبارك وتعالى وهو عليه غضبان » .

وفى الصحيحين عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن المصورين يعذبون يوم القيامة ويقال لهم : أحيوا ما خلقتم » .

وفيها (أيضًا) عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي . إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة . وإن كان من أهل النار فمن أهل النار . فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله عز وجل يوم القيامة » .

وفيها أيضًا عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا صار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار جيء بالموت حتى يوقف بين الجنة والنار ثم ينبح . ثم ينادى مناد : يا أهل الجنة خلود فلا موت . ويا أهل النار خلود فلا موت . فيزداد أهل الجنة فرحًا إلى فرحهم ويزداد أهل النار حزنًا إلى حزنهم » .

وفى المسند عنه قال : « من اشترى ثوبًا بعشرة دراهم فيها درهم حرام لم يقبل الله له صلاة ما دام عليه » . ثم أدخل أصبعيه في أذنيه ثم قال : صُمتنا إن لم أكن سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم يقوله .

وفيه عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « من ترك الصلاة سكرًا مرة واحدة فكأنما كانت له الدنيا وما عليها فسلبها . ومن ترك الصلاة سكرًا أربع مرات كان حقاً على الله أن يسقيه طينة الخبال ، قيل : وما طينة الخبال يا رسول الله ؟ قال : عصارة أهل جهنم » .

وفيه أيضًا عنه مرفوعاً : « من شرب الخمر مرة لم تقبل له صلاة أربعين

صباحًا ، فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحًا ، فإن تاب تاب الله عليه ، فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة قال : فإن عاد كان حقًا على الله أن يسقيه من ردة الخبال يوم القيامة » .

وفي المسند أيضًا من حديث أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من مات مدمنًا للخمر سقاه الله من نهر الغوطة . قيل : وما نهر الغوطة ؟ قال : نهر يجرى من فروج المومسات يؤذى أهل النار ريح فروجهن » .

وفيه أيضًا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرصات ، فأما عرضتان فجداً ومعاذير ، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي ، فأخذ يمينه ، أو أخذ بشماله » .

وفي المسند أيضًا من حديث ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم ومحقرات الذنوب ، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه . وضرب لمن رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً : كمثل قوم نزلوا أرض فلاة ، فحضر صنيع القوم ، فجعل الرجل ينطلق فيجىء بالعود ، والرجل يجىء بالعود ، حتى جمعوا سوادًا وأحجوا ناراً ، فأنضجوا ما قلدوا فيها » .

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يضرب الجسر على جهنم ، فأكون أول من يجوز ، ودعوى الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم ، وعلى حافتيه كلاليب مثل شوك السعدان تخطف الناس بأعمالهم فمنهم الموثق بعمله ، ومنهم المخردل ثم ينجو ، حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد ، وأراد أن يخرج من النار من أراد أن يرحم من كان يشهد أن لا إله إلا الله ، أمر الملائكة أن يخرجوه ، فيعرفونهم بعلامات آثار السجود ، وحرم الله على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود ، فيخرجونهم قد امتحشوا فيضب عليهم من ماء يغتاك له ماء الحياة ، فينبغون نبات للحبة في حميل الأسيل » .

وفي صحيح مسلم عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
« إن أول الناس يقضى فيه يوم القيامة ثلاثة : رجل استشهد ، فأُتِيَ به فعرفه
نعمه فعرفها . فقال : ما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى قتلت . قال
كذبت ، ولكن قاتلت ليقال : هو جرئ ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على
وجهه حتى أُلقي في النار ، ورجل تعلَّم العلم وعلمه وقرأ القرآن ، فأُتِيَ به فعرفه
نعمه فعرفها فقال : ما عملت فيها ؟ قال : تعلمت فيك العلم وعلمته وقرأت
فيك القرآن . فقال : كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال : هو عالم ، فقد قيل ،
وقرأت القرآن ليقال : هو قارئ ، فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى
أُلقي في النار . ورجل وسَّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله ، فأُتِيَ به فعرفه نعمه
فعرفها فقال : ما عملت فيها ؟ فقال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها
إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال : هو جواد ، فقد
قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار ، وفي لفظ : فهؤلاء أول
خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة » .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : كما أن خير الناس الأنبياء ، فشر
الناس من تشبَّه بهم يوم أنه منهم وليس منهم ، فخير الناس بعدهم العلماء
والشهداء والصدِّيقون والمخلصون ، وشر الناس من تشبه بهم يوم أنه منهم
وليس منهم .

وفي صحيح البخارى من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم :
« من كانت عنده لأخيه مظلمة في مال أو عرض فليأتته ، فليستحلها منه قبل أن
يؤخذ وليس عنده دينار ولا درهم ، فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته
فأعطيتها هذا ، وإلا أخذ من سيئات هذا فطرحته عليه ثم طرح في النار » .

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم

قال : « من أخذ شبراً من الأرض بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين » .

وفي الصحيحين عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ناركم هذه التي يوقد بنو آدم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم . قالوا : والله إن كانت لكافية ، قال : فإنها قد فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها » .
وفي المسند عن معاذ قال : « أوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا تشرك بالله شيئاً ، وإن قتلت أو حرقت ، ولا تعقن والدك ، وإن أمراك أن تخرج من أهلِكَ ومالك ، ولا تترك صلاة مكتوبة متعمداً ، فإن من ترك صلاة مكتوبة متعمداً فقد برئت منه ذمة الله ، ولا تشربن خمرأ ، فإنه رأس كل فاحشة ، وإياك والمعصية ، فإن المعصية تحل سخط الله » .

والأحاديث في هذا الباب أضعاف أضعاف ما ذكرنا ، فلا ينبغي لمن نصح نفسه أن يتعاضى عنها ، ويرسل نفسه في المعاصي ، ويتعلق بحسن الرجاء وحسن الظن .

قال أبو الوفاء بن عقيل : احذر ولا تغتر به ، فإنه قطع اليد في ثلاثة دراهم ، وجلد الحد في مثل رأس الإبرة من الخمر ، وقد دخلت امرأة النار في هرة ، واشتعلت الشملة ناراً على من غلها وقد قتل شهيداً^(١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن سلمان بن ميسرة عن طارق بن شهاب يرفعه قال : « دخل رجل الجنة في ذباب ، ودخل رجل النار في ذباب . قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : مَنْ رجلان على قوم لم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئاً . فقالوا لأحدهما : قرب . قال : ليس عندي شيء . قالوا له : قرب ولو ذباباً فقرب ذباباً فخلو سبيله ، فدخل النار . وقالوا له

(١) انظر مع ذلك حديث أبي رافع في ص ٢٧ .

للآخر : قرب . فقال : ما كنت لأقرب لأحد شيئاً من دون الله عز وجل ، فضربوا عنقه فدخل الجنة . وهذه الكلمة الواحدة يتكلم بها العبد يهوى بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب .

وربما اتكل بعض المغترين على ما يرى من نعم الله عليه في الدنيا وأنه لا يغير به ، ويظن أن ذلك من محبة الله له ، وأنه يعطيه في الآخرة أفضل من ذلك . وهذا من الغرور .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن غيلان حدثنا رشدين بن سعد عن حرملة بن عمران التميمي عن عقبة بن مسلم عن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رأيت الله عز وجل يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب ، فإنما هو استدراج » ثم تلا قوله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٤] .

وقال بعض السلف : إذا رأيت الله يتابع عليك نعمته وأنت مقيم على معاصيه فاحذره ، فإنما هو استدراج منه يستدرجك به . وقد قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ . وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَخَفُونَ ، وَزُخْرُفًا . وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : ٣٣ - ٣٥] . وقد رد سبحانه على من يظن هذا الظن بقوله : ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ : رَبِّي أَكْرَمَنِ . وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ : رَبِّي أَهَانَنِ ، كَلَّا ﴾ [الفجر : ١٥ - ١٧] . أى ليس كل من نعمته ووسعت عليه رزقه أسكون قد أكرمه ، ولا كل من ابتليته وضيقت عليه رزقه أسكون قد أهنته ، بل أبتلى هذا بالنعم ، وأكرم هذا بالابتلاء .

وفي جامع الترمذى عنه صلى الله عليه وسلم : « إن الله يعطى الدنيا من يحبها ومن لا يحب ، ولا يعطى الإيمان إلا من يحب » .

وقال بعض السلف : رُبَّ مستلج بنعم الله عليه وهو لا يعلم . ورُبَّ مغرور بستر الله عليه وهو لا يعلم ، ورُبَّ مفتون بثناء الناس عليه وهو لا يعلم .

فصل

وأعظم الخلق غروراً من اغتر بالدنيا وعاجلها ، فأثرها على الآخرة ورضى بها من الآخرة ، حتى يقول بعض هؤلاء : الدنيا نقد ، والآخرة نسيئة ، والنقد أحسن من النسيئة . ويقول بعضهم : ذرة منقودة ، ولا ذرة موعودة . ويقول آخر منهم : لذات الدنيا متيقنة ، ولذات الآخرة مشكوك فيها ، ولا أدع اليقين بالشك .

وهذا من أعظم تلبيس الشيطان وتسويله . والبهائم العجم أعقل من هؤلاء ، فإن البهيمة إذا خافت مضرة شيء لم تقدم عليه ولو ضربت ، وهؤلاء يقدم أحدهم على عطبه ، وهو بين مصلق ومكذب .

فهذا الضرب إن آمن أحدهم بالله ورسوله ولقائه والجزاء فهو من أعظم الناس حسرة لأنه أقدم على علم ، وإن لم يؤمن بالله ورسوله فأبعد له .

وقول هذا القائل : النقد خير من النسيئة ، جوابه : إذا تساوى النقد والنسيئة فالنقد خير . وإن تفاوتا وكانت النسيئة أكثر وأفضل فهي خير . فكيف والدنيا كلها من أولها إلى آخرها كنفس واحد من أنفاس الآخرة ؟ كما في مسند الإمام أحمد . والترمذى من حديث المنصور بن شداد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما الدنيا في الآخرة إلا كما يدخل أحدكم إصبعه في اليم ، فلينظر به يرجع ؟ » فليشار هذا النقد على قلة النسيئة من أعظم الغبن وأقبح

الجهل . وإذا كان هذا نسبة الدنيا بمجموعها إلى الآخرة ، فما مقدار عمر الإنسان بالنسبة إلى الآخرة ؟ فأيا أولى بالعاقل ؟ إثثار العاجل في هذه المدة اليسيرة ، وحرمان الخير الدائم في الآخرة ، أم ترك شيء صغير حقير منقطع عن قرب ، ليأخذ ما لا قيمة له ولا خطر له ، ولا نهاية لعدده ، ولا غاية لأمدته .

فأما قول الآخر : لا أترك متيقناً لمشكوك فيه . فيقال له : إما أن تكون على شك من وعد الله ووعديه وصدق رسله ، أو تكون على يقين من ذلك ، فإن كنت على يقين من ذلك فما تركت إلا ذرة عاجلة منقطعة فانية عن قرب ، لأمر متيقن لا شك فيه ولا انقطاع له . وإن كنت على شك فراجع آيات الرب تعالى الدالة على وجوده وقدرته ومشيتته ووحدانيته ، وصدق رسله فيما أخبروه به عن الله ، وتجرؤ وقم لله ناظراً أو مناظراً ، حتى يتبين لك أن ما جاءت به الرسل عن الله فهو الحق الذي لا شك فيه ، وأن خالق هذا العالم ورب السموات والأرض يتعالى ويتقدس ويتنزه عن خلاف ما أخبرت به رسله عنه . ومن نسبه إلى غير ذلك فقد شتمه وكذبه ، وأنكر ربوبيته وملكه ، إذ من المحال الممتنع عند كل ذى فطرة سليمة أن يكون الملك الحق عاجزاً أو جاهلاً ، لا يعلم شيئاً ، ولا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يتكلم ، ولا يأمر ، ولا ينهى ، ولا يثيب ، ولا يعاقب ، ولا يعز من يشاء ، ولا يذل من يشاء ، ولا يرسل رسله إلى أطراف مملكته ونواحيها ولا يعتنى بأحوال رعيته بل يتركهم سدى ويخليهم هملاً . وهذا يقدر في ملك آحاد ملوك البشر ولا يليق به ، فكيف يجوز نسبة الملك الحق المبين إليه ؟ .

وإذا تأمل الإنسان حاله من مبدأ كونه نطفة إلى كماله واستوائه تبين له أن من عنى به هذه العناية ، ونقله في هذه الأحوال ، وصرفه في هذه الأطوار ، لا يليق به . أن يهمله ويتركه سدى ، لا يأمره ولا ينهيه ولا يعرفه حقوقه عليه ، ولا يثيبه ولا يعاقبه . ولو تأمل العبد حق التأمل لكان كل ما يبصره وما لا

يبصره دليلاً له على التوحيد والنبوة والمعاد ، وأن القرآن كلامه . وقد ذكرنا وجه الاستدلال بذلك في كتاب أيمان القرآن عند قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ، إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [الحاقة : ٣٨ : ٤٠] . وذكرنا طرفاً من ذلك عند قوله تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟ ﴾ [الذاريات : ٢١] وأن الإنسان دليل على وجود خالقه وتوحيده ، وصدق رسله . وإثبات صفات كماله .

فقد بان أن المضيع مغرور على التقديرين : تقدير تصديقه ويقينه ، وتقدير تكذيبه وشكه .

فإن قلت : كيف يجتمع التصديق الجازم الذى لا شك فيه بالمعاد والجنة والنار ويتخلف العمل ؟ وهل فى الطباع البشرية أن يعلم العبد أنه مطلوب غداً إلى بين يدي بعض الملوك ليعاقبه أشد عقوبة ، أو يكرمه أتم كرامة ، ويبيت ساهياً غافلاً ، لا يتذكر موقفه بين يدي الملك ، ولا يستعد له ، ولا يأخذ له أهبته . قيل : هذا لعمر الله سؤال صحيح وارد على أكثر الخلق ، فاجتماع هذين الأمرين من أعجب الأشياء ، وهذا التخلف له عدة أسباب . أحدها : ضعف العلم وثقُصان اليقين ، ومن ظن أن العلم لا يتفاوت فقوله من أفسد الأقوال وأبطلها .

وقد سأل إبراهيم الخليل ربه أن يرّيه إحياء الموتى عياناً بعد علمه بقدرة الرب على ذلك ، ليزداد طمأنينة ، ويصير المعلوم غيباً شهادة . وقد روى أحمد فى مسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ليس المخبر كالمعائن » (١) .

(١) الخبر : بفتح الباء ، اسم مفعول من الإخبار . والمعائن : اسم فاعل من المعاينة وهى رؤية الشيء بالمعين ، والمراد أنه لا يستوى من يعلم الشيء بطريق الرؤية ومن يعرفه بإخبار الناس ، وفى نسخة « ليس الخبر كالمعاينة » .

فإذا اجتمع إلى ضعف العلم عدم استحضاره أو غيبته عن القلب في كثير من أوقاته أو أكثرها لاشتغاله بما يضاده ، وانضم إلى ذلك تقاضى الطبع ، وغلبات الهوى ، واستيلاء الشهوة ، وتسويل النفس ، وغرور الشيطان . واستبطاء الوعد ، وطول الأمل ، ورقدة الغفلة ، وحب العاجلة ، ورخص التأويل ، وإلف العوائد ، فهناك لا يمسك الإيمان إلا الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا . وبهذا السبب يتفاوت الناس فى الإيمان والأعمال ، حتى ينتهى إلى أدنى مثقال ذرة فى القلب . وجماع هذه الأسباب يرجع إلى ضعف البصيرة والصبر ، ولهذا مدح الله سبحانه أهل الصبر واليقين ، وجعلهم أئمة الدين ، فقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ، وَكَانُوا بَيَّاتِينَ يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ٢٤] :

فصل

فقد تبين الفرق بين حسن الظن والغرور ، وأن حسن الظن إن حمل على العمل وحث عليه وساق إليه فهو صحيح ، وإن دعا إلى البطالة والانهماك فى المعاصى فهو غرور ، وحسن الظن هو الرجاء ، فمن كان رجاءه هادياً له إلى الطاعة وزاجراً له عن المعصية ، فهو رجاء صحيح . ومن كانت بطالته رجاء . ورجاؤه بطالة وتفريطاً ، فهو المغرور . ولو أن رجلاً كانت له أرض يؤمل أن يعود عليه من مغلها ما ينفعه ، فأهملها ولم يبذرهما . ولم يحرقها ، وحسن ظنه بأنّه يأتى من مغلها ما يأتى من حرث وبذر وسقى وتعاهد الأرض لعدّه الناس من أسفه السفهاء . وكذلك لو حسن ظنه وقوى رجاءه بأنّ يجيئه ولد من غير جماع ، أو يصير أعلم أهل زمانه من غير طلب للعلم وحرص تام عليه ، وأمثال ذلك . فكذلك من حسن ظنه وقوى رجاءه فى الفوز بالدرجات العلا والنعيم المقيم ، من غير تقرب إلى الله تعالى بامتنال أوامره ، واجتناب نواهيه ، وبالله التوفيق .

وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَلُوا فِي سَبِيلِ

اللَّهُ أَوْلَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ ﴿ [البقرة : ٢١٨] فتأمل كيف جعل رجاءهم إتيانهم بهذه الطاعات ؟ .

قال المغرورون : إن المفرطين المضيعين لحقوق الله المعطلين لأوامره ، الباغين على عباده ، المتجربين على محارمه ، أولئك يرجون رحمة الله .

وسر المسألة : أن الرجاء وحسن الظن إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمة الله في شرعه وقدره وثوابه وكرامته ، فيأتي العبد بها ثم يحسن ظنه بربه ، ويرجوه أن لا يكله إليها ، وأن يجعلها موصلة إلى ما ينفعه ، ويضرب عما يعارضها ويبطل أثرها .

فصل

وما ينبغي أن يعلم أن من رجا شيئاً استلزم رجاؤه ثلاثة أمور :
أحدها : محبة ما يرجوه .

الثاني : خوفه من فواته .

الثالث : سعيه في تحصيله بحسب الإمكان .

وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأمانى . والرجاء شيء والأمانى شيء آخر ، فكل راج خائف ، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات .

وفي جامع الترمذى من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة » . وهو سبحانه كما جعل الرجاء لأهل الأعمال الصالحة ، فكذلك جعل الخوف لأهل الأعمال الصالحة فعلم أن الرجاء والخوف النافع هو ما اقتبرن به العمل . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ .

وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يَشْرِكُونَ ، وَالَّذِينَ
يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ، أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي
الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿ [المؤمنون : ٥٧ - ٦١] .

وقد روى الترمذى فى جامعه عن عائشة رضى الله عنها قالت : « سألت رسول
الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ، فقلت : أهم الذين يشربون الخمر ويزنون
ويسرقون ؟ فقال : لا ، يا ابنة الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون
ويتصدقون ، ويخافون أن لا يتقبل منهم ، أولئك يسارعون فى الخيرات » .
وقد روى من حديث أبى هريرة أيضاً .

والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف ، ووصف الأشقياء
بالإساءة مع الأمن .

ومن تأمل أحوال الصحابة رضى الله عنهم وجدهم فى غاية العمل مع غايا
الخوف . ونحن جمعنا بين التقصير بل التفريط والأمن ، فهذا الصديق رضى
الله عنه يقول : وددت أنى شجرة فى جنب عبد مؤمن ، ذكره أحمد عنه .

وذكر عنه أنه كان يمسك بلسانه ويقول : هذا الذى أوردنى الموارد ، وكان
يبكى كثيراً ويقول : أبكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا . وكان إذا قام إلى الصلاة
كأنه عود من خشية الله عز وجل . وأتى بطائر فقلبه ثم قال : ما صيد من صيد ،
ولا قطعت من شجرة إلا بما ضيعت من التسبيح ، فلما احتضر قال لعائشة :
يا بنية . إني أصبت من مال المسلمين هذه العبادة وهذا الحلاب وهذا العبد ،
فأسرعى به إلى ابن الخطاب . وقال : والله لوددت أنى كنت هذه الشجرة .
تؤكل وتعضد .

وقال قتادة : بلغنى أن أبا بكر قال : ليتنى خضرة تأكلنى الدواب .

وهذا عمر قرأ سورة الطور حتى بلغ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ [الطور : ٧]
بكى واشتد بكاءه حتى مرض وعادوه

وقال لابنه وهو في الموت : ويحك ضع خدي على الأرض ، عساه أن يرحمني
ثم قال : بل ويل أُمي . إن لم يغفر لي ثلاثاً ، ثم قضى . وكان يمر بالآية في ورده
بالليل فتخيفه ، فيبقى في البيت أياماً يعاد ، يحسبونه مريضاً ، وكان في وجهه
رضي الله عنه خطان أسودان من البكاء ، وقال له ابن عباس : مصر الله بك
الأمصار ، وفتح بك الفتوح ، وفعل . فقال : وددت أني أنجو لا أجز ولا وزر .
وهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه كان إذا وقف على القبر يبكي حتى يبيل
لحيته . وقال : لو أنني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي ، لاخترت
أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير .

وهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبكائه وخوفه . وكان يشتد خوفه من
اثنين : طول الأمل ، واتباع الهوى ، قال : فأما طول الأمل فينسى الآخرة ،
وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق : ألا وإن الدنيا قد ولت مدبرة ، والآخرة
مقبلة ، ولكل واحد بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء
الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل .

وهذا أبو الدرداء رضي الله عنه كان يقول : إن أشد ما أخاف على نفسي
يوم القيامة أن يقال لي : يا أبا الدرداء ، قد علمت ، فكيف عملت فيما علمت ؟
وكان يقول : لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت لما أكلتم طعاماً على شهوة ،
ولا شربتم شراباً على شهوة ، ولا دخلتم بيتاً تستظلون فيه ، ولخرجتم إلى الصعيد
تضربون صدوركم ، وتبكون على أنفسكم ، ولوددت أني شجرة تعضد ثم تؤكل .

وكان عبد الله بن عباس أسفل عينيه مثل الشراك البالي من الدموع .
وكان أبو ذر يقول : يا ليتني كنت شجرة تعضد ، ووددت أني لم أخلق .

وعرضت عليه النفقة فقال : عندنا عنز نحلبها وحمير ننقل عليها ، ومحرور يخدمنا ، وفضل عبادة ، وإني أخاف الحساب فيها .

وقرأ تميم الداري ليلة سورة الجاثية ، فلما أتى على هذه الآية : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ . [الجاثية : ٢١] جعل يردددها ويبكى حتى أصبح .

وقال أبو عبيدة عامر بن الجراح : وددت أني كبش فذبحنى أهلى وأكلوا لحمى وحسوا مرقى . وهذا باب يطول تتبعه .

قال البخارى فى صحيحه : « باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر » وقال إبراهيم التيمى : ما عرضت قولى على عملى إلا خشيت أن أكون مكذبا . وقال ابن أبى مليكة : أدركت ثلاثين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه ، ما منهم أحد يقول : إنه على إيمان جبريل وميكائيل .

ويذكر عن الحسن : ما خافه إلا مؤمن ، ولا أمّنه إلا منافق . وكان عمر بن الخطاب يقول لحذيفة . أنشدك الله هل سمأت لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ يعنى فى المنافقين ! فيقول : لا . ولا أزكى بعدك أحداً . فسمعت شيخنا رضى الله عنه يقول : ليس مراده أنى لا أبرئ غيرك من النفاق ، بل المراد لا أفتح على نفسى هذا الباب فكل من سألنى هل سمأت لك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأزكيه . قلت : وقريب من هذا قول النبى صلى الله عليه وسلم للذى سأله أن يدعو له أن يكون من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب « سبقك بها عكاشة » ولم يرد أن عكاشة وحده أحق بذلك ممن عداه من الصحابة ، ولكن لو دعا له لقام آخر وآخر وانفتح الباب . وربما قام من لم يستحق أن يكون منهم ، فكان الإمساك أولى . والله أعلم .

فصل

فلنرجع إلى ما كنا فيه من ذكر دواء الداء الذى إن استمر أفسد دنيا العبد
«وأخسرتة .

فمما ينبغى أن يعلم : أن الذنوب والمعاصى تضر ، ولا بد أن ضررها فى
القلب كضرر السموم فى الأبدان ، على اختلاف درجاتها فى الضرر . وهل فى الدنيا
والآخرة شر وداء إلا سببه الذنوب والمعاصى ؟ .

فما الذى أخرج الأيوين من الجنة ، دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور ، إلى
دار الآلام والأحزان والمصائب ؟ .

وما الذى أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده ولعنه ، ومسح ظاهره وباطنه
فجعل صورته أقبح صورة وأشنعها ، وباطنه أقبح من صورته وأشنع ، وبدل
بالقرب بعداً ، وبالرحمة لعنة ، وبالجمال قبحاً ، وبالجنة ناراً تطفى ، وبالإيمان
كفراً ، وبموالاته الولى الحميد أعظم عداوة ومشاقة ، وبرجل التسبيح والتقديس
والتهليل زجل الكفر والشرك والكذب والزور والفحش . وبلباس الإيمان لباس
الكفر والفسوق والعصيان ، فهان على الله غاية الهوان . وسقط من عينه غاية
السقوط ، وحل عليه غضب الرب تعالى فأهواه ، ومقته أكبر المقت فأرداه .
فصار قواداً لكل فاسق ومجرم . رضى لنفسه بالقيادة بعد تلك العباداة والسيادة .
فعياداً بك اللهم من مخالفة أمرك وارتكاب نهيك .

وما الذى أغرق أهل الأرض كلهم حتى علا الماء فوق رؤوس الجبال ؟ !
وما الذى سطر الريح على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض كأنهم
أهجاز نخل خاوية . ودمرت ما مرت عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابهم ،
حتى صاروا عبرة للأمم إلى يوم القيامة ؟ .

وما الذى أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم فى أجوافهم وماتوا عن آخرهم ؟ .

وما الذى رفع قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم ، ثم قلبها عليهم ، فجعل عاليها سافلها ، فأهلكهم جميعاً ، ثم أتبعهم حجارة من السماء أمطرها عليهم ، فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم ، ولإخوانهم أمثالها ، وما هى من الظالمين ببعيد ؟ .

وما الذى أرسل على قوم شعيب سحب العذاب كالظلل ، فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم ناراً تلتظى ؟ .

وما الذى أغرق فرعون وقومه فى البحر ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم ، فالأجساد للغرق ، والأرواح للحرق ؟ .

وما الذى خسف بقارون وداره وماله وأهله ؟ .

وما الذى أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات ودمرها تدميراً ؟ .

وما الذى أهلك قوم صاحب يس بالصيحة حتى خملوا عن آخرهم ؟ .

وما الذى بعث على بنى إسرائيل قوماً أولى بأس شديد ، فجاسوا خلال الديار وقتلوا الرجال ، وسبوا الذرية والنساء ، وأحرقوا الديار ونهبوا الأموال ، ثم بعثهم عليهم مرة ثانية فأهلكوا ما قدروا عليه وتبرؤا ما علواً تتبيرا ؟ .

وما الذى سلط عليهم أنواع العقوبات ، مرة بالقتل والسبي وخراب البلاد ، ومرة بجور الملوك ، ومرة بمسخهم قردة وخنازير ، وآخر ذلك أقسم الرب تبارك وتعالى : ﴿ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ ، [الأعراف : ١٦٧] .

قال الإمام أحمد : حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا صفوان بن عمرو حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه قال : « لما فتحت قبرص فرق بين أهلها ، فبكى بعضهم إلى بعض ، فرأيت أبا الدرداء جالساً وحده يبكى ، فقلت :

يا أبا الدرداء ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله ؟ فقال : ويحك يا جبير ، ما أهون الخلق على الله عز وجل إذا أضاعوا أمره ، بينما هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك ، تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى .

وقال علي بن الجعد : أنبأنا شعبة عن عمرو بن مرة قال : سمعت أبا البختری يقول : أخبرني من سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم » .

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أم سلمة قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا ظهرت المعاصي في أمتي عمهم الله بعذاب من عنده . فقلت : يا رسول الله ، أما فيهم يومئذ أناس صالحون ؟ قال : بلى . قلت : فكيف يصنع بأولئك ؟ قال : يصيبهم ما أصاب الناس ، ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان » .

وفي مراسيل الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تزال هذه الأمة تحت يد الله وفي كنفه ما لم يمالئ قراؤها أمراءها وما لم يترك صلحاؤها فجارها ، وما لم يهن خيارها أشرارها ، فإذا هم فعلوا ذلك رفع الله يده عنهم ، ثم سلط عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب ، ثم ضربهم الله بالفاقة والفقر » .

وفي المسند من حديث ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » .

وفيه أيضا عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل أفق ، كما تداعى الأكلة على قصعتها . قلنا : يا رسول الله آمين قلّة منا يومئذ ؟ قال : أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، تنزع المهابة من قلوب عدوكم ، ويجعل في قلوبكم الوهن . قالوا : وما الوهن ؟ قال : حب الحياة وكرامة الموت » .

وفي المسند من حديث أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدروهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ويقعون في أعراضهم » .

وفي جامع الترمذى من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يخرج في آخر الزمان قوم يختلون الدنيا بالدين ، ويلبسون للناس مسوك الضأن^(١) من اللين ، ألسنتهم أحلى من السكر ، وقلوبهم قلوب الذئاب . يقول الله عز وجل : أبا يغترون ؟ وعلى يجترئون ؟ في حلفت ، لأبعثن على أولئك فتنة تدع الحليم فيها حيران » .

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال : قال علي : « يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه ، ولا من القرآن إلا رسمه ، مساجدهم يومئذ عامرة ، وهى خراب من الهدى ، علماؤهم شر من تحت أديم السماء ، منهم خرجت الفتنة ، وفيهم تعود » .

وذكر من حديث سماك بن حرب عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال : « إذا ظهر الزنا والربا في قرية أذن الله عز وجل بهلاكها » .

ومن مراسيل الحسن : « إذا أظهر الناس العلم وضيعوا العمل ، وتحابوا فالألسن ، وتباغضوا بالقلوب ، وتقاطعوا الأرحام ، لعنهم الله عز وجل عند ذلك ، فأصمهم وأعمى أبصارهم » .

وفي سنن ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب قال : « كنت عاشر عشرة رهط من المهاجرين عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بوجهه فقتل : يا معشر المهاجرين ، خمس خصال

(١) مسوك الضأن : جلودها ، واحدا مسك ، بكسر فسكون

أعوذ بالله أن تدركوهن : ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى أعلنوا بها إلا ابتلوا بالطواغيت والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا ، ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا ابتلوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان ، وما منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ، فلولا البهائم لم يمطروا ، ولا خضر قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم ، فأخذوا بعض ما في أيديهم ، وما لم تعمل أئمتهم بما أنزل الله عز وجل في كتابه إلا جعل الله بأسهم بينهم .

وفي المسند والسنن من حديث عمرو بن مرة عن سالم بن أبي الجعد عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من كان قبلكم كان إذا عمل العامل فيهم بالخطيئة جاءه الناهي تعذيراً ، فإذا كان الغد جالسه وواكله وشاربه ، كأنه لم يره على خطيئة بالأمس ، فلما رأى الله عز وجل ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض ، ثم لعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى بن مريم . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . والذي نفس محمد بيده ، لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد السفية ، ولتأطرنه على الحق أطراً . أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ، ثم ليلعنكم كما لعنهم » .

وذكر ابن أبي الدنيا عن إبراهيم بن عمرو الصنعاني قال : « أوحى الله إلى يوشع بن نون أتى مهلك من قومك أربعين ألفاً من خيارهم ، وستين ألفاً من شرارهم . قال : يارب ، هؤلاء الأشرار ، فما بال الأخيار ؟ قال : إنهم لم يغضبوا لغضبي ، وكانوا يواكلونهم ويشاربونهم » .

وذكر أبو عمر بن عبد البر عن أبي عمران قال : « بعث الله عز وجل ملكين إلى قرية : أن دمرها بمن فيها ، فوجدا فيها رجلاً قائماً يصلي في مسجد ، فقالا :

يارب ، إن فيها عبدك فلاناً يصلى ، فقال الله عز وجل : دمرها ودمرها معهم ، فإنه ما تمعر وجهه فى قط .

وذكر الحميدى عن سفيان بن عُيينة قال : حدثنى سفيان بن سعيد عن مسعر « أن ملكاً أمر أن يخسف بقرية ، فقال : يارب ، إن فيها فلاناً العابد ، فأوحى الله عز وجل إليه : إن به فابداً ، فإنه لم يتمعر وجهه فى ساعة قط . »

وذكر ابن أبى الدنيا عن وهب بن منبه قال : « لما أصاب داود الخطيئة قال : يارب اغفر لى ، قال : قد غفرت لك ، وألزمت عارها بنى إسرائيل ، قال : يارب ، كيف وأنت الحكم العدل لا تظلم أحداً ، أنا أعمل الخطيئة وتلزم عارها غيرى ؟ فأوحى الله إليه : إنك لما عملت الخطيئة لم يعجلوا عليك بالإنكار . »

وذكر ابن أبى الدنيا عن أنس بن مالك « أنه دخل على عائشة هو ورجل آخر ، فقال لها الرجل : يا أم المؤمنين حدثينا عن الزلزلة . فقالت : إذا استباحوا الزنا ، وشربوا الخمر ، وضربوا بالمعازف غار الله عز وجل فى سمائه ، فقال للأرض : تنزلنى بهم ، فإن تابوا ونزعوا ، وإلا هدمها عليهم . قال : يا أم المؤمنين أعذاباً لهم ؟ قالت : بل موعظة ورحمة للمؤمنين ، ونكالاً وعذاباً وسخطاً على الكافرين . فقال أنس : ما سمعت حديثاً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أشد فرحاً [به] منى بهذا الحديث . »

وذكر ابن أبى الدنيا حديثاً مرسل « أن الأرض تزلزلت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليها ، ثم قال : أسكنى ، فإنه لم يأن لك بعد . ثم التفت إلى أصحابه ، فقال : إن ربكم ليستعيبكم فاعتبوه ، ثم تزلزلت بالناس على عهد عمر بن الخطاب ، فقال : أيها الناس ما كانت هذه الزلزلة إلا على شيء أحدثتموه ، والذي نفسى بيده لئن عادت لا أساكنكم فيها أبداً . »

وفى مناقب عمر لابن أبى الدنيا « أن الأرض تزلزلت على عهد عمر ، فضرب

يده عليها وقال : مالك ؟ ومالك ؟ أما إنها لو كانت القيامة حدثت أخبرها . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا كان يوم القيامة فليس فيها ذراع ولا شبر إلا وهو ينطق » .

وذكر الإمام أحمد عن صفية قالت : « زلزلت المدينة على عهد عمر ، فقال : يا أيها الناس ما هذا ؟ ما أسرع ما أحدثتم . لئن عادت لا أساكنكم فيها » . وقال كعب : « إنما تنزلزل الأرض إذا عمل فيها بالمعاصي فترعد قرقا من الرب جل جلاله أن يطلع عليها » .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الأمصار « أما بعد ، فإن هذا الرجف شيء يعاتب الله عز وجل به العباد ، وقد كتبت إلى الأمصار أن يخرجوا في يوم كذا وكذا في شهر كذا وكذا ، فمن كان عنده شيء فليصدق به ، فإن الله عز وجل يقول : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ ، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ [الأعلى : ١٤ ، ١٥] وقولوا كما قال آدم : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ، وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٣] وقولوا كما قال نوح : ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [هود : ٤٧] وقولوا كما قال يونس : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر حدثنا أبو بكر عن الأعمش عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا ضنَّ الناس بالدينار والدرهم وتبايعوا بالعين^(١) ، وتبعوا أذناب البقر ، وتركوا الجهاد في سبيل الله ، أنزل الله بهم بلاء لا يرفعه حتى يراجعوا دينهم » . رواه أبو داود بإسناد حسن .

(١) العينة ، بكسر العين وفتح النون : النسيئة . وفسرها الفقهاء : بأن يبيع الرجل متاعه إلى أجل شيء يشتره في المجلس بثمن حال ليسلم به من الربا وهي أخت الربا .

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث ابن عمر قال : لقد رأيتنا وما أحد أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم . ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِذَا ضَنَّ النَّاسُ بِالْدينَارِ وَالْدرْهَمِ ، وَتَبَايعُوا بِالْعَيْنَةِ ، وَتَرَكُوا الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَأَخَذُوا أَذْنَابَ الْبَقَرِ ، أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ بَلَاءً ، فَلَا يَرْفَعُهُ عَنْهُمْ حَتَّى يَرَا جَعُوا دِينَهُمْ » .

وقال الحسن : « إِنْ الْفِتْنَةُ وَاللَّهُ مَا هِيَ إِلَّا عَقُوبَةٌ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى النَّاسِ » ونظر بعض أنبياء بني إسرائيل إلى ما يصنع بهم بُخْتَنْصَرُ فَقَالَ : « بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِينَا سُلْطَتَ عَلَيْنَا مِنْ لَا يَعْرِفُكَ وَلَا يَرْحَمُنَا » .

وقال بختنصر لدانيال : ما الذى سلطنى على قومك ؟ قال « عظم خطيئتك ، وظلم قوى أنفسهم » .

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث عمار بن ياسر وحليفة عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَرَادَ بِالْعِبَادِ نَقْمَةً أَمَاتَ الْأَطْفَالَ وَأَعْقَمَ أَرْحَامَ النِّسَاءِ ، فَتَنْزِلُ النِّقْمَةُ ، وَلَيْسَ فِيهِمْ مَرْحُومٌ » .

وذكر عن مالك بن دينار قال : قرأت فى الحكمة : يقول الله عز وجل : « أَنَا اللَّهُ مَالِكُ الْمُلُوكِ . قُلُوبُ الْمُلُوكِ بِيَدِي ، فَمَنْ أَطَاعَنِي جَعَلْتُهُمْ عَلَيْهِ رَحْمَةً ، وَمَنْ عَصَانِي جَعَلْتُهُمْ عَلَيْهِ نَقْمَةً ، فَلَا تَشْغَلُوا أَنْفُسَكُمْ بِسَبَبِ الْمُلُوكِ ، وَلَكِنْ تَوَبَّوْا إِلَيَّ أَعْطِفْهُمْ عَلَيْكُمْ » .

ومن مراسيل الحسن « إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ خَيْرًا جَعَلَ أَمْرَهُمْ إِلَى حُلُمَائِهِمْ ، وَفِيهِمْ عِنْدَ سُمَحَائِهِمْ ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ شَرًّا جَعَلَ أَمْرَهُمْ إِلَى سَفَهَائِهِمْ ، وَفِيهِمْ عِنْدَ بَخْلَائِهِمْ » .

وذكر الإمام أحمد وغيره عن قتادة قال : قال موسى « يَا رَبِّ ، أَنْتَ فِي السَّمَاءِ ، وَنَحْنُ فِي الْأَرْضِ ، فَمَا عَلَامَةُ غَضَبِكَ مِنْ رِضَاكَ ؟ » قَالَ : إِذَا اسْتَعْمَلْتَ

عليكم خياركم فهو علامة رضائي عنكم ، وإذا استعملت عليكم شراركم فهو علامة سخطي عليكم » .

وذكر ابن أبي الدنيا عن الفضيل بن عياض قال « أوحى الله إلى بعض الأنبياء : إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني » .

وذكر أيضاً من حديث ابن عمر يرفعه « والذي نفسى بيده ، لا تقوم الساعة حتى يبعث الله أمراء كذبة ، ووزراء فجرة ، وأعواناً خونة ، وعرفاء ظلمة ، وقراء فسقة ، سياهم سياء الرهبان ، وقلوبهم أنتن من الجيف ، أهواؤهم مختلفة ، فيفتح الله لهم فتنة غبراء مظلمة فيتهاوكون فيها ، والذي نفس محمد بيده لينقضن الإسلام عروة عروة ، حتى لا يقال الله الله . لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيسومونكم سوء العذاب ، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم . لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليبعثن الله عليكم من لا يرحم صغيركم ، ولا يوقر كبيركم » .

وفي معجم الطبراني وغيره من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما طفف قوم كيلاً ، ولا بخسوا ميزاناً ، إلا منعهم الله عز وجل القطر ، وما ظهر في قوم الزنا إلا ظهر فيهم الموت ، وما ظهر في قوم الربا إلا سلط الله عليهم الجنون ، ولا ظهر في قوم القتل - يقتل بعضهم بعضاً - إلا سلط الله عليهم عدوهم ، ولا ظهر في قوم عمل قوم لوط إلا ظهر فيهم الخسف ، وما ترك قوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا لم ترفع أعمالهم ولم يسمع دعاؤهم » ورواه ابن أبي الدنيا من حديث إبراهيم بن الأشعث عن عبد الرحمن بن زيد عن أبيه عن سعيد به .

وفي المسند وغيره من حديث عروة عن عائشة قالت : « دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد حفزه النفس ، فعرفت في وجهه أن قد حفزه شيء ، فما

تكلم حتى توضأ ، وخرج ، فلصقت بالحجرة . فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا أيها الناس ، إن الله عز وجل يقول لكم : مروا بالمعروف وانهاؤا عن المنكر قبل أن تدعوني فلا أجيبكم ، وتستنصروني فلا انصركم ، وتسالوني فلا أعطيكم » .

وقال العمري الزاهد : إن من غفلتك عن نفسك ، وإعراضك عن الله أن ترى ما يسخط الله فتجاوزه ، ولا تأمر فيه ، ولا تنهى عنه ، خوفاً ممن لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً .

وقال : من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مخافة من المخلوقين نزعت منه الطاعة ، ولو أمر ولده أو بعض مواليه لاستخفَّ بحقه .

وذكر الإمام أحمد في مسنده من حديث قيس بن أبي حازم قال : قال أبو بكر الصديق « يا أيها الناس ، إنكم تتلون هذه الآية ، وإنكم تضعونها على غير موضعها ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَصُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة : ١٠٥] وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه - وفي لفظ : إذا رأوا المنكر فلم يغيروه - أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده » .

وذكر الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا خفيت الخطيئة لم تضر إلا صاحبها ، وإذا ظهرت فلم تغير ضررت العامة » .

وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب « توشك القرى أن تخرب وهي عامرة ؟ قيل : وكيف تخرب وهي عامرة ؟ قال : إذا علا فجأزها أبرارها ، وساد القبيلة منافقوها » .

وذكر الأوزاعي عن حسان بن عطية عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« سيظهر شرار أمتي على خيارها ، حتى يستخفى المؤمن فيهم ، كما يستخفى المنافق فينا اليوم » .

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث ابن عباس يرفعه قال « يأتي زمان يذوب فيه قلب المؤمن كما يذوب الملح في الماء . قيل : مم ذاك يا رسول الله ؟ قال : مما يرى من المنكر لا يستطيع تغييره » .

وذكر الإمام أحمد من حديث جرير أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي ، هم أعز وأكثر ممن يعمله ، لم يغيروه إلا عمهم الله بعقاب » .

وفي صحيح البخاري عن أسامة بن زيد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يُجاء بالرجل يوم القيامة ، فيلقى في النار ، فتندلق أفتابه في النار ، فيلور كما يلور الحمار برحاه فيجتمع عليه أهل النار ، فيقولون : أي فلان ، ما شأنك ؟ ألسنت كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ قال : بلى ، إني كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه » .

وذكر الإمام أحمد عن مالك بن دينار قال : « كان حبر من أجبار بني إسرائيل يغشى منزله الرجال والنساء ، فيعظمهم ويذكرهم بأيام الله ، فرأى بعض بنيهِ يوماً يغمز النساء ، فقال : مهلا يا بني [مهلا يا بني] . فسقط من سريره ، فانقطع نخاعه ، وأسقطت امرأته ، وقتل بنوه ، فأوحى الله إلى نبيهم : أن أخبر فلاناً الحبر : أي لا أخرج من صلبك صديقاً أبداً ، ما كان غضبك لي إلا أن قلت : مهلا يا بني » .

وذكر الإمام أحمد من حديث عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم ومحقرات الذنوب ، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لمن مثلاً كمثل قوم نزلوا أرض فلاة ،

فحضر صنيع القوم ، فجعل الرجل ينطلق فيجىء بالعود ، والرجل يجىء بالعود ، حتى جمعوا سواداً وأججوا ناراً ، وأنضجوا ما قذفوا فيها .

وفي صحيح البخارى عن أنس بن مالك قال « إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر ، وإن كنا لنعدّها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات . »

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « عذبت امرأة في هرة ، سجنّتها حتى ماتت ، فدخلت النار ، لا هي أطعمتها ولا سقتها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض . »

وفي الحلية لأبي نعيم عن حذيفة أنه قيل له : في يوم واحد تركت بنو إسرائيل دينهم ؟ قال : لا ، ولكنهم كانوا إذا أمروا بشيء تركوه ، وإذا نهوا عن شيء ركبوه ، حتى انسلخوا من دينهم كما ينسلخ الرجل من قميصه .

ومن ههنا قال بعض السلف : المعاصي بريد الكفر ، كما أن القبلة بريد الجماع ، والغناء بريد الزنا ، والنظر بريد العشق ، والمرض بريد الموت .

وفي الحلية أيضاً عن ابن عباس أنه قال : « يا صاحب الذنب لا تأمن سوء عاقبته ، ولما يتبع الذنب أعظم من الذنب إذا عملته : قلة حيائك من على اليمين وعلى الشمال - وأنت على الذنب - أعظم من الذنب ، وضحكك وأنت لا تدري ما الله صانع بك أعظم من الذنب ، وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من الذنب ، وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب ، وخوفك من الريح إذا حرّكت ستر بابك وأنت على الذنب ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب ، ويحك هل تدري ما كان ذنب أيوب فابتلاه الله بالبلاء في جسده وذهاب ماله ؟ استغاث به مسكين على ظالم يدرؤه عنه ، فلم يعنه ، ولم ينه الظالم عن ظلمه ، فابتلاه الله . »

قال الإمام أحمد : حدثنا الوليد قال : سمعت الأوزاعي يقول : سمعت بلال ابن سعد يقول « لا تنظر إلى صغر الخطيئة ، ولكن انظر إلى من عصيت » .

وقال الفضيل بن عياض : بقدر ما يصغر الذنب عندك يعظم عند الله ، وبقدر ما يعظم عندك يصغر عند الله .

وقيل : أوحى الله إلى موسى ، يا موسى ! إن أول من مات من خلق إبليس ، وذلك أنه عصاني ، وإنما أعد من عصاني من الأموات .

وفي المسند وجامع الترمذي من حديث أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمن إذا أذنب [ذنباً] نُكِت في قلبه نكتة سوداء ، فإذا تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن زاد زادت ، حتى تملأ قلبه . فذلك الران الذي ذكره الله عز وجل ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين : ١٤] ، قال الترمذي : هذا حديث صحيح .

وقال حذيفة : « إذا أذنب العبد [ذنباً] نُكِت في قلبه نكتة سوداء حتى يصير قلبه كالشاة الربداء » (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يعقوب حدثنا أبي عن صالح عن ابن شهاب حدثني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أما بعد يا معشر قريش ، فإنكم أهل لهذا الأمر ما لم تعصوا الله ، فإذا عصيتموه بعث عليكم من يلحاكم كما يلحى هذا القضيب بقضيب في يده ، ثم لحى قضيبه فإذا هو أبيض يَصْلُد » .

وذكر الإمام أحمد عن وهب قال : إن الرب عز وجل قال في بعض ما يقول لبني إسرائيل « إني إذا أطعت رضييت ، وإذا رضييت باركت ، وليس لبركتي

(١) في نسخة « الرمداء » .

نهاية ، وإذا عصيت غضبت ، وإذا غضبت لعنت ، ولعنتى تبلغ السابع من الولد »
وذكر أيضًا عن وكيع حدثنا زكريا عن عامر قال : كتبت عائشة إلى معاوية
« أما بعد فإن العبد إذا عمل بمعصية الله عاد حامده من الناس ذامًا » .

وذكر أبو نعيم عن سالم بن أبي الجعد عن أبي الدرداء قال « ليحذر أمرؤ أن
تلعنه قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر ، ثم قال : تدرى مم هذا ؟ قلت : لا ،
قال : إن العبد يخلو بمعاصي الله ، فيلقى الله بغضه في قلوب المؤمنين من حيث
لا يشعر » .

وذكر عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه عن محمد بن سيرين :
أنه لما ركب الدّين اغتم لذلك ، فقال : إني لأعرف هذا الغم بذنوب أصبته منذ
أربعين سنة .

وهاهنا نكتة دقيقة يغلط فيها الناس في أمر الذنب ، وهي أنهم لا يرون
تأثيره في الحال ، وقد يتأخر تأثيره فينسى ، ويظن العبد أنه لا يغير بعد
ذلك ، وأن الأمر كما قال القائل :

إذا لم يغير حائط في وقوعه فليس له بعد الوقوع غبار
وسبحان الله ! ماذا أهلكت هذه النكتة من الخلق ؟ وكم أزال من نعمة ؟
وكم جلبت من نقمة ؟ وما أكثر المغترين بها من العلماء والفضلاء ، فضلا عن
الجهال ! ولم يعلم المغتر أن الذنب ينقض ولو بعد حين كما ينقض السم وكما
ينقض الجرح المنديل على الغش والدغل .

وقد ذكر الإمام أحمد عن أبي الدرداء « أعبدوا الله كأنكم ترونه ، وعلوا
أنفسكم في الموتى ، وأعلموا أن قليلا يغتنيكم خير من كثير يلهيكم ، وأعلموا أن البر
لا يبلى ، وأن الإثم لا يُنسى » .

ونظر بعض العباد إلى صبي فتأمل محاسنه ، فأتى في منامه وقيل له : لتجدن غيبها (١) بعد أربعين سنة .

وهذا مع أن للذنوب نقداً معجلاً لا يتأخر عنه ، قال سليمان التيمي : إن الرجل ليصيب الذنب في السر فيصبح وعليه مذلته .

وقال يحيى بن معاذ الرازي : عجبت من ذى عقل يقول في دعائه : اللهم لا تشمت بي الأعداء ، ثم هو يشمت بنفسه كل عدو له ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : يعصى الله ويشمت به في القيامة كل عدو .

وقال ذو النون : من خان الله في السر هتك الله ستره في العلانية .

فصل

وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة ، المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة مالا يعلمه إلا الله .

فمنها : حرمان العلم ، فإن العلم نور يقذفه الله في القلب ، والمعصية تطوئ ذلك النور .

ولما جلس الإمام الشافعي بين يدي مالك وقرأ عليه أعجبه ما رأى من وفور فطنته . وتوقد ذكائه ، وكمال فهمه ، فقال : إني أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً ، فلا تطفئه بظلمة المعصية .
وقال الشافعي رحمه الله :

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي

وقال : اعلم بأن العلم فضل وفضل الله لا يؤتاه عاصي

ومنها : حرمان الرزق . وفي المسند « إن العبد ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه »

(١) غيبها : بكسر الفين وتشديد الباء : عاقبتها .

وقد تقدم . وكما أن تقوى الله مجلبة للرزق ، فترك التقوى مجلبة للفقر ، فما استلجب رزق بمثل ترك المعاصي .

ومنها : وحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله لا توازنها ولا تقارنها لذة أصلاً . ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها لم تف بتلك الوحشة . وهذا أمر لا يحس به إلا من في قلبه حياة ، وما لجرح بميت إيلام ، فلو لم تترك الذنوب إلا حذراً من وقوع تلك الوحشة ، لكان العاقل حرياً بتركها .

وشكا رجل إلى بعض العارفين وحشة يجدها في نفسه ، فقال له :
إذا كنت قد أوحشتك الذنوب فدعها إذا شئت واستأنس
وليس على القلب أمرٌ من وحشة الذنب على الذنب ، فالله المستعان .

ومنها : الوحشة التي تحصل بينه وبين الناس ، ولا سيما أهل الخير منهم ، فإنه يجد وحشة بينه وبينهم ، وكلما قويت تلك الوحشة بُعد منهم ومن مجالستهم ، وحرُم بركة الانتفاع بهم ، وقرب من حزب الشيطان ، بقدر ما بعد من حزب الرحمن ، وتقوى هذه الوحشة حتى تستحكم ، فتقع بينه وبين أمراته وولده وأقاربه ، وبينه وبين نفسه ، فتراه مستوحشاً من نفسه .

وقال بعض السلف : إني لأعصى الله فأرى ذلك في خلق دابتي وأمرأتي .

ومنها : تعسير أموره عليه ، فلا يتوجه لأمر إلا يجده مغلقاً دونه أو متعسراً عليه ، وهذا كما أن من اتقى الله جعل له من أمره يسراً ، فمن عطل التقوى جعل له من أمره عسراً ، وبالله العجب ! كيف يجد العبد أبواب الخير والمصالح مسدودة عنه وطرقها معسرة عليه وهو لا يعلم من أين أتى ؟ .

ومنها : ظلمة يجدها في قلبه حقيقة يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم ادلهم ، فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره ، فإن الطاعة نور ، والمعصية ظلمة ، وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته ، حتى يقع في البدع

والضلالات والأمور المهلكة وهو لا يشعر ، كأعمى خرج في ظلمة الليل يمشى وحده . وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر في العين ، ثم تقوى حتى تملأ الوجه وتصير سواداً فيه يراه كل أحد .

قال عبد الله بن عباس : « إن للحسنة ضياء في الوجه ، ونوراً في القلب ، وسعة في الرزق ، وقوة في البدن ، ومحبة في قلوب الخلق ، وإن للسيئة سواداً في الوجه ، وظلمة في القلب ، وهناً في البدن ، ونقصاً في الرزق ، وبغضة في قلوب الخلق » .

ومنها : أن المعاصي توهم القلب والبدن ، أما وهنها للقلب فأمر ظاهر ، بل لا تزال توهمه حتى تنزل حياته بالكلية .

وأما وهنها للبدن فإن المؤمن قوته في قلبه ، وكلما قوى قلبه قوى بدنه . وأما الفاجر فإنه - وإن كان قوى البدن - فهو أضعف شيء عند الحاجة ، فتخونه قوته أحوج ما يكون إلى نفسه . وتأمل قوة أبدان فارس والروم كيف خانتهم أحوج ما كانوا إليها ، وقهرهم أهل الإيمان بقوة أبدانهم وقلوبهم ؟ .

ومنها : حرمان الطاعة ، فلو لم يكن للذنوب عقوبة إلا أن يصد عن طاعة تكون بدله وتقطع طريق طاعة أخرى ، فينقطع عليه بالذنوب طريق ثلاثة ، ثم رابعة وهلم جرا ، فينقطع عليه بالذنوب طاعات كثيرة ، كل واحدة منها خير له من الدنيا وما عليها ، وهذا كرجل أكل أكلة أوجبت له مرضة طويلة منعه من عدة أكالات أطيب منها ، والله المستعان .

ومنها : أن المعاصي تقصر العمر وتمحق بركته ولا بد ، فإن البر كما يزيد في العمر فالفجور يقصر العمر .

وقد اختلف الناس في هذا الموضع .

فقال طائفة : نقصان عمر العاصي هو ذهاب بركة عمره ومحققا عليه .

وهذا حق ، وهو بعض تأثير المعاصي .

وقالت طائفة : بل تنقصه حقيقة ، كما تنقص الرزق ، فجعل الله سبحانه البركة في الرزق أسباباً كثيرة تكثره وتزيده ، وللبركة في العمر أسباب تكثره وتزيده .

قالوا : ولا يمتنع زيادة العمر بأسباب كما ينقص بأسباب ، فالأرزاق والآجال ، والسعادة والشقاوة ، والصحة والمرض ، والغنى والفقر ، وإن كانت بقضاء الرب عز وجل ، فهو يقضى ما يشاء بأسباب جعلها موجبة لمسبباتها مقتضية لها .

وقالت طائفة أخرى : تأثير المعاصي في محق العمر إنما هو بأن حقيقة الحياة هي حياة القلب . ولهذا جعل الله سبحانه الكافر ميتاً غير حي ، كما قال تعالى : ﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾ فالحياة في الحقيقة حياة القلب ، وعمر الإنسان مدة حياته فليس عمره إلا أوقات حياته بالله ، فتلك ساعات عمره ، فالبر والتقوى والطاعة تزيد في هذه الأوقات التي هي حقيقة عمره ، ولا عمر له سواها .

وبالجملة فالعبد إذا أعرض عن الله واشتغل بالمعاصي ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية التي يجد غيباً لإضاعته يوم يقول ﴿ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ ، [النازعات : ٢٤] . فلا يخلو إما أن يكون له مع ذلك تطلع إلى مصالحه الدنيوية والأخروية أو لا ، فإن لم يكن له تطلع إلى ذلك فقد ضاع عليه عمره كله ، وذهبت حياته باطلاً ، وإن كان له تطلع إلى ذلك طالت عليه الطريق بسبب العوائق ، وتعمّرت عليه أسباب الخير بحسب اشتغاله بأضدادها ، وذلك نقصان حقيقى من عمره .

وسر المسألة أن عمر الإنسان مدة حياته ، ولا حياة له إلا بإقباله على ربه ، والتنعم بحبه وذكره ، وإيثار مرضاته .

فصل

ومنها : أن المعاصي تزرع أمثالها ، ويولد بعضها بعضاً ، حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها ، كما قال بعض السلف : إن من عقوبة السيئة السيئة بعدها ، وإن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، فالعبد إذا عمل حسنة قالت أخرى إلى جنبها : اعملني أيضاً ، فإذا عملها قالت الثالثة كذلك ، وهلم جرا ، فتضاعف الربح ، وتزايدت الحسنات ، وكذلك جانب السيئات أيضاً ، حتى تصير الطاعات والمعاصي هيئات راسخة وصفات لازمة ، وملكات ثابتة ، فلو عطل المحسن الطاعة لضاعت عليه نفسه ، وضاعت عليه الأرض بما رحبت ، وأحس من نفسه بأنه كالعنوت إذ فارق الماء حتى يعاودها ، فتسكن نفسه وتقر عينه ، ولو عطل المجرم المعصية وأقبل على الطاعة لضاعت عليه نفسه ، وضاق صدره ، وأعييت عليه مذاهبه ، حتى يعاودها ، حتى إن كثيراً من الفساق ليوافق المعصية من غير لذة يجدها ، ولا داعية إليها ، إلا لما يجد من الألم بمفارقتها ، كما صرح بذلك شيخ القوم الحسن بن هاني حيث يقول :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

وقال آخر :

فكانت دوائى ، وهى دائى بعينه . كما يتداوى شارب الخمر بالخمر
ولا يزال العبد يعانى الطاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله سبحانه وتعالى برحمنه عليه الملائكة تؤذيه إليها أذاً ، وتحرضه عليها ، وتزعجه عن فراشه ومجلسه إليها ، ولا يزال يألف المعاصي ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله عليه الشياطين فتؤذيه إليها أذاً ، فالأول قوى جند الطاعة بالمدد ، فصاروا من أكبر أعوانه . وهذا قوى جند المعصية بالمدد فكانوا أعواناً عليه .

فصل

ومنها - وهو من أخوفها على العبد - أنها تضعف القلب عن إرادته ، فتقوى إرادة المعصية ، وتضعف إرادة التوبة شيئاً فشيئاً ، إلى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية فلو مات نصفه لما تاب إلى الله ، فيأثى من الاستغفار وتوبة الكذابين باللسان بشيء كثير ، وقلبه معقود بالمعصية ، مصيرٌ عليها ، عازم على مواقعتها متى أمكنه . وهذا من أعظم الأمراض وأقربها إلى الهلاك .

فصل

ومنها : أنه ينسلخ من القلب استقباحها ، فتصير له عادة ، فلا يستقبح من نفسه رؤية النفس له ، ولا كلامهم فيه ، وهذا عند أرباب الفسوق هو غاية التهلكة وتام اللذة ، حتى يفتخر أحدهم بالمعصية ، ويحدث بها من لم يعلم أنه عملها ، فيقول : يا فلان عملت كذا وكذا ، وهذا الضرب من الناس لا يعافون ، ويسد عليهم طريق التوبة ، وتغلق عنهم أبوابها في الغالب . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « كُلُّ أُمَّتٍ مَعَاذُ إِلَّا الْمَجَاهِرُونَ ، وَإِنَّ مِنَ الْإِجْهَارِ : أَنْ يَسْتُرَ اللَّهُ الْعَبْدُ ثُمَّ يَصْبِيحُ يَفْضُحُ نَفْسَهُ وَيَقُولُ : يَا فُلَانُ عَمِلْتُ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا وَكَذَا ، فَهَتَكَ نَفْسَهُ ، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ » .

ومنها : أن كل معصية من المعاصي فهي ميراث عن أمة من الأمم التي أهلكها الله عز وجل ، فاللوطية ميراث عن قوم لوط ، وأخذ الحق بالزائد ودفعه بالناقص ميراث عن قوم شعيب ، والعلو في الأرض بالفساد ميراث عن قوم فرعون ، والتكبر والتجبر ميراث عن قوم هود ، فالعاصي لابس ثياب بنى هذه الأمم ، وهم أعداء الله .

وقد روى عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه عن مالك بن دينار قال :

أوحى الله إلى نبيّ من أنبياء بني إسرائيل أن قل لقومك : لا يدخلوا مداخل أعدائي ، ولا يلبسوا ملابس أعدائي ، ولا يركبوا مراكب أعدائي ولا يطعموا مطاعم أعدائي ، فيكونوا أعدائي كما هم أعدائي .

وفي مسند أحمد من حديث عبد الله بن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : قال : « بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ ، حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَجَعَلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي ، وَجَعَلَ الذِّلَّةَ وَالصَّغَارَ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي ، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ » .

فصل

ومنها : أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه وسقوطه من غيئه . قال الحسن البصري : هانوا عليه فعصوه ، ولو عزّوا عليه لعصمهم . وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ﴾ [الحج : ١٨] وإن عظمهم الناس في الظاهر لحاجتهم إليهم ، أو خوفا من شرها ، فهم في قلوبهم أحقر شيء وأهونه .

ومنها : أن العبد لا يزال يرتكب الذنب حتى يهون عليه ويصغر في قلبه . وذلك علامة الهلاك ، فإن الذنب كلما صغر في عين العبد عظم عند الله .

وقد ذكر البخاري في صحيحه عن ابن مسعود قال « إن المؤمن يرى ذنوبه كأنها في أصل جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه ، فقال به هكذا ، فطار » .

فصل

ومنها : أن غيره من الناس والدواب يعود عليه شؤم ذنبه ، فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم .

قال أبو هريرة : إن الجبارى لتموت فى وكرها من ظلم الظالم .
 وقال مجاهد : إن البهائم تلعن عصاة بنى آدم إذا اشتدت السنة ، وأمسك
 المطر ، وتقول : هذا بشؤم معصية ابن آدم .
 وقال عكرمة : دواب الأرض وهوامها حتى الخنافس والعقارب يقولون^(١) :
 منعنا القطر بذنوب بنى آدم .
 فلا يكفيه عقاب ذنبه ، حتى يلغنه من لا ذنب له .

فصل

ومنها أن المعصية تورث الذل ولا بد ، فإن العز كل العز فى طاعة الله تعالى ،
 قال تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر : ١٠] أى فليطلبها
 بطاعة الله ، فإنه لا يجدها إلا فى طاعة الله .
 وكان من دعاء بعض السلف : اللَّهُمَّ أَعِزَّنِي بِطَاعَتِكَ ، وَلَا تَذِلَّنِي بِمَعْصِيَتِكَ .
 وقال الحسن البصرى : إنهم وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين
 إلّا أن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم ، أبى الله إلّا أن يُذِلَّ من عصاه .
 وقال عبد الله بن المبارك :

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ الْقُلُوبَ وَقَدْ يُورِثُ الذُّلَّ إِذْمَانُهَا
 وَتَرَكَ الذُّنُوبَ حَيَاةَ الْقُلُوبِ وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا
 وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الْمُلُوكُ وَأَحْبَارُ سُوءِ وَرْهَبَانِهَا ؟

ومنها : أن المعاصى تفسد العقل ، فإن للعقل نوراً ، والمعصية تطفى نور العقل
 ولا بد ، وإذا طفى نوره ضعف ونقص .

(١) عبر عنها بفسير العقلاء فى قوله « يقولون » لنسبة القول إليها . والقطر - بفتح فسكون : المطر .

فصل

وقال بعض السلف : ما عصى الله أحدٌ حتى يغيب عقله ، وهذا ظاهر ، فإنه لو حضره عقله لحجزه عن المعصية وهو في قبضة الرب تعالى ، أو تحت قهره ، وهو مُطَّلَع عليه ، وفي داره وعلى بساطه وملائكته شهود عليه ناظرون إليه ! وواعظ القرآن ينهاه ، وواعظ الإيمان ينهاه ، وواعظ الموت ينهاه ، وواعظ النار ينهاه ، والذي يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف ما يحصل له من السرور واللذة بها ، فهل يقدم على الاستهانة بذلك كله والاستخفاف به ذو عقل سليم ؟ .

فصل

ومنها : أن الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها ، فكان من الغافلين . كما قال بعض السلف في قوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين : ١٤] قال : هو الذنب بعد الذنب . وقال الحسن : هو الذنب على الذنب ، حتى يعمي القلب . وقال غيره : لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم . وأصل هذا أن القلب يصدأ من المعصية ، فإذا زادت غلب الصدأ حتى يصير راناً . ثم يغلب حتى يعصير طبعاً وقفلاً وختماً . فيصير القلب في غشاوة وغلاف ، فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله ، فحينئذ يتولاه علوه ويسوقه حيث أراد .

فصل

ومنها : أن الذنوب تدخل العبد تحت لعنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه لعن على معاصي والتي غيرها أكبر منها فهي أولى بدخول فاعلها تحت اللعنة

فلعن الواشمة والمستوشمة ، والواصلة والموصولة والنامصة والمنمصة ، والواشرة والمستوشرة ، ولعن آكل الربا ومؤكله ، وكاتبه وشاهده ، ولعن المحلل والمحلل له ولعن السارق ، ولعن شارب الخمر وساقياها ، وعاصرها ومعتصرها ، وبائعها ومشتريها ، وآكل ثمنها وحاملها والمحمول له إليه . ولعن من غيّر منار الأرض وهى أعلامها وحدودها ، ولعن من لعن والديه ، ولعن من اتخذ شيئا فيه الروح غرضاً يرميه بسهم ، ولعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء ، ولعن من ذبح لغير الله ، ولعن من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً ، ولعن المصورين ، ولعن من عمِلَ عمَلَ قوم لوط . ولعن من سب أباه وأمه ، ولعن من كره أعمى^(١) عن الطريق ، ولعن من أتى بهيمة ، ولعن من وسم دابة في وجهها ، ولعن من ضار مسلماً أو مكر به ، ولعن زوّارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج ، ولعن من أفسد امرأة على زوجها أو مملوكاً على سيده ، ولعن من أتى امرأة في دبرها ، وأخبر أن من باتت مهاجرة لفراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح ، ولعن من انتسب إلى غير أبيه ، وأخبر أن من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه ، ولعن من سب الصحابة .

وقد لعن الله [في كتابه] من أفسد في الأرض وقطع رحمه ، وآذاه وآذى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولعن من كتم ما أنزل الله سبحانه من البينات والهدى .

ولعن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالفاحشة .

ولعن من جعل سبيل الكافرين أهدي من سبيل المسلمين^(٢) .

ولعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجل يلبس لبسة المرأة ، والمرأة تلبس

(١) كره أعمى : يريد أنه أضله وعى عليه ولم يرشده إلى مقصده .

(٢) في نسخة « سبيل الكافر أهدي من سبيل المسلم »

ليسة الرجل ، ولعن الراشئ والمرثئ والرائش - وهو الوسطة في الرشوة - ولعن على أشياء أخر غير هذه .

فلو لم يكن في فعل ذلك إلا رضا فاعله بأن يكون ممن يلعنه الله ورسوله وملائكته لكان في ذلك ما يدعو إلى تركه .

فصل

ومنها : حرمان دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوة الملائكة ، فإن الله سبحانه أمر نبيه أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات ، وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ، فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ، وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ، رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنِ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [غافر : ٧ - ٩] .

فهذا دعاء الملائكة للمؤمنين التائبين المتبعين لكتابه وسنة رسوله اللذين لا سبيل له غيرهما ، فلا يطمع غير هؤلاء بإجابة هذه الدعوة إذا لم يتصف بصفات المدعو له بها ، والله المستعان .

فصل

ومن غرائب المعاصي ، ما رواه البخارى في صحيحه من حديث سُمره بن جُنْدَب قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم مما يكثر أن يقول لأصحابه : هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ الْبَارِحَةَ رُؤْيَا ؟ فيقص عليه ما شاء الله أن يقص ، وإنه قال لنا ذات غداة : إنه أتاني الليلة آتيان ، وإنهما انبعثا لى ، وإنهما قالا لى : انطلق ، وإنى انطلقت معهما ، وإننا أتينا على رجل مضطجع ، وإذا آخر قائم عليه بصخرة ،

وإذا هو يهوى بالصخرة لرأسه ، فيثلغ رأسه فيتندهده الحجر^(١) هاهنا ، فيتبع الحجر ، فيأخذه ، فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان ، ثم يعود عليه ، فيفعل به مثل ما فعل في المرة الأولى . قال : قلت لهما : سبحان الله ! ما هذا ؟ قالوا : أنطلق . . أنطلق ، فانطلقنا ، فأتينا على رجل مستلقٍ لقفاه وإذا آخر قائم عليه بكُلُوبٍ من حديد ، وإذا هو يأتى أحد شقِّي وجهه ويشرشر شدقه إلى قفاه ، ومنخره إلى قفاه ، وعينه إلى قفاه ، ثم يتحول إلى الجانب الآخر ، فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان . ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل في المرة الأولى . قال : قلت : سبحان الله ! ما هذان ؟ فقالوا : أنطلق . . انطلق ، فانطلقنا ، فأتينا على مثل التنور ، فإذا فيه لغط وأصوات ، قال : فاطلنا فيه ، فإذا فيه رجال ونساء عراة ، وإذا هم يأتهم لُهب من أسفل منها ، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا^(٢) . فقال : قلت لهم : ما هؤلاء ؟ قالوا : أنطلق . . انطلق ، فانطلقنا ، فأتينا على نهر أحمر مثل الدَّم ، فإذا في النهر رجل سابح يسبح ، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة ، وإذا ذلك السابح يسبح ما شاء الله أن يسبح ، ثم يأتى ذلك الذى قد جمع عنده الحجارة فيفغر له فاه فيلقمه حجراً ، فينطلق فيسبح ، ثم يرجع إليه ، كلما رجع إليه ففغر له فاه ، فيلقمه حجراً ، قلت لهما : ما هذان ؟ قالوا : أنطلق . . انطلق ، فانطلقنا ، فأتينا على رجل كربه المرأة أو كأكبره ما أنت راء رجل مرأى ، وإذا هو عنده نار يحشها^(٣) ويسعى حولها ، قال قلت لهما : ما هذا ؟ قال : قالوا : أنطلق . . انطلق ، فانطلقنا حتى أتينا على روضة مُعْتَمَةٍ^(٤) ، فيها من كل نور الربيع^(٥) ، وإذا بين

(١) يثلغ : يشدخ ، ويتنهدده : يتدحرج . (٢) أى ضجوا وصاحوا . (٣) أى يوقدها ويلهبها

(٤) الروضة : الأرض الخصبية ، والمعتمة - بضم الميم الأولى وتشديد الميم الثانية ، أى وافية للنبات

طويلته . (٥) نور الربيع بفتح النون : زهره

ظهرانى الروضة رجل طويل ، لا أكاد أرى رأسه طولاً فى السماء ، وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط ، قال : قلت : ما هذا ؟ ما هؤلاء ؟ قال : قالوا لى : انطلق . . انطلق ، فانطلقنا ، فأتينا إلى دوحة عظيمة^(١) لم أر دوحة ط أعظم منها ولا أحسن ، قال : قالوا لى : ارق فيها ، فارتقينا فيها إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة ، قال : فأتينا باب المدينة ، فاستفتحنا ، ففتح لنا فدخلناها ، فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء وشطر منهم كأقبح ما أنت راء ، قال : قالوا لهم : اذهبوا فقعوا فى ذلك النهر ، قال : وإذا نهر معترض يجرى كأن ماءه المحض^(٢) فى البياض ، فذهبوا فوقعوا فيه ، ثم رجعوا إلينا ، قد ذهب ذلك السوء عنهم ، قال : قالوا لى : هذه جنة عدن ، وهاذاك منزلك ، قال : فسما بصرى صعداً ، فإذا قصر مثل الربابة^(٣) البيضاء ، قال : قالوا لى : هذا منزلك ، قلت لهما : بارك الله فيكما فذراني فأدخله . قالوا : أما الآن فلا ، وأنت داخله ، قلت لهما : فلانى رأيت منذ الليلة عجبا ، فما هذا الذى رأيت ؟ قال : قالوا لى : أما إنا سنخبرك :

أما الرجل الأول الذى أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر ، فإنه الرجل يأخذ القرآن ، فيرفضه ، وينام عن الصلاة المكتوبة .

وأما الرجل الذى أتيت عليه يشرشر شذقه إلى قفاه ، ومنخره إلى قفاه ، وعينه إلى قفاه ، فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق .

وأما الرجال والنساء العراة الذين هم فى مثل بناء التنور ، فإنهم الزناة والزواني

وأما الرجل الذى أتيت عليه يسبح فى النهر ، ويلقم الحجارة ، فإنه

آكل الربا .

(١) الدوحة : الشجرة العظيمة

(٢) المحض : الخالص من كل شيء ، والمراد به هنا اللبن

(٣) الربابة : السحابة .

وأما الرَّجُلُ الكريه المرآة الذى عند النار يحشها ويسعى حولها فإنه مالمك خازن جهنم .

وأما الرَّجُلُ الطويل الذى فى الروضة ، فإنه إبراهيم .
وأما الولدان الذين حوله ، فكل مولود مات على الفطرة - وفى رواية البرقاني :
ولد على الفطرة - فقال بعض المسلمين : يا رسول الله وأولاد المشركين ؟ فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولاد المشركين .
وأما القوم الذين كانوا شَطَر منهم حسن وشر منهم قبيح ، فإنهم قوم
خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً تجاوز الله عنهم .

فصل

ومن آثار الذنوب والمعاصي : أنها تُحدث فى الأرض أنواعاً من الفساد فى
المياه والهواء ، والزروع والثمار ، والمساكن . قال تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ
وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ، لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾
[الروم : ٤١] .

قال مجاهد : إذا ولى الظالم سعى بالظلم [والفساد] فيحبس الله بذلك القطر
فيهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد . ثم قرأ : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ
وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾
ثم قال : أما والله ما هو بحركم هذا ، ولكن كل قرية على ماء جار فهو بحر . وقال
عكرمة : ظهر الفساد فى البر والبحر ، أما إني لا أقول لكم : بحركم هذا ،
ولكن كل قرية على ماء . وقال قتادة : أما البر فأهل العمود ، وأما البحر فأهل
القرى والريف .

قلت : وقد سمي الله تعالى الماء العذب بحرأ فقال : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ .
هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ ، [فاطر : ١٢] وليس فى

العالم بحر حلو واقف ، وإنما هي الأنهار جارية ، والبحر المالح هو الساكن ، فسمى القرى التي عليها المياه الجارية باسم تلك المياه . وقال ابن زيد : ﴿ ظَهَرَ الفسادُ في البَرِّ والبحْرِ ﴾ قال : الذنوب .

قلت : أراد أن الذنوب سبب الفساد الذي ظهر ، وإن أراد أن الفساد الذي ظهر هو الذنوب نفسها فيكون اللام في قوله ﴿ لِيُذَيِّقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ لام العقابة والتعليل . وعلى الأول : فالمراد بالفساد ، النقص والشر والآلام التي يحدثها الله في الأرض عند معاصي العباد ، فكلما أحدثوا ذنباً أحدث الله لهم عقوبة ، كما قال بعض السلف : كلما أحدثتم ذنباً أحدث الله لكم من سلطانه عقوبة .

والظاهر - والله أعلم - أن الفساد المراد به الذنوب وموجباتها ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ لِيُذَيِّقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ فهذا حالنا . وإنما أذاقنا الشيء اليسير من أعمالنا ، ولو أذاقنا كل أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة .

ومن تأثير المعاصي في الأرض : ما يحل بها من الخسف والزلازل ويمحق بركتها ، وقد مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على ديار ثمود . فمنعهم من دخول ديارهم إلا وهم باكون ، ومن شرب مياههم ، ومن الاستسقاء من آبارهم ، حتى أمر أن يعلف العجين الذي عجن بمياههم للنواضح^(١) لتأثير شؤم المعصية في الماء ، وكذلك تأثير شؤم الذنوب في نقص الثمار وما ترى به من الآفات .

وقد ذكر الإمام أحمد في مسنده في ضمن حديث قال : « وجد في خزائن بني أمية : حبة حنطة بقدر نواة التمرة ، وهي في صرة مكتوب عليها : هذا كان ينبت في زمن العدل » وكثير من هذه الآفات أحدثها الله سبحانه وتعالى بما أحدث العباد من الذنوب .

(١) النواضح : الإبل يستق عليها الماء ، واحدها ناضح .

وأخبرني جماعة من شيوخ الصحراء أنهم كانوا يعهدون الثمار أكبر مما هي الآن ، وكثير من هذه الآفات التي تصيبها لم يكونوا يعرفونها ، وإنما حدثت من قرب .

وأما تأثير الذنوب في الصور والخلق ، فقد روى الترمذی في جامعه عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَطَوَّلَهُ فِي السَّمَاءِ سِتُونَ ذِرَاعًا ، فَلَمَّ يَزَلُ الْخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الْآنَ » فإذا أراد الله أن يطهر الأرض من الظلمة والفجرة والخونة ، يخرج عبداً من عباده من أهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم فيملأ الأرض قسطاً كما ملئت جوراً ، ويقتل المسيح اليهود والنصارى ويقيم الدين الذي بعث الله به رسوله ، وتخرج الأرض بركتها ، وتعود كما كانت ، حتى إن العصابة من الناس ليأكلون الرماية ويستظلون بقحفها ، ويكون العنقود من العنب وقر بعير ، وأن اللقحة الواحدة لتكفي الفئام من الناس (١) ، وهذا لأن الأرض لما طهرت من المعاصي ظهرت فيها آثار البركة من الله تعالى التي محقتها الذنوب والكفر : ولا ريب أن العقوبات التي أنزلها الله في الأرض بقيت آثارها سارية في الأرض ، تطلب ما يشاكلها من الذنوب التي هي آثار تلك الجرائم التي عذبت بها الأمم ، فهذه الآثار في الأرض من آثار تلك العقوبات ، كما أن هذه المعاصي من آثار تلك الجرائم . فتناسبت كلمة الله وحكمه الكوني أولاً وآخرأً ، وكان العظيم من العقوبة للعظيم من الجناية ، والأخف للأخف ، وهكذا يحكم سبحانه بين خلقه في دار البرزخ ودار الجزاء .

وتأمل مقارنة الشيطان ومحلّه وداره ، فإنه لما قارن العبد واستولى عليه نزعت البركة من عمره ، وعمله ، وقوله ، ورزقه ، ولما أثرت طاعته في الأرض ما أثرت

(١) الفئام : الجماعة الكثيرة العدد .

زعت البركة من كل محل ظهرت فيه طاعته وكذلك مسكنه لما كان الجحيم لم يكن هناك شيء من الروح والرحمة والبركة .

فصل

ومن عقوبات الذنوب : أنها تطفئ من القلب نار الغيرة التي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياسة جميع البدن ، فالغيرة حرارته وناره التي تخرج ما فيه من الخبث والصفات المذمومة ، كما يخرج الكير خبث الذهب والفضة والحديد ، وأشرف الناس وأعلامهم همّة أشدهم غيرة على نفسه وخاصته وعموم الناس . ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم أغير الخلق على الأمة ، والله سبحانه أشد غيرة منه ، كما ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةٍ سَعْدٌ ؟ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ ، وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي » .

وفي الصحيح أيضاً أنه قال في خطبة الكسوف : « يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ مَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ » .

وفي الصحيح أيضاً عنه أنه قال : « لَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ » فجمع في هذا الحديث بين الغيرة التي أصلها كراهة القبائح وبغضها ، وبين محبة العذر الذي يوجب كمال العدل والرحمة والإحسان ، والله سبحانه - مع شدة غيرته - يجب أن يعتذر إليه عبده ، ويقبل عذر من اعتذر إليه ، وإنه لا يؤاخذ عبده بارتكاب ما يغار من ارتكابه حتى يعتذر إليهم ، ولأجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه إعداراً وإنذاراً ، وهذا غاية المجد والإحسان ونهاية الكمال ، فإن كثيراً ممن تشتد غيرته من المخلوقين يحمله شدة الغيرة على سرعة الإيقاع والعقوبة من غير إعدار منه ، ومن غير قبول لعذر من

اعتذر إليه ، بل يكون له في نفس الأمر عذر ولا تدعه شدة الغيرة أن يقبل عذره ، وكثير ممن يقبل المعاذير يحمله على قبولها قلّة الغيرة حتى يتوسع في طرق المعاذير ، ويرى عذراً ما ليس بعذر ، حتى يعتذر كثير منهم بالقدر ، وكل منهما غير ممدوح على الإطلاق .

وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إِنَّ مِنَ الْغِيَرَةِ مَا يُحِبُّهَا اللَّهُ ، وَمِنْهَا مَا يَبْغُضُهُ اللَّهُ ، فَالَّتِي يَبْغُضُهَا اللَّهُ الْغِيَرَةُ فِي غَيْرِ رِيْبَةٍ » وذكر الحديث . وإنما الممدوح اقتران الغيرة بالعذر ، فيغار في محل الغيرة ، ويعذر في موضع العذر ، ومن كان هكذا فهو الممدوح حقاً .

ولما جمع الله سبحانه صفات الكمال كلها كان أحق بالمدح من كل أحد ، ولا يبلغ أحد أن يمدحه كما ينبغي له ، بل هو كما مدح نفسه وأثنى على نفسه ، فالغيور قد وافق ربه سبحانه في صفة من صفاته ، ومن وافق الله في صفة من صفاته قاده تلك الصفة إليه بزماتها ، وأدخلته على ربه ، وأدنته وقربته من رحمته ، وصيرته محبوباً له ، فإنه سبحانه رحيم يحب الرّحماء ، كريم يحب الكرماء ، عليم يحب العلماء ، قوى يحب المؤمن القوي ، وهو أحب إليه من المؤمن الضعيف ، حيّ يحب أهل الحياء ، جميل يحب أهل الجمال ، وتر يحب أهل الوتر .

ولو لم يكن في الذّنوب والمعاصي إلّا أنها توجب لصاحبها ضد هذه الصفات وتمنعه من الانصاف بها لكفى بها عقوبة ، فإن الخطرة تنقلب وسوسة ، والوسوسة تصير إرادة ، والإرادة تقوى فتصير عزيمة ، ثم تصير فعلاً ، ثم تصير صفة لازمة وهيئة ثابتة راسخة . وحينئذ يتعذر الخروج منها ، كما يتعذر الخروج من صفاته القائمة به .

والمقصود أنه كلما اشتدت ملابسته للذنوب أخرجت من قلبه الغيرة على

نفسه وأهله وعموم الناس . وقد تضعف في القلب جداً حتى لا يستقيح بعد ذلك القبيح لا من نفسه ولا من غيره ، وإذا وصل إلى هذا الحد فقد دخل في باب الهلاك . وكثير من هؤلاء لا يقتصر على عدم الاستقيح ، بل يحسن الفواحش والظلم لغيره ، ويزينه له ، ويدعوه إليه ، ويحثه عليه ، ويسعى له في تحصيله . ولهذا كان الديوث أخبث خلق الله ، والجنة حرام عليه ، وكذلك محلل الظلم والبغى لغيره ومزينه له . فانظر ما الذي حملت عليه قلة الغيرة .

وهذا يدلُّك على أن أصل الدين الغيرة ، ومن لا غيرة له لا دين له ، فالغيرة تحمي القلب فتحمي له الجوارح ، فتدفع السوء والفواحش . وعدم الغيرة تमित القلب فتموت له الجوارح ، فلا يبقى عندها دفع ألبتة . ومثل الغيرة في القلب مثل القوة التي تدفع المرض وتقاومه ، فإذا ذهبت القوة وجد الداء المحلَّ قابلاً ، ولم يجد دافعاً ، فتمكن فكان الهلاك .

ومثلها مثل صياصي الجاموس^(١) التي يدفع بها عن نفسه وولده ، فإذا كُسرت^(٢) طمع فيه علوه .

فصل

ومن عقوباتها : ذهاب الحياء الذي هو مادة حياة القلب ، وهو أصل كل خير ، وذهابه ذهاب الخير أجمعه^(٣) .

وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الحياء خير كله » .
وقال : « إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسَ مِنَ الْكَلَامِ النَّبُوَّةُ الْأُولَى : إِذَا لَمْ تَسْتَحْ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ » . وفيه تفسيران :

(١) صياصي الجاموس : قرونها

(٢) في نسخة « تكسرت »

(٣) في نسخة « وذهابه ذهاب كل خير بأجمه »

أحدهما : أنه على التهديد والوعيد ، والمعنى من لم يستح فإنه يصنع ما شاء من القبائح ، إذ الحامل على تركها الحياء ، فإذا لم يكن هناك حياء يردعه عن القبائح فإنه يواقعها . وهذا تفسير أبي عبيدة .

والثاني : أن الفعل إذا لم تستح من الله فافعله ، وإنما الذى ينبغى تركه هو ما يستحي منه من الله ، وهذا تفسير الإمام أحمد فى رواية ابن هانى .
فعلى الأول يكون تهديداً ، كقوله تعالى : ﴿ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ [فصلت : ٤٠]
وعلى الثانى يكون إذناً وإباحة .

فإن قيل : فهل من سبيل إلى حمله على المعنيين ؟ .

قلت : لا ، ولا على قول من يحمل المشترك على جميع معانيه ، لما بين الإباحة والتهديد من المناقاة ، ولكن اعتبار أحد المعنيين يوجب اعتبار الآخر .
والمقصود أن الذنوب تضعف الحياء من العبد ، حتى ربما انسلخ منه بالكلية ، حتى إنه ربما لا يتأثر بعلم الناس بسوء حاله ولا باطلاعهم عليه ، بل كثير منهم يخبر عن حاله وقبح ما يفعل ، والحامل له على ذلك انسلاخه من الحياء ، وإذا وصل العبد إلى هذه الحال لم يبق فى صلاحه مطمع .

وإذا رأى إبليس طلعة وجهه حياً وقال : فديت من لا يفلح

والحياء مشتق من الحياة ، والغيث يسمى حياً - بالقصر - لأن به حياة الأرض والنبات والدواب وكذلك سميت بالحياء حياة الدنيا والآخرة ، فمن لاهياء فيه [فهو] ميت فى الدنيا شقى فى الآخرة ، وبين الذنوب وبين قلة الحياء وعدم الغيرة تلازم من الطرفين ، وكل منهما يستدعى الآخر ويطلبه حثيثاً ، ومن استحيى من الله عند معصيته استحيى الله من عقوبته يوم يلقاه ، ومن لم يستحي من معصيته لم يستحي من عقوبته (١) .

(١) فى نسخة « ومن لم يستح من الله تعالى من معصيته لم يستح الله من عقوبته » .

فصل

ومن عقوبات الذُّنوب : أنها تضعف في القلب تعظيم الرب جلّ جلاله ، وتضعف وقاره في قلب العبد ولا بد ، شاء أم أبى . ولو تمكّن وقار الله وعظمته في قلب العبد لما تَجَرَّأَ على معاصيه ، وربما اغتر المغتر ، وقال : إنما يحملني على المعاصي حسن الرّجاء ، وطمعى في عَفْوهِ ، لا ضعف عظمته في قلبي . وهذا من مغالطة النفس ، فإن عظمة الله تعالى وجلاله في قلب العبد [تقتضى تعظيم حرّماته] وتعظيم حرّماته تحوّل بينه وبين الذُّنوب ، والمتجرّئون على معاصيه ما قَدَّرُوا الله حقّ قدره ، وكيف يقدره حقّ قدره ، أو يعظّمه ويكبّره . ويرجو وقاره ويجله من يهون عليه أمره ونهيه ؟ هذا من أمحل المحال ، وأبين الباطل . وكفى بالمعاصي عقوبة أن يضمحل من قلبه تعظيم الله جلّ جلاله ، وتعظيم حرّماته ، ويهون عليه حقه .

ومن بعض عقوبة هذا : أن يرفع الله عز وجل مهابته من قلوب الخلق ، ويهون عليهم ويستخفون به ، كما هان عليه أمره واستخف به ، فعلى قدر محبة العبد لله يحبه الناس ، وعلى قدر خوفه من الله يخافه الخلق ، وعلى قدر تعظيمه لله وحرّماته يعظّمه الناس ، وكيف ينتهك عبد حرّمات الله ويطمع أن لا ينتهك الناس حرّماته ؟ أم كيف يهون عليه حق الله ولا يهونه الله على الناس ؟ أم كيف يستخف بمعاصي الله ولا يستخف به الخلق ؟ .

وقد أشار سبحانه إلى هذا في كتابه عند ذكر عقوبات الذُّنوب ، وأنه أَرَكَسَ أَرِبَاهَا بَمَا كَسَبُوا ، وغطى على قلوبهم ، فطبع عليها بذنوبهم ، وأنه نسيهم كما نسوه ، وأهانهم كما أهانوا دينه ، وضيعهم كما ضيعوا أمره ، ولهذا قال تعالى في آية سجود المخلوقات له : ﴿ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهَ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ﴾ [الحج : ١٨] فإنهم لما هان عليهم السجود له واستخفوا به ولم يفعلوه أهانهم الله ، فلم يكن

لهم من مكرم بعد أن أهانهم الله ، ومن ذا يكرم من أهانه الله ؟ أو يهين من أكرمه الله ؟ .

فصل

ومن عقوباتها : أنها تستدعى نسيان الله لعبده وتركه ، وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه ، وهناك الهلاك الذى لا يرجى معه نجاة ، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الحشر : ١٨ - ١٩] فأمر بتقواه ونهى أن يتشبه عباده المؤمنون بمن نسيه بترك تقواه ، وأخبر أنه عاقب من ترك التقوى بأن أنساه نفسه ، أى أنساه مصالحها ، وما ينجيها من عذابه ، وما يوجب له الحياة الأبدية ، وكمال لذتها وسرورها ونعيمها ، فأنساه الله ذلك كله جزاء لما نسيه من عظمتته وخوفه ، والقيام بأمره ، فترى العاصي مهملًا لمصالح نفسه ، مضيعًا لها ، وقد أغفل قلبه عن ذكره ، واتبع هواه وكان أمره فرطًا ، قد انفردت عليه مصالح دنياه وآخرته ، وقد فرط في سعادته الأبدية ، واستبدل بها أدنى ما يكون من لذة ، إنما هي سحابة صيف أو خيال طيف ، كما قيل :

أحلام نوم ، أو كظل زائل إن اللبيب بمثلها لا يُخدع
وأعظم العقوبات نسيان العبد لنفسه ، وإهماله لها ، وإضاعته حظها ونصيبها من الله ، وبيعته ^(١) ذلك بالغبن والهوان وأبخس الثمن ، فضيع من لا غنى له عنه ، ولا عوض له منه ، واستبدل به من عنه كل الغنى أو منه كل العوض :
من كل شيء إذا ضيعته عوض وما من الله إن ضيعته عوض
فالله سبحانه وتعالى يعوض كل ما سواه ولا يعوض منه شيء ، ويغنى عن

(١) في نسخة : « وبيعها » .

كل شيء ولا يغنى عنه شيء ، ويعجير من كل شيء ولا يعجير منه شيء . ويمنع من كل شيء ، ولا يمنع منه شيء ، فكيف يستغنى العبد عن طاعة من هذا شأنه طرفة عين ؟ وكيف ينسى ذكره ويضيع أمره حتى ينسيه نفسه ، فيخسرها ويظلمها أعظم الظلم ؟ فما ظلم العبد ربه ولكن ظلم نفسه . وما ظلمه ربه ولكن هو الذى ظلم نفسه .

فصل

ومن عقوباتها : أنها تخرج العبد من دائرة الإحسان وتمنعه ثواب المحسنين . فإن الإحسان إذا باشر القلب منعه من المعاصي ، فإن من عبد الله كأنه يراه لم يكن ذلك إلا لاستيلاء ذكره ومحبه وخوفه ورجائه على قلبه ، بحيث يصير كأنه يشاهده ، وذلك يحول بينه وبين إرادة المعصية ، فضلا عن موافقتها : فإذا خرج من دائرة الإحسان فإنه صحبة رفقة الخاصة ، وعيشهم الهنيء ونعيمهم التام ، فإن أراد الله به خيراً أقره في دائرة عموم المؤمنين ، فإن عصاه بالمعاصي التي تخرجه من دائرة الإيمان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يَنْتَهَبُ نَهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ إِلَيْهِ فِيهَا النَّاسُ أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ » فإياكم إياكم : والتوبة معروضة بعد .

فصل

ومن فاته رفقة المؤمنين وحسن دفاع الله عنهم ، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا وفاته (١) كل خير رتبته الله في كتابه على الإيمان ، وهو نحو مائة خصلة

(١) الواو في قوله : « وفاته » زائدة ، ليكون قوله « فاته » جواب « من » . وفي نسخة « ومن فاته رفقة المؤمنين وخرج عن دائرة الإيمان فإنه حسن دفاع الله عن المؤمنين فإن الله ... إلخ » .

كل خصلة منها خير من الدنيا وما فيها .

فمنها الأجر العظيم : ﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١٤٦]

ومنها الدفع عنهم شرور الدنيا والآخرة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾

[الحج : ٣٨] .

ومنها استغفار الملائكة حملة العرش لهم : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ

يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [غافر : ٧] .

ومنها موالاة الله لهم ، ولا يذل من موالاه الله ، قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ

آمَنُوا ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .

ومنها أمره ملائكته بتنشيتهم : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ ،

فَقُتِبُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الأنفال : ١٢] .

ومنها : أن لهم الدرجات عند ربهم والمغفرة والرزق الكريم .

ومنها العزة : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

[المنافقون : ٨] .

ومنها معية الله لأهل الإيمان : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال : ١٩] .

ومنها الرفعة في الدنيا والآخرة : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا

الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] .

ومنها : إعطاؤهم كفلين من رحمته . وإعطاؤهم نوراً يمشون به ، ومغفرة

ذنوبهم .

ومنها : الود الذي يجعله الله سبحانه لهم ، وهو أنه يحبهم ويحبهم إلى

ملائكته وأنبيائه وعباده الصالحين : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ [مريم : ٩٦] .

ومنها : أمانهم من الخوف يوم يشتد الخوف : ﴿ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٨] .

ومنها : أنهم المنعم عليهم الذين أمرنا أن نسأله أن يهدينا إلى صراطهم في كل يوم وليلة سبع عشرة مرة .

ومنها أن القرآن إنما هو هدى لهم وشفاء : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ ، وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فُصِّلَتْ : ٤٤] .

والمقصود أن الإيمان سبب جالب لكل خير ، وكل خير في الدنيا والآخرة فسببه الإيمان . [وكل شر في الدنيا والآخرة فسببه عدم الإيمان] فكيف يهون على العبد أن يرتكب شيئاً يخرج من دائرة الإيمان ويحول بينه وبينه ، ولكن لا يخرج من دائرة عموم المسلمين ؟ فإن استمر على الذنوب وأصر عليها خيف عليه أن يَرِيْنَ على قلبه ، فيخرجه عن الإسلام بالكلية . ومن ههنا اشتد خوف السلف ، كما قال بعضهم : أنتم تخافون الذنوب ، وأنا أخاف الكفر .

فصل

ومن عقوباتها : أنها تضعف سير القلب إلى الله والدار الآخرة ، أو تعوقه أو توقفه وتقطعه عن السير ، فلا تدعه يخطو إلى الله خطوة ، هذا إن لم ترده عن وجهته إلى ورائه ، فالذنوب يحجب الواصل ويقطع السائر وينكس الطالب ، والقلب إنما يسير إلى الله بقوته فإذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التي تُسِيرُهُ ، فإن زالت بالكلية انقطع عن الله انقطاعاً يبعد تداركه ، والله المستعان .
فالذنوب إما أن يُجِيت القلب ، أو يمرضه مرضاً مخوفاً ، أو يُضعف قوته ولا بد ، حتى ينتهي ضعفه إلى الأشياء الثمانية التي استعاذ منها النبي صلى الله

عليه وسلّم وهى : « الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وضلع الدين ^(١) » وغلبة الرجال « وكل اثنين منها قرينان .

فالهم والحزن قرينان . فإن المكروه الوارد على القلب إن كان من أمر مستقبل يتوقعه أحدث الهم . وإن كان من أمر ماض قد وقع أحدث الحزن .

والعجز والكسل قرينان ، فإن تخلف العبد عن أسباب الخير والفلاح إن كان لعدم قدرته فهو العجز ، وإن كان لعدم إرادته فهو الكسل .

والجبن والبخل قرينان ، فإن عدم النفع منه إن كان ببذنه فهو الجبن ، وإن كان بماله فهو البخل .

وضلع الدين وقهر الرجال قرينان ، فإن استعلاء ^(٢) الغير عليه إن كان بحق فهو من ضلع الدين ، وإن كان بباطل فهو قهر الرجال .

والمقصود أن الذنوب من أقوى الأسباب الجالبة لهذه الثمانية ، كما أنها من أقوى الأسباب الجالبة : « لجهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء » . ومن أقوى الأسباب الجالبة لزوال نعم الله ، وتحول عافيته إلى نقمته ، وتجلب جمع سخطه .

فصل

ومن عقوبات الذنوب : أنها تزيل النعم وتحل النقم ، فما زالت عن العبد نعمة إلا بذنب ، ولا حلت به نقمة إلا بذنب . كما قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : « ما نزل بلاء إلا بذنب ، ولا رفع إلا بتوبة » . وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ، وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى :

(١) ضلع الدين : ثقله حتى يغلب ويقهر .

(٢) فى نسخة « استيلاء الغير عليه » .

[٣٠] . وقال تعالى : ﴿ ذَلِكِ بَيِّنٌ لِّمَن يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال : ٥٣] .

فأخبر الله تعالى أنه لا يغير نعمه التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذي يغير ما بنفسه ، فيغير طاعة الله بمعصيته ، وشكره بكفره ، وأسباب رضاه بأسباب سخطه ، فإذا غير غير عليه ، جزاء وفاقاً ، وما ربك بظلام للعبيد . فإن غير المعصية بالطاعة غير الله عليه العقوبة بالعافية ، والذل بالعر . وقال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ ، وَإِذَا أَرَادَ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴾ [الرعد : ١١] .

وفي بعض الآثار الإلهية ، عن الرب تبارك وتعالى أنه قال : « وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا يَكُونُ عَبْدٌ مِنْ عِبِيدِي عَلَىٰ مَا أُحِبُّ ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ عَنْهُ إِلَىٰ مَا أَكْرَهُ ، إِلَّا أَنْتَقَلْتُ لَهُ مِمَّا يُحِبُّ إِلَىٰ مَا يَكْرَهُ ، وَلَا يَكُونُ عَبْدٌ مِنْ عِبِيدِي عَلَىٰ مَا أَكْرَهُ ثُمَّ يَنْتَقِلُ عَنْهُ إِلَىٰ مَا أُحِبُّ إِلَّا أَنْتَقَلْتُ لَهُ مِمَّا يَكْرَهُ إِلَىٰ مَا يُحِبُّ » .

ولقد أحسن القائل :

إذا كنت في نعمة فارعها	فإن الذنوب تزيل النعم
وحطها بطاعة رب العباد	فرب العباد سريع النقم
وإياك والظلم مهما استطعت	فظلم العباد شديد الوخم
وسافر بقلبك بين الوري	لتبصر آثار من قد ظلم
فتلك مساكنهم بعدهم	شهود عليهم ، ولا تنهم
وما كان شيء عليهم أضر	من الظلم وهو الذي قد قصم ^(١)
فكم تركوا من جنان ومن	قصور ، وأخرى عليهم أطم ^(٢)
صلوا بالجحيم وفات النعيم	وكان الذي نالهم كالحم ^(٣)

(١) قصم : من قاصمة الظهر ، أى أنه يضعف القوة .

(٢) أطم : أشد وأظلم .

(٣) صلو : احترقوا .

فصل

ومن عقوباتها : ما يلقيه الله سبحانه من الرعب والخوف في قلب العاصي ، فلا تراه إلا خائفاً مرعوباً ، فإن الطاعة حصن الله الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين من عقوبة الدنيا والآخرة ، ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل جانب ، فمن أطاع الله انقلبت المخاوف في حقه أماناً ، ومن عصاه انقلبت مآمنة مخاوف ، فلا تجد العاصي إلا وقلبه كآته بين جناحي طائر ، إن حركت الريح الباب قال : جاء الطلب ، وإن سمع وقع قدم خاف أن يكون نذيراً بالعطب ، يحسب أن كل صيحة عليه ، وكل مكروه قاصداً إليه ، فمن خاف الله آمنه من كل شيء ، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء :

بذا قضى الله بين الناس مذ خلقوا أن المخاوف والإجرام في قرن
ومن عقوباتها : أنها توقع الوحشة العظيمة في القلب ، فيجد المذنب نفسه مستوحشاً ، قد وقعت الوحشة بينه وبين ربه ، وبين الخلق وبين نفسه ^(١) ، وكلما كثرت الذنوب اشتدت الوحشة ، وأمر العيش عيش المستوحشين الخائفين ، وأطيب العيش عيش المستأنسين ، فلو نظر العاقل ووازن لذة المعصية وما توقعه من الخوف والوحشة لعلم سوء حاله وعظيم غبنه ، إذ باع أنس الطاعة وأمنها وحلاوتها بوحشة المعصية وما توجبه من الخوف والضرر الداعي له ، كما قيل :

فإن كنت قد أوحشتك الذنوب فدعها إذا شئت واستأنس
وسر المسألة أن الطاعة توجب القرب من الرب سبحانه ، فكلمنا اشتد القرب قوى الأنس ، والمعصية توجب البعد من الرب ، وكلما ازداد البعد قويت الوحشة ، ولهذا يجد العبد وحشة بينه وبين عدوه للبعد الذي بينهما ، وإن كان ملابساً له

(١) هكذا في الخطية ، وفي نسخة : « وبينه وبين الخلق ، وبينه وبين نفسه » وربما كانت أكثر فائدة .

قريباً منه ، ويجد أنساً وقرباً بينه وبين من يحب ، وإن كان بعيداً عنه ،
والوحشة سببها الحجاب ، وكلما غلظ الحجاب زادت الوحشة ، فالغفلة توجب
الوحشة ، وأشد منها وحشة المعصية وأشد منها وحشة الشرك والكفر ، ولا تجد
أحداً ملابساً شيئاً من ذلك إلا ويعلوه من الوحشة بحسب ما لابس منه . قتلوا
الوحشة وجهه وقلبه ، فيستوحش ويستوحش منه .

فصل

ومن عقوباتها : أنها تصرف القلب عن صحته واستقامته إلى مرضه وانحرافه ،
فلا يزل مريضاً معلولاً لا ينتفع بالأغذية التي بها حياته وصلاحه ، فإن تأثير
الذنوب في القلوب كتأثير الأمراض في الأبدان بل الذنوب أمراض القلوب
وداؤها ، ولا دواء لها إلا تركها . وقد أجمع السائرون إلى الله أن القلوب لا تعطى
منها حتى تصل إلى مولاها ، ولا تصل إلى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة ،
ولا تكون صحيحة سليمة حتى ينقلب دأؤها فيصير نفس دواها ، ولا يصح لها
ذلك إلا بمخالفة هواها ، فهوها مرضها ، وشفائها مخالفتها ، فإن استحكم المرض
قتل أو كاد . وكما أن من نهى نفسه عن الهوى كانت الجنة مأواه ، فكذا يكون
قلبه في هذه الدار في جنة عاجلة ، لا يشبه نعيم أهلها نعيماً ألبتة ، بل التفاوت
الذي بين النعيمين كالتفاوت الذي بين نعيم الدنيا والآخرة ، وهذا أمر لا يصدق
به إلا من باشر قلبه هذا وهذا . ولا تحسب أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي
نَعِيمٍ ، وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار : ١٣ ، ١٤] مقصور على نعيم
الآخرة وجحيمها فقط ، بل في دورهم الثلاثة هم كذلك - أعنى دار الدنيا ،
ودار البرزخ ، ودار القرار - فهولاء في نعيم ، وهولاء في جحيم ، وهل النعيم إلا
نعيم القلب ؟ وهل العذاب إلا عذاب القلب ؟ وأى عذاب أشد من الخوف والمم
والحزن وضيق الصدر ، وإعراضه عن الله والدار الآخرة ، وتعلقه بغير الله ،

وانقطاعه عن الله . بكل واد منه شعبة ؟ وكل من تعلق به وأحبه من دون الله فإنه يسومه سوء العذاب : فكل من أحب شيئاً غير الله عذب به ثلاث مرات في هذه الدار . فهو يعذب به قبل حصوله حتى يحصل . فإذا حصل عذب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته ، والتنغيص والتنكيد عليه : وأنواع (من العذاب في هذه) المعارضات فإذا سلبه اشتد عليه عذابه ، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدار .

وأما في البرزخ : فعذاب يقارنه ألم الفراق الذي لا يرجو عوده ، وألم فوات ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده : وألم الحجاب عن الله ، وألم الحسرة التي تقطع الأكباد . فالهم والغم والحسرة والحزن تعمل في نفوسهم نظير ما يعمل الهوان والديدان في أبدانهم : بل عملها في النفوس دائم مستمر ، حتى يردّها الله إلى أجسادها ، فحينئذ ينتقل العذاب إلى نوع هو أدهى وأمرّ ، فأين هذا من نعيم من يرقص قلبه طرباً وفرحاً وأنساً بربه ، واشتياقاً إليه ، وارتياحاً بحبه ، وطمأنينة بذكره ؟ حتى يقول بعضهم في حال نزعه : وا طرباه . ويقول الآخر : إن كان أهل الجنة في مثل هذا الحال ، إنهم لقي عيش طيب . ويقول الآخر : مساكين أهل الدنيا ، خرجوا منها وما ذاقوا لذيق العيش فيها ، وما ذاقوا أطيب ما فيها . ويقول الآخر : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالونا عليه بالسيوف . ويقول الآخر : إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة .

فيا من باع حظه الغالي بأبخس الثمن ، وغبن كل الغبن في هذا العقد ، وهو يرى أنه قد غبن ، إذا لم يكن لك خبرة بقيمة السلعة فسل المقومين .

فيا عجباً من بضاعة معك الله مشتريها ، وثمنها جنة المأوى ، والسفير الذي جرى على يديه عقد التبائع وضمن الثمن عن المشتري هو الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد بعثها بغاية الهوان . كما قال القائل :

إذا كان هذا فعل عبد بنفسه فمن ذا له من بعد ذلك يكرم ؟
﴿ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ، إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ ، [الحج : ١٨] .

فصل

ومن عقوباتها : أنها تعمي بصيرة القلب ، وتطمس نوره ، وتسد طرق العلم ،
وتحجب مواد الهداية .

وقد قال مالك للشافعي لما اجتمع به ورأى تلك المخايل ^(١) : إني أرى الله تعالى
قد ألقى عليك نوراً ، فلا تطفئه بظلمة المعصية .

ولا يزال هذا النور يضعف ويضمحل ، وظلام المعصية يقوى حتى يصير
القلب في مثل الليل البهيم . فكم من مهلك يسقط فيه ولا يبصره . كأعمى خرج
بالليل في طريق ذات مهالك ومعاطب ، فيا عزة السلامة ، ويا سرعة العطب .
ثم تقوى تلك الظلمات ، وتفيض من القلب إلى الجوارح ، فيغشى الوجه منها
سواد ، بحسب قوتها وتزايدها ، فإذا كان عند الموت ظهرت في البرزخ ، فامتلاً
القبر ظلمة ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن هذه القبور ممتلئة على
أهلها ظلمة ، وإن الله منورها بصلاقي عليهم » فإذا كان يوم المعاد وحشر العباد
علت الوجوه علواً ظاهراً يراه كل أحد ، حتى يصير الوجه أسود مثل الحممة ^(٢)
فيها من عقوبة لا توازن لذات الدنيا بأجمعها من أولها إلى آخرها ، فكيف
بقسط العبد المنغص المنكد المتعب في زمن ؟ إنما هو ساعة من حلم ! فالله المستعان .

فصل

ومن عقوباتها : أنها تصغر النفس وتقمعها ، وتدسيها وتحقرها حتى تكون

(١) المخايل : الأمارات ، واحداً مخيلة .

(٢) الحممة ، بفتحات : الفحم .

أصغر من كل شيء وأحقره كما أن الطاعة تنمّيها وتزكّيها وتكبرها ، قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس : ١٠٩] والمعنى : قد أفلح من كبرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها ، وقد خسر من أخفاها وحقرها وصغرها بمعصية الله .

وأصل التدسية : الإخفاء . ومنه قوله تعالى : ﴿ أَمْ يُلْسُهُ فِي التُّرَابِ ﴾ ، [النحل : ٥٩] . فالعاصي يلدس نفسه في المعصية ، ويخفي مكانها ، يتوارى من الخلق من سوء ما يأتى به ، قد انقمع عند نفسه ، وانقمع عند الله ، وانقمع عند الخلق ، فالطاعة والبر تكبر النفس وتعزها وتعليها ، حتى تصير أشرف شيء وأكبره وأزكاه وأعلاه ، ومع ذلك فهي أذل شيء وأحقره وأصغره لله تعالى ، وبهذا الذل حصل لها هذا العز والشرف والنمو ، فما صغر النفوس مثل معصية الله ، وما كبرها وشرفها ورفعها مثل طاعة الله .

فصل

ومن عقوباتها : أن العاصي دائماً في أسر شيطانه وسجن شهواته وقبود هواه ، فهو أسير مسجون مقيد ، ولا أسير أسوأ حالاً من أسير أسرّه أعدى عدو له ، ولا سجن أضيق من سجن الهوى ، ولا قيد أصعب من قيد الشهوة ، فكيف يسير إلى الله والدار الآخرة قلب مأسور مسجون مقيد ؟ وكيف يخطو خطوة واحدة ؟ . وإذا قيد القلب طرقته الآفات من كل جانب بحسب قيوده . ومثل القلب مثل الطائر كلما علا بعد عن الآفات ، وكلما نزل احتوشته الآفات ، وفي الحديث « الشيطان ذئب الإنسان » وكما أن الشاة التي لا حافظ لها وهى بين الذئاب سريعة العطب ، فكذا العبد إذا لم يكن عليه حافظ من الله فذئبه مفترسه ولا بد ، وإنما يكون عليه حافظ من الله بالتقوى ، فهى وقاية وجئنة حصينة بينه وبين ذئبه ، كما هى وقاية بينه وبين عقوبة الدنيا والآخرة ، وكلما كانت الشاة

أقرب من الراعى كانت أسلم من الذئب ، وكلما بعدت عن الراعى كانت أقرب إلى الهلاك ، فأسلم ما تكون^(١) الشاة إذا قربت من الراعى ، وإنما يأخذ الذئب القاصية من الغنم ، وهى أبعد من الراعى .

وأصل هذا كله : أن القلب كلما كان أبعد من الله كانت الآفات إليه أسرع وكلما قرب من الله بعدت عنه الآفات ، والبعد من الله مراتب ، بعضها أشد من بعض . فالغفلة تبعد القلب عن الله ، وبُعد المعصية أعظم من بُعد الغفلة ، وبُعد البدعة أعظم من بُعد المعصية ، وبُعد النفاق والشرك أعظم من ذلك كله .

فصل

ومن عقوباتها : سقط الجاه والمنزلة والكرامة عند الله وعند خلقه ، فإن أكرم الخلق عند الله أنقاهم ، وأقربهم منه منزلة أطوعهم له وعلى قدر طاعة العبد له تكون منزلته عنده ، فإذا عصاه وخالف أمره سقط من عينه . فأسقطه من قلوب عباده ، وإذا لم يبق له جاه عند الخلق وهان عليهم عاملوه على حسب ذلك ، فعاش بينهم أسوأ عيش : خامل الذكر ، ساقط القدر ، زرى الحال ، لا حرمة له ، ولا فرح له ولا سرور ، فإن خمول الذكر وسقوط القدر والجاه جالب كل غم وهم وحزن ، ولا سرور معه ولا فرح ، وأين هذا الألم من لذة المعصية لولا سكر الشهوة ؟ ومن أعظم نعم الله على العبد : أن يرفع له بين العالمين ذكره ، ويعلى قدره ، ولهذا خص أنبياءه ورسله من ذلك بما ليس لغيرهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَادْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدَى وَالْأَبْصَارِ ، إِنَّا اخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ ، [ص : ٤٥ ، ٤٧] أى خصصناهم بخصيصة ، وهو الذكر الجميل الذى يذكرون به فى هذه الدار ، وهو لسان الصدق الذى سأل به إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، حيث قال : ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾

(١) فى نسخة « فأحمى ما تكون » أفمل تفصيل من الحماية .

[الشعراء : ٨٤] وقال سبحانه وتعالى عنه وعن نبيه : ﴿ وَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ [مريم : ٥] . وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ . [الشرح : ٤] فاتباع الرسل لهم نصيب من ذلك بحسب ميراثهم من طاعتهم ومتابعتهم ، وكل من خالفهم فإنه بعيد من ذلك بحسب مخالفتهم ومعصيتهم .

فصل

ومن عقوباتها : أنها تسلب صاحبها أسماء المدح والشرف ، وتكسوه أسماء الذم والصغار ، فتسلبه اسم المؤمن ، والبر ، والمحسن ، والمتقى ، والمطيع ، والنيب ، والولى ، والورع ، والصالح ، والعايد ، والخائف ، والأواب ، والطيب ، والمرضى ونحوها . وتكسوه اسم الفاجر ، والعاصى ، والمخالف ، والمسيء ، والمفسد ، والخبيث . والمسخوط : والزانى ، والسارق ، والقاتل ، والكاذب ، والخائن ، واللوطى . وقاطع الرحم ، والغادر وأمثالها ، فهذه أسماء الفسوق و ﴿ بِئْسَ الْأَاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ﴾ [الحجرات : ٦١] الذى يوجب غضب الديان ، ودخول النيران ، وعيش الخزى والهوان . وتلك أسماء توجب رضا الرحمن ، ودخول الجنان . وتوجب شرف المسمى بها على سائر نوع الإنسان ، فلو لم يكن فى عقوبة المعصية إلا استحقاق تلك الأسماء وموجباتها لكان فى العقل ناه عنها ، ولو لم يكن فى ثواب الطاعة إلا الفوز بتلك الأسماء وموجباتها لكان فى العقل أمر بها ، ولكن لا مانع لما أعطى : ولا معطى لما منع ، ولا مقرب لما باعد ، ولا مبعد لمن قرب ﴿ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ، إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [الحج : ١٨] .

فصل

ومن عقوباتها : أنها تؤثر بالخاصة فى نقصان العقل ، فلا تجد عاقلين أحدهما مطيع لله والآخر عاص إلا وعقل المطيع منهما أوفر وأكمل ، وفكره أصح ،

ورأيه أسد^١ ، والصواب قرينه ، ولهذا تجد خطاب القرآن إنما هو مع أولى العقول والألباب كقوله تعالى : ﴿ وَأَتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة : ١٩٧] . وقوله : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة : ١٠٣] . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة : ٢٦٩] ونظائر ذلك كثيرة .

وكيف يكون عاقلاً وافر العقل من يعصى مَنْ هو في قبضته وفي داره . وهو يعلم أنه يراه ويشاهده ؟ فيعصيه وهو بعينه غير متوار عنه . ويستعين بنعمه على مساخطه ، ويستدعى كل وقت غضبه عليه ولعنته له . وإبعاده من قرب . وطرده عن بابه ، وإعراضه عند وخذلانه له ، والتخيلة بينه وبين نفسه وعدوه ، وسقوطه من عينه ، وحرمانه روح رضاه^(١) وجهه ، وقرة العين بقربه^(٢) . والفوز بجواره ، والنظر إلى وجهه في زمرة أوليائه ، إلى أضعاف أضعاف ذلك من كرامة أهل الطاعة ، وأضعاف أضعاف ذلك من عقوبة أهل المعصية .

فأي عقل لمن آثر لذة ساعة أو يوم أو دهر ، ثم تنقضى كأنها حلم لم يكن ، على هذا النعيم المقيم والفوز العظيم ؟ بل هو سعادة الدنيا والاخرة ، ولولا العقل الذى تقوم به عليه الحجة لكان بمنزلة المجانين ، بل قد تكون المجانين أحسن حالا منه وأسلم عاقبة ، فهذا من هذا الوجه .

وأما تأثيرها في نقصان العقل المعيش فلولا الاشتراك في هذا النقصان لظهر لمطينا نقصان عقل عاصينا ، ولكن الجائحة عامة والجنون فنون .

ويا عجباً لو صحت العقول لعلمت أن طريق تحصيل اللذة والفرحة والسرور وطيب العيش إنما هو في رضاء من النعيم كله في رضاه ، والألم والعذاب كله في سخطه وغضبه ، ففي رضاه قرّة العيون ، وسرور النفوس ، وحياة القلوب ، ولذة

(١) في نسخة : « وحرمانه من رضاه » .

(٢) في نسخة : « وقرة العين إنما هي بقربه » .

الأرواح ، وطيب الحياة ، ولذة العيش ، وأطيب النعيم ، مما لو وزن منه مثقال ذرة بنعيم الدنيا لم يف به ، بل إذا حصل للقلب من ذلك أيسر نصيب لم يرض بالدنيا وما فيها عوضاً منه ، ومع هذا فهو يتنعم بنصيبه من الدنيا أعظم من تنعم المترفين فيها ، ولا يشوب تنعمه بذلك الحظ اليسير ما يشوب تنعم المترفين من الهموم والغموم والأحزان والمعارضات ، بل قد حصل على النعيمين وهو ينتظر نعيمين آخرين أعظم منهما ، وما يحصل له في خلال ذلك من الآلام ، فالأمر كما قال تعالى : ﴿ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ، وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء : ١٠٤] فلا إله إلا الله ، ما أنقص عقل من باع الدرّ بالبر ، والمسك بالرجيع ، ومرافقة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين بمرافقة الذين غضب الله عليهم ولعنهم وأعدّ لهم جهنم وساءت مصيراً .

فصل

ومن أعظم عقوباتها : أنها توجب القطيعة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى ، وإذا وقعت القطيعة انقطعت عنه أسباب الخير واتصلت به أسباب الشر ، فأى فلاح ، وأى رجاء ، وأى عيش لمن انقطعت عنه أسباب الخير ، وقطع ما بينه وبين وليه ومولاه الذى لا غنى عنه طرفة عين ، ولا بدل له منه ، ولا عوض له عنه واتصلت به أسباب الشر ، ووصل ما بينه وبين أعدى عدو له ، فتولاه عدوه ، وتخلّى عنه وليه ؟ فلا تعلم نفس ما فى هذا الانقطاع والاتصال من أنواع الآلام وأنواع العذاب .

قال بعض السلف : رأيت العبد ملق بين الله سبحانه وبين الشيطان فإن أعرض الله عنه تولاه الشيطان ، وإن تولاه الله لم يقدر عليه الشيطان ، وقد قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ

فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ؟ يَنْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿ [الكهف : ٥٠] يقول سبحانه لعباده : أنا أكرمتم أباكم ، ورفعت قدره ، وفضلته على غيره . فأمرت ملائكتي كلهم أن يسجدوا له ، تكريماً له وتشريفاً ، فأطاعوني وأبى عدوى وعدوه . فعصى أمرى . وخرج عن طاعتي ، فكيف يحسن بكم بعد هذا أن تتخذوه وذريته أولياء من دوني ، فتطيعونه في معصيتي ، وتوالونه في خلاف مرضاتي ، وهم أعدى عدو لكم ؟ فواليتم عدوى وقد أمرتكم بمعاداته ، ومن وإلى أعداء الملك كان هو وأعداؤه عنده سواء ، فإن المحبة والطاعة لا تتم إلا بمعاداة أعداء المطاع وموالاة أوليائه ، وأما أن توالى أعداء الملك ثم تدعى أنك موال له ، فهذا محال ، وهذا لو لم يكن عدو الملك عدواً لكم ، فكيف إذا كان عدوكم على الحقيقة ، والعداوة التي بينكم وبينه أعظم من العداوة التي بين الشاة والذئب ؟ فكيف يليق بالعقل أن يوالى عدوه وعدو وليه ومولاه الذي لا مولى له سواه ؟ ونبّه سبحانه على قبح هذه الموالاة بقوله : ﴿ وهم لكم عدو ﴾ كما نبّه على قبحها بقوله : ﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾ فتبين أن عداوته لربه وعداوته لنا كل منهما سبب يدعو إلى معاداته ، فما هذه الموالاة ؟ وما هذا الاستبدال ؟ بثس للظالمين بدلا .

ويشبه أن يكون تحت هذا الخطاب نوع من العتاب لطيف عجيب ، وهو أنى عاديت إبليس إذ لم يسجد لأبيكم آدم مع ملائكتي ، فكانت معاداته لأجلكم ثم كان عاقبة هذه المعاداة أن عقدتم بينه وبينكم عقد المصالحة .

فصل

ومن عقوباتها : أنها تحقق بركة العمر ، وبركة الرزق ، وبركة العلم ، وبركة العمل ، وبركة الطاعة .

وبالجملة تحقق بركة الدين والدنيا ، فلا تجد أقل بركة في عمره ودينه

ودنياه من عصي الله ، وما محقت البركة من الأرض إلا بمعاصي الخلق . قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ٩٦] . وقال تعالى : ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُم مَّاءً غَدَقًا ، لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ [الجن : ١٦ ، ١٧] وإن العبد ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه .

وفي الحديث « إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ، فإنه لا ينال ما عند الله إلا بطاعته ، وإن الله جعل الروح^(١) والفرح في الرضى واليقين ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط » .

وقد تقدم الأثر الذى ذكره أحمد في كتاب الزهد « أنا الله ، إذا رضيت باركت وليس لبركتي منتهى ، وإذا غضبت لعنت ولعنتى تدرك السابع من الولد » وليست سعة الرزق والعمل بكثرتة ، ولا طول العمر بكثرة الشهور والأعوام ، ولكن سعة الرزق والعمر بالبركة فيه .

وقد تقدم أن عمر العبد هو مدة حياته ، ولا حياة لمن أعرض عن الله واشتغل بغيره ، بل حياة البهائم خير من حياته ، فإن حياة الإنسان بحياة قلبه وروحه ، ولا حياة لقلبه إلا بمعرفة فطره ومحبه وعبادته وحده ، والإنابة إليه ، والطمأنينة بذكره ، والأنس بقربه ، ومن فقد هذه الحياة فقد الخير كله ولو تعوض عنها بما تعوض مما فى الدنيا ، بل ليست الدنيا بأجمعها عوضاً عن هذه الحياة ، فمن كل شيء يفوت العبد عوض ، وإذا فاته الله لم يعوض عنه شيء أبته ، وكيف يعوض الفقير بالذات عن الغنى بالذات ، والعاجز بالذات عن القادر بالذات ، والميت عن الحى الذى لا يموت ، والمخلوق عن الخالق ، ومن لا وجود له ولا شيء

(١) الروح : الرحمة ومادة الحياة الطيبة .

له من ذاته ألبتة عن غناه وحياته وكماله وجوده ورحمته من لوازم ذاته ؟ وكيف يعوض من لا يملك مثقال ذرة عن له ملك السموات والأرض ؟ .

وإنما كانت معصية الله سبباً لمحق بركة الرزق والأجل ، لأن الشيطان موكل بها وبأصحابها ، فسلطانه عليهم ، وحواته على هذا الديوان وأهله وأصحابه ، وكل شيء يتصل به الشيطان ويقارنه فبركته محوقة ، ولهذا شرع ذكر اسم الله تعالى عند الأكل والشرب واللبس والركوب والجماع ، لما في مقارنة اسم الله من البركة ، وذكر اسمه يطرد الشيطان فتحصل البركة ، ولا معارض له ، وكل شيء لا يكون لله فبركته منزوعة ، فإن الرب هو الذي يبارك وحده ، والبركة كلها منه ، وكل ما نسب إليه مبارك ، فكلامه مبارك ، ورسوله مبارك ، وعبد المومن النافع لخلقه مبارك ، وبيته الحرام مبارك ، وكنانته من أرضه وهي الشام أرض البركة ، وصفها بالبركة في ست آيات من كتابه ، فلا مبارك إلا هو وحده ، ولا مبارك إلا ما نسب إليه ، أعني إلى ألوهيته ومحبه ورضاه ، وإلا فالكون كله منسوب إلى ربوبيته وخلقه ، وكل ما باعده من نفسه من الأعيان والأقوال والأعمال فلا بركة فيه ، ولا خير فيه ، وكل ما كان قريباً من ذلك ففيه من البركة على حسب قربه منه .

و ضد البركة اللعنة ، فأرض لعنها الله ، أو شخص لعنه الله ، أو عمل لعنه الله أبعد شيء من الخير والبركة ، وكل ما اتصل بذلك وارتبط به وكان منه بسبيل فلا بركة فيه ألبتة ، وقد لعن عدوه إبليس وجعله أبعد خلقه منه ، فكل ما كان من جهته فله من لعنة الله بقدر قربه منه واتصاله به ، فمن ههنا كان للمعاصي أعظم تأثير في محق بركة العمر والرزق والعلم والعمل ، وكل وقت عصيت الله فيه ، أو مال عصي الله به ، أو بدن أو جاه أو علم أو عمل فهو على صاحبه ليس له ، فليس [له من] عمره وماله وقوته وجاهه وعلمه وعمله إلا ما أطاع الله به .

ولهذا فمن الناس من يعيش في هذه الدار مائة سنة أو نحوها ، ويكون عمره لا يبلغ عشر سنين أو نحوها ، كما أن منهم من يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ويكون ماله في الحقيقة لا يبلغ ألف درهم أو نحوها ، وهكذا الجاه والعلم وفي الترمذى عنه صلى الله عليه وسلم : « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله عز وجل وما والاه ، وعالم أو متعلم » .

وفي أثر آخر « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله » فهذا هو الذى فيه البركة خاصة . والله المستعان .

فصل

ومن عقوباتها : أنها تجعل صاحبها من السفلة بعد أن كان مهيباً لأن يكون من العلية ، فإن الله خلق خلقه قسمين : عليّة ، وسفلة ، وجعل عليين مستقر العلية ، وأسفل سافلين مستقر السفلة ، وجعل أهل طاعته الأعلى في الدنيا والآخرة ، وأهل معصيته الأسفلين في الدنيا والآخرة ، كما جعل أهل طاعته أكرم خلقه عليّة ، وأهل معصيته أهون خلقه عليه ، وجعل العزة لهؤلاء والذلة والصغار لهؤلاء ، كما في مسند الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بعثت بالسيف بين يدي الساعة ، وجعل رزقى تحت ظل رمحى ، وجعل الذل والصغار على من خالف أمرى » فكلما عمل العبد معصية نزل إلى أسفل درجة ، ولا يزال في نزول حتى يكون من الأسفلين ، وكلما عمل طاعة ارتفع بها درجة ، ولا يزال في ارتفاع حتى يكون من الأعلىين . وقد يجتمع للعبد في أيام حياته الصعود من وجه والنزول من وجه ، وأيهما كان أغلب عليه كان من أهله ، فليس من صعد مائة درجة ونزل درجة واحدة كمن كان بالعكس .

ولكن يعرض ههنا للنفوس غلط عظيم ، وهو أن العبد قد ينزل نزولاً بعيداً

أبعد مما بين المشرق والمغرب ، ومما بين السماء والأرض : فلا ينفى صعوده ألف درجة بهذا النزول الواحد ، كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن العبد ليتكلم بالكلمة الواحدة لا يلتقي لها بالاً يهوى بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب » .

فأي صعود يوازي هذه المنزلة ؟ والنزول أمر لازم للإنسان ، ولكن من الناس من يكون نزوله إلى غفلة ، فهذا متى استيقظ من غفلته عاد إلى درجته ، أو إلى أرفع منها بحسب يقظته .

ومنهم من يكون نزوله إلى مباح لا ينوى به الاستعانة على الطاعة ، فهذا متى رجع إلى الطاعة فقد يعود إلى درجته ، وقد لا يصل إليها ، وقد يرتفع عنها ، فإنه قد يعود أعلى همة مما كان ، وقد يكون أضعف همة ، وقد تعود همته كما كانت .

ومنهم من يكون نزوله إلى معصية ، إما صغيرة أو كبيرة ، فهذا قد يحتاج في عودة إلى توبة نصوح ، وإنباء صادقة .

واختلف الناس : هل يعود بعد التوبة إلى درجته التي كان فيها ، بناء على أن التوبة تمحو أثر الذنب وتجعل وجوده كعدمه ، فكأنه لم يكن ، أو لا يعود ، بناء على أن التوبة تثيرها في إسقاط العقوبة . وأما الدرجة التي فاتته فإنه لا يصل إليها .

قالوا : وتقرير ذلك أنه كان مستعداً باشتغاله بالطاعة في الزمن الذي عصى فيه لصعود آخر ، وارتقاء تحمله أعماله السالفة بمنزلة كسب الرجل كل يوم بجملة ماله الذي يملكه ، وكلما تضاعف المال تضاعف الربح ، فقد راح عليه في زمن المعصية ارتفاع وربح بجملة أعماله ، فإذا استأنف العمل استأنف صعوداً من نزول ، وكان قبل ذلك صاعداً من أسفل إلى أعلى ، وبينهما بون عظيم .

قالوا : ومثل ذلك مثل رجلين يرتقيان في سلمين لا نهاية لهما ، وهما سواء ، فنزل أحدهما إلى أسفل ، ولو درجة واحدة ، ثم استأنف الصعود ، فإن الذي لم ينزل يعلو عليه ولا بد .

وحكم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بين الطائفتين حكماً مقبولا ، فقال : مثل درجته ، ومنهم من لا يصل إلى درجته .

قلت : وهذا بحسب قوة التوبة وكما لها ، وما أحدثته المعصية للعبد من الذل والخضوع والإنابة ، والحذر والخوف من الله ، والبكاء من خشية الله ، فقد تقوى هذه الأمور ، حتى يعود التائب إلى أرفع من درجته ، ويصير بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة ، فهذا قد تكون الخطيئة في حقه رحمة ، فإنها نفت عنه داء العُجب ، وخلصته من ثقته بنفسه وإدلاله بأعماله ، ووضعت خدّ ضراسته وذُله وانكساره على عتبة باب سيده ومولاه ، وعرفته قدره ، وأشهدته فقره وضرورته إلى حفظ سيده (ومولاه) له ، وإلى عفوه عنه ومغفرته له ، وأخرجت من قلبه صولة الطاعة ، وكسرت أنفه أن يشمخ (أو يتكبر) بها ، أو يرى نفسه بها خيراً من غيره ، وأوقفته بين يدي ربه موقف الخطائين المذنبين ، ناكس الرأس بين يدي ربه ، مستحيياً منه خائفاً وجلّلاً ، محتقراً لطاعته ، مستعظماً لمعصيته ، قد عرف نفسه بالنقص والذم ، وربه متفرد بالكمال والحمد والوفاء .
كما قيل :

استأثر الله بالوفاء وبإلا حمد ، ووَلَّى الملامة الرجال

فأى نعمة وصلت من الله إليه استكثرها على نفسه ، ورأى نفسه دونها ، ولم يرها أهلاً . وأى نقمة أو بلية وصلت إليه رأى نفسه أهلاً لما هو أكبر منها ورأى مولاه قد أحسن إليه ، إذا لم يعاقبه على قدر جرمه ولا شطره ، ولا أدنى جزء منه ، فإن ما يستحقه من العقوبة لا تحمله الجبال الراسيات ، فضلاً عن

هذا المعبد الضعيف العاجز ، فإن الذنب وإن صغر فإن مقابلة العظيم الذى لا شئ أعظم منه ، الكبير الذى لا شئ أكبر منه ، الجليل الذى لا أجل منه ولا أجل ، المنعم بجميع أصناف النعم دقيقها وجليلها - من أقبح الأمور وأفظعها وأشنعها ، فإن مقابلة العظماء والأجلاء وسادات الناس بمثل ذلك يستقبحه كل أحد مؤمن وكافر ، وأرذل الناس وأسقطهم مروءة من قابلهم بالردائل ، فكيف بعظيم السموات والأرض ، وملك السموات والأرض ، وإله السموات والأرض ؟ ولولا أن رحمته غلبت غضبه ، ومغفرته سبقت عقوبته ، وإلا لتكدكت الأرض بمن قابله بما لا يليق بمقابلته به ، ولولا حلمه ومغفرته لزلزلت السموات والأرض من معاصي العباد . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمِصُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ، وَلِئِنَّ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر : ٤١] .

فتأمل ختم هذه الآية باسمين من أسائه وهما « الحليم ، والغفور » كيف تجد تحت ذلك أنه لولا حلمه عن الجناة ومغفرته للعصاة لما استقرت السموات والأرض ؟ .

وقد أخبر سبحانه عن بعض كفر عباده أنه ﴿ تكاد السموات يتفطرن (١) منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ﴾ [مريم : ٩٠] .

وقد أخرج الله سبحانه الأبوين من الجنة بذنب واحد ارتكباه ، وخالف فيه نبيه ، ولعن إبليس وطرده وأخرجه من ملكوت السموات والأرض بذنب (واحد) ارتكبه ، وخالف فيه أمره ، ونحن معاشر الحمقى كما قيل :

نصل الذنوب إلى الذنوب ، ونرتجى درج الجنان لدى النعيم الخالد
ولقد علمنا أخرج الأبوين من ملكوته الأعلى بذنب واحد

والمقصود : أن العبد قد يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبل الخطيئة وأرفع

(١) يتفطرن : يتشققن .

درجة ، وقد تضعف الخطيئة همته وتوهن عزمه ، وتمرض قلبه ، فلا يقوى دواء التوبة إعادته إلى الصحة الأولى ، فلا يعود إلى درجته ، وقد يزول المرض بحيث تعود الصحة كما كانت ويعود إلى مثل عمله ، فيعود إلى درجته .
هذا كله إذا كان نزوله إلى معصية ، فإن كان نزوله إلى أمر يقدر في أصل إيمانه ، مثل الشكوك والريب والنفاق ، فذاك نزول لا يرجى لصاحبه صعود إلا بتجديد إسلامه .

فصل

ومن عقوباتها : أنها تجترئ على العبد من لم يكن يجترئ عليه من أصناف المخلوقات فتجترئ عليه الشياطين بالأذى والإغواء والوسوسة والتخويف والتحزين وإنسانه ما به مصلحته في ذكره ومضرته في نسيانه ، فتجترئ عليه الشياطين حتى تؤزّه إلى معصية الله أزا^(١) ، وتجترئ عليه شياطين الإنس بما تقدر عليه من أذاه في غيبته وحضوره ، ويجترئ عليه أهله وخلده وأولاده وجيرانه حتى الحيوان البهيم .

قال بعض السلف : إني لأعصى الله فأعرف ذلك في خلق امرأتى ودابتي وكذلك يجترئ عليه أولياء الأمر بالعقوبة التي إن عدلوا فيها أقاموا عليه حدود الله ، وتجترئ عليه نفسه فتتأسد عليه وتستضعف عليه ، فلو أرادها لخير لم تطاوعه ولم تنقذ له ، وتسوقه إلى ما فيه هلاكه ، شاء أم أبى ، وذلك أن الطاعة حصن الرب تبارك وتعالى الذي من دخله كان من الآمنين ، فإذا فارق الحصن اجتراً عليه قطاع الطريق وغيرهم ، وعلى حسب اجترائه على معاصي الله يكون اجتراء هذه الآفات والنفوس عليه ، وليس له شيء يرد عنه ، فإن ذكر الله وطاعته ، والصدقة ، وإرشاد المجاهل ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ،

(١) يؤزّه أزا : تدفعه دفعا شديداً .

وقايةُ تردُّ عن العبد ، بمنزلة القوة التي تردُّ المرض وتقاومه فإذا سقطت القوة غلب واراد المرض فكان الهلاك ، فلا بد للعبد من شيء يردُّ عنه ، فإن موجب السيئات والحسنات تتدافع ، ويكون الحكم للغالب كما تقدم ، وكلما قوى جانب الحسنات كان الرد أقوى كما تقدم ، فإن الله يدافع عن الدين آمنوا ، والإيمان قول وعمل ، فيحسب قوة الإيمان يكون الدفع ، والله المستعان .

فصل

ومن عقوباتها : أنها تخون العبد أحوج ما يكون إلى نفسه ، فإن كل أحد يحتاج إلى معرفة ما ينفعه وما يضره في معاشه ومعاده ، وأعلم الناس أعرفهم بذلك على التفصيل ، وأقواهم وأكيسهم من قوى على نفسه وإرادته ، فاستعملها فيما ينفعه وكفها عما يضره ، وفي ذلك تفاوت معارف الناس وهممهم ومنازلهم ، فأعرفهم من كان عارفاً بأسباب السعادة والشقاوة ، وأرشدهم من أثر هذه على هذه ، كما أن أسفهم من عكس الأمر ، والمعاصي تخون العبد أحوج ما كان إلى نفسه في تحصيل هذا العلم ، وإيثار الحظ الأشرف العالى الدائم على الحظ الخسيس الأدنى المنقطع ، فتججبه الذنوب عن كمال هذا العلم ، وعن الاشتغال بما هو أولى به وأنفع له في الدارين ، فإذا وقع في مكروه واحتاج إلى التخلص منه خانه قلبه ونفسه وجوارحه ، وكان بمنزلة رجل معه سيف قد غشيه الصدأ ولزم قرابه بحيث لا ينجذب مع صاحبه إذا جذبته ، فعرض له عدو يريد قتله ، فوضع يده على قائم سيفه واجتهد ليخرجه ، فلم يخرج معه ، فدهمه العدو وظفر به ، كذلك القلب يصدأ بالذنوب ويصير مثخناً بالمرض . فإذا احتاج إلى محاربة العدو لم يجد معه منه شيئاً ، والعبد إنما يحارب ويصاول ويُقَدَّم بقلبه ، والجوارح تبع للقلب ، فإذا لم يكن عند ملكها قوة بها فما الظن بها ؟ .

وكذلك النفس فإنها تخبث بالشهوات والمعاصي وتضعف . أعنى النفس

المطمئنة ، وإن كانت الأمانة تقوى وتتأسد ، وكلما قويت هذه ضعفت تلك :
فيبقى الحكم والتصريف للأمانة ، وربما ماتت نفسه المطمئنة موتاً لا يرتجى معه
حياة ، فهذا ميت في الدنيا . ميت في البرزخ ، غير حي في الآخرة حياة ينتفع
بها ، بل حياته حياة يدرك بها الألم فقط .

والمقصود : أن العبد إذا وقع في شدة أو كربة أو بلية خانته قلبه ولسانه
وجوارحه عما هو أنفع شيء له ، فلا ينجذب قلبه للتوكل على الله تعالى والإنابة
إليه والجمعية عليه ، والتضرع والتذلل والانكسار بين يديه ، ولا يطاوعه لسانه
لذكره ، وإن ذكره بلسانه لم يجمع بين قلبه ولسانه ، فينجس القلب على
اللسان بحيث يؤثر الذكر ، ولا ينجس القلب واللسان على المذکور ، بل إن ذكّر
أو دعا ذكّر بقلب لاه ساه غافل ، ولو أراد من جوارحه أن تعينه بطاعة تدفع
عنه لم تنقذ له ولم تطاوعه ، وهذا كله أثر الذنوب والمعاصي ، كمن له جند
يدفعون عنه الأعداء ، فأهمل جنده وضيعهم وأضعفهم ، وقطع أخبارهم ،
ثم أراد منهم عند هجوم العدو عليه أن يستفرغوا وسعهم في الدفع عنه بغير قوة .
هذا ، وثم أمر أخوف من ذلك وأدهى منه وأمر ، وهو أن يخونه قلبه ولسانه
عند الاحتضار والانتقال إلى الله تعالى ، فرمى تعذر عليه النطق بالشهادة ، كما
شاهد الناس كثيراً من المحتضرين أصابهم ذلك ، حتى قيل لبعضهم : قل
« لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » فقال : آه آه ، لا أستطيع أن أقولها . وقيل لآخر : قل « لَا إِلَهَ
إِلَّا اللَّهُ » . فقال : شاه ، رُخ ، غلبتك ^(١) ثم قضى ، وقيل لآخر : قل « لَا إِلَهَ
إِلَّا اللَّهُ » فقال :

يا رَبُّ قاتلة يوماً ، وقد تعبت : كيف الطريق إلى حمام منجباب ؟
ثم قضى . وقيل لآخر : قل « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » فجعل يهذى بالغناء ، ويقول :

(١) شاه ، ورخ : اسمان لحجرين من أحجار الشطرنج ، لأنه كان في حياته مفتوناً بلعبة .

تاتنا تنتنا ، حتى قضى . وقيل لآخر ذلك ، فقال : ما ينفعنى ما تقول ، ولم أدع معصية إلا ركبته ، ثم قضى ولم يقلها . وقيل لآخر ذلك ، فقال : وما يغنى عني وما أعرف أنى صليت لله صلاة ؟ ولم يقلها . وقيل لآخر ذلك ، فقال : هو كافر بما تقول ، وقضى . وقيل لآخر ذلك ، فقال : كلما أردت أن أقولها ولسانى يمسك عنها ، وأخبرنى من حضر بعض الشحاذين عند موته ، فجعل يقول : لله فلس ، لله ، فلس لله ، حتى قضى . وأخبرنى بعض التجار عن قرابة له أنه احتضر وهو عنده ، وجعلوا يلقنونه « لا إله إلا الله » وهو يقول : هذه القطعة رخيصة ، هذا مشترى جيد ، هذه كذا ، حتى قضى .

وسبحان الله ! كم شاهد الناس من هذا عبراً ؟ والذى يخفى عليهم من أحوال المحتضرين أعظم وأعظم ، فإذا كان العبد فى حال حضور ذهنه وقوته وكمال إدراكه قد تمكن منه الشيطان ، واستعمله فيما يزيد من معاصي الله ، وقد أغفل قلبه عن ذكر الله تعالى ، وعطل لسانه عن ذكره ، وجوارحه عن طاعته ، فكيف الظن به عند سقوط قواه ، واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم النزع ؟ وجمع الشيطان له كل قوته وهيمته ، وحشد عليه بجميع ما يقدر عليه لينال منه فرصته ^(١) فإن ذلك آخر العمل ، فأقوى ما يكون عليه شيطانه ذلك الوقت ، وأضعف ما يكون هو فى تلك الحال ، فمن ترى يسلم على ذلك ؟ فهناك ﴿ يثبتُ الله الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] .

فكيف يوفق بحسن الخاتمة من أغفل الله سبحانه قلبه عن ذكره واتباع هواه ، وكان أمره قُرطاً ؟ فبعد من قلبه من الله تعالى غافل عنه ، متعبد لهواه ، أسير لشهواته ، ولسانه يابس من ذكره ، وجوارحه معطلة من طاعته ، مشغلة بمعصيته ، أن يوفق للخاتمة بالحسنى .

(١) فى نسخة : لينال منه غرضه .

ولقد قطع خوف الخاتمة ظهور المتقين ، وكأن المسيئين الظالمين قد أخذوا
توقيعاً بالأمان ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِالْغَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ لَكُمْ لِمَا تَحْكُمُونَ ؟ ﴾
سَلِّمُوا بِهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ؟ ﴿ [القلم : ٣٩ ، ٤٠] كما قيل :

يا آئنا مع قبح الفعل منه أهل	أناك توقيع آمن أنت تملكه ؟
جمعت شيئين : أمناً ، واتباع هوى	هذا ، وإحداهما في المرء تهلكه
والمحسنون على درب المخاوف قد	ساروا ، وذلك درب لست تسلكه
فرطت في الزرع وقت البذر من سفه	فكيف عند حصاد الناس تدركه ؟
هذا ، وأعجب شيء فيك زهدك في	دار البقاء بعيش سوف تتركه
من السفه إذأ بالله ؟ أنت ، أم لا	مغبون في البيع غبنأسوف تدركه ؟

فصل

ومن عقوباتها : أنها تعمى القلب ، فإن لم نعمه أضعفت بصيرته ولا بد ،
وقد تقدم بيان أنها تضعفه ولا بد ، فإذا عمى القلب وضعف فاته من معرفة
الهدى وقوته على تنفيذه في نفسه وفي غيره بحسب ضعف بصيرته وقوته .
فإن الكمال الإنساني مداره على أصليين : معرفة الحق من الباطل ، وإيثاره
عليه ، وما تفاوتت منازل المخلوق عند الله تعالى في الدنيا والآخرة إلا بقدر تفاوت
منازلهم في هذين الأمرين ، وهما اللذان أثنى الله سبحانه على أنبيائه بهما في قوله
تعالى : ﴿ وَادْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيُحْيَى وَيُحْيَى وَيُحْيَى وَيُحْيَى ﴾ [ص :
٤٥] فالأيدى : القوى في تنفيذ الحق ، والأبصار : البصائر في الدين ، فوصفهم
بكمال إدراك الحق وكمال تنفيذه ، وانقسم الناس في هذا المقام أربعة أقسام ،
فهؤلاء أشرف الأقسام من المخلوق وأكرمهم على الله تعالى .

القسم الثاني : عكس هؤلاء ، من لا بصيرة (له) في الدين ، ولا قوة على

تنفيذ الحق ، وهم أكثر هذا الخلق ، وهم الذين رؤيتهم قذى العيون وحمى الأرواح ، وسقم القلوب ، يضيقون الديار ، ويغنون الأسعار ، ولا يستفاد بصحتهم إلا العار والشنار .

القسم الثالث : من له بصيرة بالحق ومعرفة به ، لكنه ضعيف لا قوة له على تنفيذه ، ولا الدعوة إليه ، وهذا حال المؤمن الضعيف ، والمؤمن القوى خير . وأحب إلى الله منه .

القسم الرابع : من له قوة وهمة وعزيمة ، لكنه ضعيف البصيرة في الدين ، يكاد يميز بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، بل يحسب كل سوداء تبرة ، وكل بيضاء شحمة ، يحسب الورم شحماً ، والدواء النافع سماً .

وليس في هؤلاء من يصلح للإمامة في الدين ، ولا هو موضع لها سوى القسم الأول ، قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ٢٤] فأخبر سبحانه أن بالصبر واليقين نالوا الإمامة في الدين ، وهؤلاء هم الذين استثناهم الله سبحانه من جملة الخاسرين . وأقسم بالعصر - الذى هو زمن سعى الخاسرين والرابعين - على أن من عداهم فهو من الخاسرين ، فقال تعالى : ﴿ وَالْعَصْرُ ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر : ١-٣] ولم يكتف منهم بمعرفة الحق والصبر عليه ، حتى يوصى بعضهم بعضاً به ، ويرشده إليه ، ويخصه عليه .

وإذا كان من عدا هؤلاء خاسراً ، فمعلوم أن المعاصي والذنوب تعمى بصيره القلب فلا يدرك الحق كما ينبغي ، وتضعف قوته وعزمته فلا يصير عليه ، بل قد يتوارد على القلب حتى ينعكس إدراكه كما ينعكس سيره ، فيدرك سيره

فيدرك الباطل حقاً والحق باطلا ، والمعروف منكراً والمنكر معروفاً ، فينتكس في سيره ، ويرجع عن سفره إلى الله والدار الآخرة إلى سفره إلى مستقر النفوس المبجلة ، التي رضيت بالحياة الدنيا ، واطمأنت لها ، وغفلت عن الله وآياته ، وتركت الاستعداد للقائه ، ولو لم يكن في عقوبة الذنوب إلا هذه العقوبة وحدها لكانت داعية إلى تركها والبعد منها ، والله المستعان .

وهذا كما أن الطاعة تنور القلب وتجلوه وتصقله ، وتقويه وتثبتته . حتى يصير كالمرآة المجلوة في جلائها وصفائها فيمتلئ نوراً ، فإذا دنا الشيطان منه أصابه من نوره ما يصيب مسترق السمع من الشهب الثواقب ، فالشيطان يفرق من هذا القلب أشد من فرق الذئب من الأسد ، حتى إن صاحبه ليصرع الشيطان فيخر صريعاً ، فيجتمع عليه الشياطين ، فيقول بعضهم لبعض : ما شأنه ؟ فتقال : أصابه إنسى ، وبه نظرة من الإنس :

فيا نظرة من قلب حرٍّ منورٍ يكاد لها الشيطان بالنور يحرق
أفيستوى هذا القلب وقلب مظلمة أرجاؤه ، مختلفة أهواؤه . قد اتخذها الشيطان وطنه وأعدّه مسكنه ، إذا تصبّح بطلعته حيّاه ، وقال : فديت من قرين لا يفلح في دنياه ولا في أخره ؟ :

قرينك في الدنيا وفي الحشر بعدها فأنت قرين لي بكل مكان
فإن كنت في دار الشقاء ، فلأني وأنت جميعاً في شقاء وهوان
قال الله تعالى : ﴿ ومن يعش^(١) عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ، وإنهم ليصلونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتلون ، حتى إذا جاءنا قال : يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين ، فئس القرين ، ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون ﴾ [الزخرف : ٣٦ : ٣٩] .

(١) يعش - بفتح الياء وسكون العين وضم الشين - أى يعمى فلا يبصر ، والمراد عمى بصيرة .

فأخبر سبحانه أنه من عشا عن ذكره ، وهو كتابه الذى أنزله على رسوله ، فأعرض عنه ، وعمى عنه ، وعشت بصيرته عن فهمه وتدبره ومعرفة مراد الله منه ، قيص الله له شيطاناً ، عقوبة له بإعراضه عن كتابه ، فهو قرينه الذى لا يفارقه فى الإقامة ولا فى السير ، ومولاه وعشيرته الذى هو بثس المولى وبثس العشير .

رضيعاً لبان ثدى أم ، تقاسما بأسحم داج عوض ، لا يتفرق
ثم أخبر سبحانه أن الشيطان يصد قرينه ووليه عن سبيله الموصل إليه وإلى جنته ، ويحسب هذا الضال المصدود أنه على طريق هدى ، حتى إذا جاء القرينان يوم القيامة يقول أحدهما للآخر : يا ليت بينى وبينك بُعد المشرقين ، فبثس القرين كنت لى فى الدنيا ، أضللتنى عن الهدى بعد إذ جاءنى ، وصددتنى عن الحق وأغويتنى ، حتى هلكت ، وبثس القرين أنت لى اليوم .

ولما كان المصاب إذا شاركه غيره فى مصيبتة حصل (له) بالتأسى نوع تخفيف وتسلية ، أخبر الله سبحانه أن هذا غير موجود وغير حاصل فى حق المشتركين فى العذاب ، وأن القرين لا يجد راحة ولا أذى فرح بعذاب قرينه معه وإن كانت المصائب فى الدنيا إذا عمت صارت مسلاة ، كما قالت الخنساء فى أخيها صخر :

فلولا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلت نفسى
وما يبيكون مثل أخى ، ولكن أعزى النفس عنه بالتأسى
فمنع الله سبحانه هذا القدر من الراحة على أهل النار فقال : ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ ، أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ .

فصل

ومن عقوباتها : أنها مدد من الإنسان يمد به علوه عليه ، وجيش يقويه به على حربه ، وذلك أن الله سبحانه أبطل هذا الإنسان بعلو لا يفارقه طرفه عين ، ولا ينأى عنه . ولا يغفل عنه ، يراه هو وقبيله من حيث لا يراه يبذل جهده في معاداته في كل حال ، ولا يدع أمراً يكيد به يقدر على إيصاله إليه إلا أوصله إليه ، ويستعين عليه ببنى جنسه من شياطين الجن ، وغيرهم من شياطين الإنس : فقد نصب له الجبائل ، وبغى له الغوائل ، ومدحوله الأشرار ، ونصب له الفخاخ والشباك ، وقال لأعدائه : دونكم عدوكم وعلو أبيكم لا يفونكم ، ولا يكون حظهم الجنة وحظكم النار ، ونصيبه الرحمة ونصيبكم اللعنة ، وقد علمتم أن ما جرى على وعليكم من الخزي واللعن والإبعاد من رحمة الله بسببه ومن أجله ، فابذلوا جهدكم أن تكونوا شركائنا في هذه البلية ، إذ فانتنا شركة صالحهم في الجنة ، وقد أعلمنا الله سبحانه بذلك كله من عدونا ، وأمرنا أن نأخذ له أهبته ، ونعد له عدته .

ولما علم سبحانه أن آدم وبنيه قد بلوا بهذا العلو وأنه قد سُلط عليهم أمدتهم بعساكر وجند يلقونه بها ، وأمدّ عدوهم أيضاً بجند وعساكر يلقاهم بها ، وأقام سوق الجهاد في هذه الدار في مدة العمر ، التي هي بالإضافة إلى الآخرة كنفس واحد من أنفاسها ، واشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله ، فيقتلون ويُقتلون ، وأخبر أن ذلك وعد مؤكد عليه في أشرف كتبه ، وهي التوراة والإنجيل والقرآن ، وأخبر أنه لا أوفى بعهده منه سبحانه ، ثم أمرهم أن يستبشروا بهذه الصفقة التي من أراد أن يعرف قدرها فليُنظر إلى المشتري من هو ؟ وإلى الثمن المبذول في هذه السلعة ، وإلى من جرى على يديه هذا العقد ، فأى فوز أعظم من هذا ؟ وأى تجارة أربح منه ؟ .

ثم أكد سبحانه هذا الأمر بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ؟ تُوْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَرَسُوْلِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيْلِ اللّٰهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ، نَصْرٌ مِنَ اللّٰهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصّف : ١٠ - ١٣] . ولم يسلط هذا العدو على عبده المؤمن الذي هو أحب أنواع المخلوقات إليه ، إلا لأنّ الجهاد أحب شيء إليه ، وأهله أرفع الخلق عنده درجات ، وأقربهم إليه وسيلة ، فعقد سبحانه لواء هذه الحرب لخلاصة مخلوقاته ، وهو القلب الذي هو محل معرفته ، ومحبته ، وعبوديته ، والإخلاص له ، والتوكل عليه ، والإنابة إليه ، فولاه أمر هذا الحرب ، وأيده بجند من الملائكة لا يفارقونه : ﴿ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّٰهِ ﴾ [الرعد : ١١] يعقب بعضهم بعضاً ، كلما ذهب بدل جاء بدل آخر ، يثبتونه ، ويأمرونه بالخير ، ويحضونه عليه ، ويعلمونه بكرامة الله ويصيرونه ، ويقولون : إنما هو صبر ساعة ، وقد استرحت راحة الأبد .

ثم أمدّه سبحانه بجند آخر من وحيه وكلامه . فأرسل إليه رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأنزل إليه كتابه ، فازداد قوة إلى قوته ، ومدداً إلى مدده ، وعدة إلى عدته ، وأيده مع ذلك بالعقل وزيراً له ومدبراً . وبالمعرفة مشيرة عليه ناصحة له ، وبالإيمان مثبتاً له ومؤيداً وناصرأ ، وباليقين كاشفاً له عن حقيقة الأمر ، حتى كأنه يعاين ما وعد الله تعالى به أوليائه وحزبه على جهاد أعدائه ، فالعقل يدبر أمر جيشه ، والمعرفة تصنع له أمور الحرب وأسبابها ومواضعها اللاتقة بها . والإيمان يثبت به ويقويه ويصبره ، واليقين يقدم به ويحمل به الحملات الصادقة . ثم أمدّ سبحانه القائم بهذا الحرب بالقوى الظاهرة والباطنة ، فجعل العين

طليعته ، والأذن صاحب خبره ، واللسان ترجمانه ، واليدين والرجلين أعوانه ، وأقام ملائكته وحملة عرشه يستغفرون له ، ويسألون له أن يقيه السيئات ويدخله الجنات ، وتولى سبحانه الدفع والدفاع عنه بنفسه ، وقال : هؤلاء حزبي وحزب الله هم المفلحون ، قال الله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة : ٢٢] هؤلاء جندي ﴿ وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِيُونَ ﴾ ، [الصافات : ١٧٣] .

وعلم سبحانه عباده كيفية هذا الحرب والجهاد . فجمعها لهم في أربع كلمات فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] ولا يتم أمر هذا الجهاد إلا بهذه الأمور الأربعة ، فلا يتم له الصبر إلا بمصابرة العدو ، وهي مقاومته ومنازلته ، فإذا صابر عدوه احتاج إلى أمر آخر وهو المراقبة ، وهي لزوم ثغر القلب وحراسته لئلا يدخل معه العدو ، ولزوم ثغر العين والأذن واللسان والبطن واليد والرجل ، فهذه الثغور منها يدخل العدو فيجوس خلال الديار ويفسد ما قدر عليه ، فالمراقبة لزوم هذه الثغور ، ولا يخلى مكانها فيصادف العدو الثغر خالياً فيدخل منه .

فهؤلاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الخلق بعد النبيين والمرسلين ، وأعظمهم حماية وحراسة من الشيطان ، وقد أدخلوا المكان الذي أمروا بلزومه يوم أحد ، فدخل منه العدو ، فكان ما كان .

وجماع هذه الثلاثة وعمودها الذي تقوم به هو تقوى الله تعالى ، فلا ينفع الصبر ولا المصابرة ولا المراقبة إلا بالتقوى ، ولا تقوم التقوى إلا على ساق الصبر .

فانظر الآن فيك إلى التقاء الجيشين ، واصطدام العسكرين ، وكيف تدال مرة ويدال عليك مرة أخرى ؟ أقبل ملك الكفرة وعساكره ، فوجد القلب في

حصنه جالساً على كرسى مملكته ، أمره نافذ في أعوانه ، وجنده قد حضوا به :
يقاتلون عنه ويدافعون عن حوزته ، فلم يمكنه الهجوم عليه إلا بمخامرة^(١) بعض
أمرائه وجنده عليه ، فسأل عن أخص الجند به وأقربهم منه منزلة ، ف قيل له :
هى النفس ، فقال لأعوانه : ادخلوا عليها من مرادها ، وانظروا مواقع محبتها
وما هو محبوبها ، فعبدوها به ، ومنوها إياه ، وانقشوا صورة المحبوب فيها فى
يقتظنها ومنامها ، فإذا اطمأننت إليه سكنت ، عنده فاطرحوا عليها كلاليب
الشهوة وخطايفها ، ثم جروها بها إليكم ، فإذا خامرت على القلب وصارت معكم
عليه ملككم ثغور العين والأذن واللسان والقم واليد والرجل ، فرابطوا على هذه
الثغور كل المراقبة ، فمتى دخلتم منها إلى القلب فهو قتيل أو أسير ، أو جريح
مثنى بالجراحات ، ولا تدخلوا هذه الثغور ، ولا تمكنوا سرية تدخل فيها إلى
القلب فتخرجكم منها ، وإن غلبتم فاجتهدوا فى إضعاف السرية ووهنها ، حتى
لا تصل إلى القلب ، وإن وصلت إليه وصلت ضعيفة لا تغنى عنه شيئاً ، فإذا
استوليت على هذه الثغور فامنعوا ثغر العين أن يكون نظره اعتباراً ، بل اجعلوا
نظره تفرجاً واستحساناً وتلهياً ، فإن استرق نظرة عبدة فأفسدوها عليه بنظرة
الغفلة والاستحسان والشهوة ، فإنه أقرب إليه ، وأعلق بنفسه ، وأخف عليه ،
ودونكم ثغر العين ، فإن منه تنالون بغيتكم ، فإنى ما أفسدت بنى آدم بشيء مثل
النظر ، فإنى أبذر به فى القلب بذرة الشهوة ، ثم أسقيه بماء الأمنية ، ثم لا أزال
أعده وأمنيه حتى أقوى عزيمته ، وأقوده بزمام الشهوة إلى الانخلاع من العصمة ،
فلا تهملوا أمر هذا الثغر ، وأفسدوه بحسب استطاعتكم ، وهونوا عليه أمره ،
وقولوا له : مقدار نظرة تدعوك إلى تسبيح الخالق ، والتأمل لبديع صنيعه ،
وحسن هذه الصورة التى إنما خلقت ليستدل بها الناظر عليه ، وما خلق الله لك

(١) المخامرة : النفس والمخادعة من تظنه معك .

العينين سُدى ، وما خلق هذه الصورة ليحجبها عن النظر . وإن ظفرتم به قليل العلم فاسد العقل ، فقولوا له : هذه (انصورة) مظهر من مظاهر الحق ومجلى من مجاليه ، فادعوه إلى القول بالانحاد . فإن لم يقبل فالحلول العام أو الخاص ولا تقنعوا منه بدون ذلك . فإنه يصير به من إخوان النصارى ، فمروه حينئذ بالعفة والصيانة ، والعبادة والزهد فى الدنيا ، واصطادوا عليه (وبه الجهال ، فهذا من أكبر خلفائى وأكبر جندى ، بل أنا من جنده وأعوانه .

فصل

ثم امنعوا ثغر الأذن أن يدخل منه ما يفسد عليكم الأمر . فاجتهدوا أن لا تدخلوا منه إلا الباطل ، فإنه خفيف على النفس ، تستحليه وتستحسنه ، تخيروا له أعذب الألفاظ وأسحرها للألباب ، وامزجوه بما تهوى النفس مزجاً ، وألقوا الكلمة ، فإن رأيتم منه إصغاء إليها فزجوه^(١) بأخواتها ، وكلما صادفتم منه استحسان شيء فاهيجوا له بذكره ، وإياكم أن يدخل من هذا الثغر شيء من كلام الله أو كلام رسوله صلى الله عليه وسلم أو كلام النصحاء ، فإن غلبتم على ذلك ودخل من ذلك شيء فحولوا بينه وبين فهمه وتدبره والتفكير فيه والعظة به ، إما بإدخال ضده عليه ، وإما بتحويل ذلك وتعظيمه ، وأن هذا أمر قد حيل بين النفوس وبينه فلا سبيل لها إليه ، وهو حمل يثقل عليها لا تستقل به ونحو ذلك ، وإما بإلحاح على النفوس وأن الاشتغال ينبغى أن يكون بما هو أغلى عند الناس ، وأعز عليهم ، وأغرب عندهم ، وزبونه القائلون له أكثر ، وأما الحق فهو مهجور ، وقائله معرض نفسه للعداوة ، والرابع بين الناس أولى بالإيثار ونحو ذلك ، فتدخلون الباطل عليه فى كل قالب يقبله ويخف عليه ، وتخرجون له الحق فى كل قالب يكرهه ويثقل عليه .

(١) فى نسخة : فامزجوه بأخواتها .

وإذا شئت أن تعرف ذلك فانظر إلى إخوانهم من شياطين الإنس ، كيف يخرجون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب كثرة الفضول ، وتتبع عثرات الناس ، والتعرض من البلاء لما لا يطيق ، وإلقاء الفتن بين الناس ، ونحو ذلك ، ويخرجون أتباع السنة ووصف الرب تعالى بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم في قالب التجسيم والتشبيه والتكليف ، ويسمون علو الله على خلقه واستواءه على عرشه ومباينته لمخلوقاته تحيزاً ، ويسمون نزوله إلى سماء الدنيا وقوله : « من يسألني فأعطيه » تحركاً وانتقالاً ، ويسمون ما وصف به نفسه من اليد والوجه أعضاء وجوارح ، ويسمون ما يقوم به من أفعاله حوادث ، وما يقوم به من صفاته أعراضاً ، ثم يتوصلون إلى نفي ما وصف به نفسه بنفي هذه الأمور ، ويوهمون الأغمار^(١) وضعفاء البصائر أن إثبات الصفات التي نطق بها كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم تستلزم هذه الأمور ، ويخرجون هذا التعطيل في قالب التنزيه والتعظيم ، وأكثر الناس ضعفاء العقول يقبلون الشيء بلفظه ، ويردونه بعينه بلفظ آخر ، قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام : ١١٢] فساه زخرفاً ، وهو باطل . لأن صاحبه يزخرفه ويزينه ما استطاع ، ويلقيه إلى سمع المغرور ، فيغتر به .

والمقصود : أن الشيطان قد لزم ثغر الأذن أن يدخل فيها ما يضر العبد ولا ينفعه ، ويمنع أن يدخل إليها ما ينفعه ، وإن دخل بغير اختياره أفسده عليه

فصل

ثم يقول : قوموا على ثغر اللسان ، فإنه الثغر الأعظم ، وهو قبالة الملك ، فأجروا عليه من الكلام ما يضره ولا ينفعه ، وامنعوه أن يجرى عليه شيء مما

(١) الأغمار ، جمع غمر : السريع الانخداع ، ومن لا تجربة له .

ينفعه ، من ذكر الله تعالى ، واستغفاره ، وتلاوة كتابه ، ونصيحة عباده ،
والتكلم بالعلم النافع ، ويكون لكم في هذا الثغر أمران عظيمان ، لا تبالون بأيهما
ظفرتم :

أحدهما : التكلم بالباطل ، فإن المتكلم بالباطل أخ من إخوانكم ومن أكبر
جندكم وأعوانكم .

والثاني : السكوت عن الحق ، فإن الساكت عن الحق أخ لكم أخرس ، كما
أن الأول أخ ناطق ، وربما كان الأخ الثاني أنفع أخويكم لكم ، أما سمعتم قول
الناصح « المتكلم بالباطل شيطان ناطق ، والساكت عن الحق شيطان أخرس » .
فالرباط الرباط على هذا الثغر أن يتكلم بحق أو يمسك عن الباطل ، وزينوا له
التكلم بالباطل بكل طريق ، وخوفوه من التكلم بالحق بكل طريق .

واعلموا يابني أن ثغر اللسان هو الذي أهلك منه بني آدم وأكبهم منه على
مناخرهم في النار فكم لي من قتيل وأسير وجريح أخذته من هذا الثغر ؟ .

وأوصيكم بوصية فاحفظوها : لينطق أحدكم على لسان أخيه من الإنس
بالكلمة ، ويكون الآخر على لسان السامع ، فينطق باستحسانها وتعظيمها والتعجب
منها ، ويطلب من أخيه إعادتها ، وكونوا أعواناً على الإنس بكل طريق ، وادخلوا
عليهم من كل باب ، واقعدوا لهم كل مرصد . أما سمعتم قسَمِي الذي أقسمت به
لربهم حيث قلت : ﴿ فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ، ثُمَّ لَا يَنبَغِي لَهُمْ
مِنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ، وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ
شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٦ ، ١٧] أو ما ترونني قد قعدت لابن آدم بطرقه كلها ،
فلا يفوتني من طريق إلا قعدت له بطريق غيره ، حتى أصيب منه حاجتي أو
بعضها ؟ وقد حذرهم ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لهم : « إن الشيطان
قد قعد لابن آدم بطرقه كلها ، وقعد له بطريق الإسلام ، فقال : أتسلم وتذر

دينك ودين آبائك ؟ فخالفه وأسلم ، فقعد له بطريق الهجرة ، فقال : أتهاجر وتذر أرضك وسماك ؟ فخالفه وهاجر ، فقعد له بطريق الجهاد ، فقال : أتجاهد فتقتل فيقسم المال وتنكح الزوجة ؟ . فهكذا فاقعدوا لهم بكل طرق الخير ، فإذا أراد أحدهم أن يتصدق فاقعدوا له على طريق الصدقة ، وقولوا له في نفسه : أخرج المال فتبقى مثل هذا السائل ، وتصير بمنزلته أنت سواء ؟ أو ما سمعتم ما ألقيت على لسان رجل سأل آخر أن يتصدق عليه ، فقال : هي أموالنا إن أعطيناكموها صرنا مثلكم ، واقعدوا له بطريق الحج ، فقولوا : طريقه مخوفة مشقة ، يتعرض سالكها لتلف النفس والمال ، وهكذا فاقعدوا على سائر طرق الخير بالتنفير عنها وذكر صعوبتها وآفاتنا ، ثم اقعدوا لهم على طرق المعاصي فحسنوها في أعين بني آدم ، وزينوها في قلوبهم ، واجعلوا أكثر أعوانكم على ذلك النساء ، فمن أبوابهن فادخلوا عليهم ، فنعم العون هن لكم .

ثم الزموا ثغر اليدين والرجلين ، فامنعوها أن تبطش بما يضركم وتمشي فيه . واعلموا أن أكثر أعوانكم على لزوم هذه الثغور مصالحة النفس الأمارة : فأعينوها واستعينوا بها ، وأملدوها واستمدوا منها ، وكونوا معها على حرب النفس المطمئنة ، فاجتهدوا في كسرها وإبطال قواها ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بقطع موادها عنها ، فإذا انقطعت موادها وقويت مواد النفس الأمارة ، وانطاعت لكم أعوانها فاستنزلوا القلب من حصنه ، واعزلوه عن مملكته ، وولوا مكانه النفس الأمارة ، فإنها لا تأمر إلا بما تهوونه وتحبونه ، ولا تجيئكم بما تكرهونه ألبتة ، مع أنها لا تخالفكم في شيء تشيرون به عليها ، بل إذا أشرتكم عليها بشيء بادرت إلى فعله ، فإن أحسستم من القلب منازعة إلى مملكته ، وأردتم الأمن من ذلك فاقعدوا بينه وبين النفس عقد النكاح ، فزينوها وجملوها ، وأروها إياه في أحسن صورة عروس توجد ، وقولوا له : ذُقْ طعم هذا الوصال ، والتمتع بهذه

العروس ، كما ذقت طعم الحرب وباشرت مرارة الطعن والضرب ، ثم وازن بين لذة هذه المسألة ومرارة تلك المحاربة ، فدع الحرب تضع أوزارها ، فليست بيوم وتنقضى ، وإنما هو حرب متصل بالموت ، وقواك تضعف عن حرب دائم .

واستعينوا يا بنى بجندين عظيمين لن تغلبوا معهما :

أحدهما :- جند الغفلة ، فأغفلوا قلوب بنى آدم عن الله تعالى والدار الآخرة بكل طريق ، فليس لكم شيء أبلغ في تحصيل غرضك من ذلك ، فإن القلب إذا غفل عن الله تعالى تمكنت منه ومن إغوائه .

والثاني : جند الشهوات ، فزينوها في قلوبهم ، وحسنوها في أعينهم ، وصولوا عليهم بهذين العسكرين ، فليس لكم من بنى آدم أبلغ منهما ، واستعينوا على الغفلة بالشهوات ، وعلى الشهوات بالغفلة واقرنوا بين الغافلين ، ثم استعينوا بهما على الذاكر ، ولا يغلب واحد خمسة ، فإن مع الغافلين شيطانين صاروا أربعة وشيطان الذاكر معهم ، وإذا رأيتم جماعة مجتمعين على ما يضركم - من ذكر الله أو مذاكرة أمره ونهيه ودينه ، ولم تقدروا على تفريقهم - فاستعينوا عليهم ببني جنسهم من الإنس الباطلين ، فقريوهم منهم ، وشوشوا عليهم بهم

وبالجملة فأعدوا للأمر أقرانها ، وأدخلوا على كل واحد من بنى آدم من باب إرادته وشهوته ، فساعده عليها ، وكونوا أعواناً له على تحصيلها ، وإذا كان الله قد أمرهم أن يصبروا لكم ، ويصابروكم ، ويرابطوا عليكم الثغور ، فاصبروا أنتم وصابروا وربطوا عليهم بالثغور ، وانتهزوا فرصكم فيهم عند الشهوة والغضب ، فلا تصطادون بنى آدم في أعظم من هذين الموطنين

واعلموا أن منهم من يكون سلطان الشهوة عليه أغلب وسلطان غضبه ضعيف مفسور ، فخلوا عليه طريق الشهوة ، ودعوا طريق الغضب ، ومنهم من يكون سلطان الغضب عليه أغلب ، فلا تخلوا طريق الشهوة قلبه ، ولا تعطوا ثغرها

فإن من لم يملك نفسه عند الغضب فإنه بالحرى أن لا يملك نفسه عند الشهوة ، فزوجوا بين غضبه وشهوته ، وامزجوا أحدهما بالآخر ، وادعوه إلى الشهوة من باب الغضب ، وإلى الغضب من طريق الشهوة .

واعلموا أنه ليس لكم في بنى آدم سلاح أبلغ من هذين السلاحين ، وإنما أخرجت أبويهم من الجنة بالشهوة ، وإنما القيت العداوة بين أولادهم بالغضب ، فبه قطعت أرحامهم وسفكت دماؤهم ، وبه قتل أحد ابني آدم أخاه .

واعلموا أن الغضب جمره في قلب ابن آدم ، والشهوة نار تثور من قلبه ، وإنما تطفأ النار بالماء والصلاة والذكر والتكبير ، فإياكم أن تمكثوا ابن آدم عند غضبه وشهوته من قربان الوضوء والصلاة ، فإن ذلك يطفئ عنهم نار الغضب والشهوة ، وقد أمرهم نبيهم بذلك ، فقال : « إن الغضب جمره في قلب ابن آدم ، أما رأيتم (من) احمرار عينيه ، وانتفاخ أوداجه ؟ فمن أحس بذلك فليتوضأ » . وقال لهم : « إنما تطفأ النار بالماء » . وقد أوصاهم الله أن يستعينوا عليكم بالصبر والصلاة ، فحولوا بينهم وبين ذلك ، وأنسوهم إياه ، واستعينوا عليهم بالشهوة والغضب ، وأبلغ أسلحتكم فيهم وأنكاها : الغفلة ، واتباع الهوى . وأعظم أسلحتهم فيكم وأمنع حصونهم : ذكر الله ، ومخالفة الهوى . فإذا رأيتم الرجل محالفاً لهواه فاهربوا من ظله ، ولا تدنوا منه .

والمقصود أن الذنوب والمعاصي سلاح ومدد يمد بها العبد أعداءه ، ويعينهم بها على نفسه ، فيقاتلونه بسلاحه ، ويكون معهم على نفسه ، وهذا غاية الجهل .

ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه ومن العجب أن العبد يسعى بجهد في هوان نفسه ، وهو يزعم أنه لها مكرم ، ويجتهد في حرمانها أعلى حظوظها وأشرفها ، وهو يزعم أنه يسعى في حفظها ، ويبذل جهده في تحقيقها وتصغيرها وتلسيستها ، وهو يزعم أنه يعليها ويرفعها ويكبرها .

وكان بعض السلف يقول في خطبته : أَلَا رَبُّ مَهِينٍ لِنَفْسِهِ وَهُوَ يَزْعِمُ أَنَّهُ لَهَا
مَكْرَمٌ ، وَمُذَلِّ لِنَفْسِهِ وَهُوَ يَزْعِمُ أَنَّهُ لَهَا مُعَزٌّ ، وَمَصْغَرٌ لِنَفْسِهِ وَهُوَ يَزْعِمُ أَنَّهُ لَهَا
مَكْبَرٌ ، وَمَضْبِيعٌ لِنَفْسِهِ وَهُوَ يَزْعِمُ أَنَّهُ مَرَاعٌ لِحَفْظِهَا^(١) ؟ وَكُنِيَ بِالْمَرْءِ جَهْلًا أَنْ يَكُونَ
مَعَ عَدُوٍّ عَلَى نَفْسِهِ ، يَبْلُغُ مِنْهَا بِفَعْلِهِ مَا لَمْ يَبْلُغْ مِنْهُ عَدُوُّهُ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ .

فصل

وَمِنْ عَقُوبَاتِهَا : أَنَّهَا تَنْسَى الْعَبْدَ نَفْسَهُ ، وَإِذَا نَسِيَ نَفْسَهُ أَهْمَلَهَا وَأَفْسَدَهَا
وَأَهْلَكَهَا .

فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ يَنْسَى الْعَبْدَ نَفْسَهُ ؟ وَإِذَا نَسِيَ نَفْسَهُ فَأَيُّ شَيْءٍ يَذْكُرُ ؟
وَمَا مَعْنَى نَسْيَانِهِ نَفْسَهُ ؟ .

قِيلَ : نَعَمْ يَنْسَى نَفْسَهُ أَعْظَمَ نَسْيَانٍ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ
نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ، أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الحشر : ١٩] فَلَمَّا نَسُوا
رَبَّهُمْ سَبَحَانَهُ نَسِيَهُمْ وَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾
[التوبة : ٦٧] فَعَاقِبَ سَبْحَانَهُ مِنْ نَسْيِهِ عَقُوبَتَيْنِ :

إِحْدَاهُمَا : أَنَّهُ سَبَحَانَهُ نَسِيَهُ ، وَالثَّانِيَةُ : أَنَّهُ أَنْسَاهُ نَفْسَهُ .

وَنَسْيَانُهُ سَبْحَانَهُ لِلْعَبْدِ إِهْمَالُهُ وَتَرْكُهُ وَتَخْلِيهِ عَنْهُ وَإِضَاعَتُهُ ، فَالْهَلَاكُ أَذْنَى
إِلَيْهِ مِنَ الْيَدِ لِلْقَمِ ، وَأَمَّا إِهْمَالُهُ نَفْسَهُ فَهُوَ إِهْمَالُهُ لِحَفْظِهَا الْعَالِيَةِ ، وَأَسْبَابُ
سَعَادَتِهَا وَفَلَاحِهَا وَصَلَاحِهَا وَمَا تَكْمُلُ بِهِ ، يَنْسِيهِ ذَلِكَ جَمِيعَهُ ، فَلَا يُحَاطِرُهُ
بِبَالِهِ ، وَلَا يَجْعَلُهُ عَلَى ذِكْرِهِ ، وَلَا يَصْرِفُ إِلَيْهِ هِمَّتَهُ فَيَرْغَبُ فِيهِ ، فَإِنَّهُ لَا يَمُرُّ
بِبَالِهِ حَتَّى يَقْصِدَهُ وَيُؤْثِرَهُ .

وَأَيْضًا فَيَنْسِيهِ عِيُوبَ نَفْسِهِ وَنَقْصَهَا وَأَقَاتَهَا ، فَلَا يَخْطُرُ بِبَالِهِ إِزَالَتُهَا .

(١) فِي نَسْخَةِ : لِحَقْهَا .

وأيضاً ينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها ، فلا يخطر بقلبه مداواتها ، ولا السعى في إزالة عللها وأمراضها التي تؤول به إلى الفساد والهلاك ، فهو مريض مشغن بالمرض ، ومرضه مترام به إلى التلف ، ولا يشعر بمرضه ، ولا يخطر بباله مداواته ، وهذا من أعظم العقوبة العامة والخاصة .

ينشأ عقوبة أعظم من عقوبة من أهمل نفسه وضيعها ، ونسى مصالحها وداءها ودوائها ، وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها وحياتها الأبدية في (١) النعيم المقيم ؟ ومن تأمل هذا الموضع تبين له أن أكثر هذا الخلق قد نسوا أنفسهم حقيقة وضيعوها وأضاعوا حظها من الله ، وباعوها رخيصة بثمن بخس بيع الغبن ، وإنما يظهر لهم هذا عند الموت ، ويظهر هذا كل الظهور يوم التغابن ، يوم يظهر للعبد أنه غبن في العقد الذي عقده لنفسه في هذه الدار ، والتجارة التي اتجر فيها لمعاده ، فإن كل أحد يتجر في هذه الدنيا لآخرته .

الخاسرون الذين يعتقدون أنهم أهل الربح والكسب اشتروا الحياة الدنيا رخصاً فيها ، ولذاتهم بالآخرة وحظهم فيها ، فأذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا واستمتعوا بها ، ورضوا بها ، واطمأنوا إليها ، وكان سعيهم لتحصيلها ، فباعوا واشتروا واتجروا وباعوا آجلاً بعاجل ، ونسئته بنقد ، وغائباً بناجز ، وقالوا : هذا هو الحزم ، ويقول أحدهم :

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به

فكيف أبيع حاضراً نقداً مشاهداً في هذه الدار بغائب نسيئة في دار أخرى غير هذه ؟ ويضم إلى ذلك ضعف الإيمان ، وقوة داعي الشهوة ، ومجبة العاجلة والتشبه ببنى الجنس ، فأكثر الخلق في هذه التجارة الخاسرة التي قال الله سبحانه في أهلها ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ، فلا يخفف عنهم

(١) في نسخة : من النعيم المقيم .

العذاب ، ولا هم ينصرون ﴿ ٨٦ ﴾ . وقال فيهم : ﴿ فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾ . [البقرة : ١٦] . فإذا كان يوم التغابن ظهر لهم الغبن في هذه التجارة ، فتنقطع عليها النفوس حسرات .

وأما الرابحون فإنهم باعوا فانياً بباق ، وخسيساً بنفيس ، وحقيقاً بعظيم وقالوا : ما مقدار هذه الدنيا من أولها إلى آخرها ، حتى نبيع حظنا من الله تعالى والدار الآخرة بها ؟ فكيف بما ينال العبد منها في هذا الزمن القصير الذي هو في الحقيقة كغفوة حلم ، لا نسبة له إلى دار القرار ألبتة ، قال تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم ﴾ [يونس : ٤٥] . وقال تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ؟ فيم أنت من ذكراها ؟ إلى ربك منتهاها ، إنما أنت منذر من يخشاها ، كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ [النازعات : ٤٢ - ٤٦] وقال تعالى : ﴿ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ، بلاغ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] . وقال تعالى : ﴿ قال : كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم ، فاسأل العادين ، قال : إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون ﴾ [المؤمنون ١١٢ - ١١٤] . وقال تعالى : ﴿ يوم يُنفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زُرْقاً يتخافتون بينهم ، إن لبثتم إلا عشراً ، نحن أعلم بما يقولون ، إذ يقول أمثلهم طريقة : إن لبثتم إلا يوماً ﴾ [طه : ١٠٢ - ١٠٤] فهذه حقيقة هذه الدنيا عند موافاة يوم القيامة ، فلما علموا قلة لبثهم فيها ، وأن لهم داراً غير هذه الدار ، هي دار الحيوان ودار البقاء - رأوا من أعظم الغبن بيع دار البقاء بدار الفناء ، فاتجروا نجارة الأكياس ، ولم يغتروا بتجارة السفهاء من الناس ، فظهر لهم يوم التغابن ربح تجارتهم ومقدار ما اشتروه ، وكل أحد في هذه الدنيا بائع غير مشتر متجر . وكل الناس يغلو فبائع نفسه ، فمعتقها أو موبقها ﴿ إن الله

اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله ، فيقتلون ويقتلون ، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم ﴿ [التوبة : ١١١] .

فهذا أول نقد من ثمن هذه التجارة ، فتاجروا أيها المفلسون ، ويا من لا يقدر على هذا الثمن هاهنا ثمن آخر ، فإن كنت من أهل هذه التجارة فأعط هذا الثمن ﴿ التائبون ، العابدون ، الحامدون ، السائحون ، الراكعون ، الساجدون ، الآمرون بالمعروف ، والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود الله ، وبشر المؤمنين ﴾ [التوبة : ١١٢] . ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ [الصف : ١٠ ، ١١] .

والمقصود : أن الذنوب تنسى العبد حظه من هذه التجارة الرباحة ، وتشغله بالتجارة الخاسرة ، وكفى بذلك عقوبة ، والله المستعان .

فصل

ومن عقوباتها : أنها تزيل النعم الحاضرة : وتقطع النعم الواصلة ، فتزيل الحاصل ، وتمنع الواصل ، فإن نعم الله ما حفظ موجودها بمثل طاعته ، ولا استجلب مفقودها بمثل طاعته ، فإن ما عنده لا ينال إلا بطاعته ، وقد جعل الله سبحانه لكل شيء سبباً وآفة : سبباً يجلبه ، وآفة تبطله ، فجعل أسباب نعمه الجالبة لها طاعته ، وآفات المانعة منها معصيته ، فإذا أراد حفظ نعمته على عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها ، وإذا أراد زوالها عنه خذله حتى عصاه بها .
ومن العجيب علم العبد بذلك مشاهدة في نفسه وغيره ، وسامعاً لما غاب عنه من أخبار من أزيلت نعم الله عنهم بمعاصيه ، وهو مقيم على معصية الله ، كأنه

مستثنى من هذه الجملة (أو) مخصوص من هذا العموم ، وكان هذا أمر جار على الناس لا عليه ، وواصل إلى الخلق لا إليه .
فأى جهل أبلغ من هذا ؟ وأى ظلم للنفس فوق هذا ؟ فالحكم لله العلي الكبير .

فصل

ومن عقوباتها : أنها تباعد عن العبد وليه ، وأنفع الخلق له ، وأنصحهم له ، ومن سعادته في قربه منه : وهو الملك الموكل به ، وتلقى منه علوه ، وأغش الخلق له ، وأعظمهم ضرراً له : وهو الشيطان ، فإن العبد إذا عصى الله تباعد منه الملك بقدر تلك المعصية ، حتى إنه يتباعد عنه بالكلية الواحدة مسافة بعيدة .
وفي بعض الآثار « إذا كلب العبد تباعد منه الملك ميلاً من نثن ربحه » .
فإذا كان هذا تباعد الملك منه من كلبة واحدة ، فماذا يكون مقدار بعده منه مما هو أكبر من ذلك ، وأفحش منه ؟ .

وقال بعض السلف : إذا ركب الذكر الذكر عجت الأرض إلى الله ، وهربت الملائكة إلى ربها ، وشكت إليه عظيم ما رأت .

وقال بعض السلف : إذا أصبح العبد ابتدره الملك والشيطان ، فإذا ذكر الله وكبره وحمده وهله طرد الملك الشيطان وتولاه ، وإن افتتح بغير ذلك ذهب الملك عنه وتولاه الشيطان .

ولا يزال الملك يقرب من العبد حتى يصير الحكم والطاعة والغلبة له ، فتتولاه الملائكة في حياته وعند موته وعند بعثه ، كما قال الله تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ [فصلت : ٣١، ٣٠] . وإذا تولاه الملك تولاه أنصح الخلق وأنفعهم وأبرهم ، فثبتته وعلمه ، وقرى جنته ، وأيده . قال تعالى : ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني

معكم ، فثبّتوا الذين آمنوا ﴿ [الأنفال : ١٢] فيقول له الملك عند الموت :
« لا تخف ولا تحزن وأبشّر بالذى يسرك » ويشبّته بالقول الثابت أحوج ما يكون
إليه فى الحياة الدنيا ، وعند الموت ، وفى القبر عند المسألة .

فليس أحد أنفع للعبد من صحبة الملك له ، وهو وليه فى يقظته ومنامه ،
وحياته وعند موته ، وفى قبره ، ومؤنسه فى وحشته ، وصاحبه فى خلوته ،
ومحلّته فى سره ، يحارب عنه عدوه ، ويدافع عنه ويعينه عليه ، ويعذه بالخير
ويبشّره به ، ويحثه على التصديق بالحق ، كما جاء فى الأثر الذى يُروى مرفوعاً
« إن للملك بقلب ابن آدم لمة ^(١) وللشيطان لمة ، فلمّة الملك إبعاد بالخير
وتصديق بالوعد ، ولمة الشيطان إبعاد بالشر وتكذيب بالحق » .

وإذا اشتد قرب الملك من العبد تكلم على لسانه ، وألقى على لسانه القول
السديد ، وإذا بعد منه وقرب منه الشيطان تكلم على لسانه ، وألقى عليه قول
الزور والفحش ، حتى يرى الرجل يتكلم على لسانه الملك ، والرجل يتكلم على
لسانه الشيطان .

وفى الحديث « إن السكينة تنطق على لسان عمر رضى الله عنه وكان أحدهم
يسمع الكلمة الصالحة من الرجل الصالح فيقول : ما ألقاها على لسانك إلا
الملك ، ويسمع ضدها فيقول : ما ألقاها على لسانك إلا الشيطان ، فالملك يلتقى
بالقلب الحق ، ويلقيه على اللسان ، والشيطان يلتقى بالباطل فى القلب ، ويجريه
على اللسان .

فمن عقوبة المعاصى : أنها تبعد من العبد وليه الذى سعادته فى قربيه ومجاورته
وموالاته ، وتدنّى منه عدوه الذى شقاؤه وهلاكه وفساده فى قربيه وموالاته ،
حتى إن الملك لينافح عن العبد ، ويرد عنه إذا سفه عليه السفه وسبه ، كما

(١) الة بفتح الهمزة : من ألم به نزل به نزولاً خفيفاً ، ومنعاه الخطرة فى القلب .

« اختصم بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم رجلان فجعل أحدهما يسب الآخر ، وهو ساكت ، فتكلم بكلمة يرد بها على صاحبه ، فقام النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله لما رددت عليه بعض قوله قمت ، فقال : كان الملك ينافح عنك ، فلما رددت عليه جاء الشيطان فلم أكن لأجلس » . وإذا دعا العبد المسلم لأخيه بظهر الغيب أمن الملك على دعائه ، وقال « لك بمثله » وإذا فرغ من قراءة الفاتحة أمنت الملائكة على دعائه ، وإذا أذنب العبد المؤمن الموحد المتبع لسبيله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم استغفر له حملة العرش ومن حوله ، وإذا نام على وضوء بات في شعاره ^(١) ملك ، فملك المؤمن يرد عنه ويحارب ويدافع عنه ، ويعلمه ويثبتته ويشجعه ، فلا يليق به أن يسىء جواره ويبالغ في أذاه وطرده عنه وإبعاده ، فإنه ضيفه وجاره ، وإذا كان لإكرام الضيف من الأدميين والإحسان إلى الجار من لوازم الإيمان وموجباته ، فما الظن بإكرام أكرم الأضياف ، وخير الجيران وأبرهم ؟ وإذا آذى العبد الملك بأنواع المعاصي والظلم والفواحش دعا عليه ربه ، وقال : « لا جزاك الله خيراً » كما يدعو له إذا أكرمه بالطاعة والإحسان .

قال بعض الصحابة رضى الله عنهم « إن معكم من لا يفارقكم ، فاستحيوا منهم وأكرمواهم » .

ولا ألام ممن لا يستحي من الكريم العظيم القدر ، ولا يعجله ولا يوقره ، وقد نبه سبحانه على هذا المعنى بقوله : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ، كَرَامًا كَاتِبِينَ ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار : ١٠ - ١٢] أى استحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام وأكرمواهم ، وأجلوهم أن يروا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه من هو مثلكم ، والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم ، فلماذا كان ابن آدم يتأذى ممن

(١) الشار : ما يل الجسم من الثياب .

يفجر ويعصى بين يديه ، وإن كان قد يعمل مثل عمله ، فما الظن بأذى الملائكة الكرام الكاتبين ؟ والله المستعان .

ومن عقوباتها : أنها تستجلب مواد هلاك العبد من دنياه وآخرته ، فإن الذنوب هي أمراض متى استحكمت قتلت ولا بد ، وكما أن البدن لا يكون صحيحاً إلا بغذاء يحفظ قوته ، واستفراغ يستفرغ المواد الفاسدة والأخلاق الردية التي متى غلبت عليه أفسدته ، وحمية يمتنع بها مما يؤذيه ويخشى ضرره ، فكذلك القلب لا تلم حياته إلا بغذاء من الإيمان والأعمال الصالحة تحفظ قوته ، واستفراغ بالتوبة النصوح تستفرغ بها المواد الفاسدة والأخلاق الردية منه ، وحمية توجب له حفظ الصحة وتجنب ما يضادها ، وهي عبارة عن ترك استعمال ما يضاد الصحة ، والتقوى : اسم متناول لهذه الأمور الثلاثة ، فما فات منها فات من التقوى بقلده .

وإذا تبين هذا فالذنوب مضادة لهذه الأمور الثلاثة ، فإنها تستجلب المواد المؤذية ، وتوجب التخليط المضاد للحمية . وتمنع الاستفراغ بالتوبة النصوح ، فانظر إلى بدن عليل قد تراكمت عليه الأخلاق ومواد المرض ، وهو لا يستفرغها ، ولا يحمي لها ، كيف تكون صحته وبقاؤه ، ولقد أحسن القائل :

جسمك بالحمية حصنته مخافة من ألم طارى
وكان أولى بك أن تحمى من المعاصى خشية البارئ

فمن حفظ القوة بامتنال الأوامر ، واستعمل الحمية باجتناب النواهي واستفرغ التخليط بالتوبة النصوح ، لم يدع للخير مطلباً ، ولا من الشر مهرباً ، والله المستعان .

فصل

فلن لم ترُعك^(١) هذه العقوبات ، ولم تجد لها تأثيراً في قلبك ، فأحضره

(١) أى : لم تحفك ، من الروع .

العقوبات الشرعية التي شرعها الله ورسوله عن الجرائم ، كما قطع اليد في سرقة ثلاث دراهم ، وقطع اليد والرجل في قطع الطريق على معصوم المال والنفس ، وشق الجلد بالسوط على كلمة قذف بها المحصن ، أو قطرة خمر يدخلها جوفه ، وقتل بالحجارة أشنع قتلة في إيلاج الحشفة في فرج حرام ، وخفف هذه العقوبة عمن لم تتم عليه نعمة الإحصان مائة جلدة وبنى سنة عن وطنه وبلده إلى الغربة ، وفرق بين رأس العبد وبدنه إذا وقع على ذات رحم محرم منه ، أو ترك الصلاة المفروضة ، أو تكلم بكلمة كفر ، وأمر بقتل من وطئ ذكراً مثله ، وقتل المفعول به ، وأمر بقتل من أتى بهيمة ، وقتل البهيمة معه ، وعزم على تحريق بيوت المتخلفين عن الصلاة في الجماعة ، وغير ذلك من العقوبات التي رتبها على الجرائم ، وجعلها بحكمته على حسب الدواعي إلى تلك الجرائم ، وحسب الوازع عنها ، فما كان الوازع عنه طبيعياً وليس في الطباع داع إليه اكتفى فيه بالتحريم مع التعزير ، ولم يرتب عليه حداً . كأكل الرجيع ، وشرب الدم ، وأكل الميتة ، وما كان في الطباع داع إليه رتب عليه من العقوبة بقدر مفسدته ، وبقدر داع الطبع إليه .

ولهذا لما كان داعي الطباع إلى الزنى من أقوى اللواعي كانت عقوبته العظمى من أشنع القتلات وأعظمها ، وعقوبته السهلة أعلى أنواع الجلد مع زيادة التغريب ، ولما كانت (جريمة) اللواط فيها الأمان كان حده القتل بكل حال ، ولما كان داعي السرقة قوياً ومفسدتها كذلك قطع فيها اليد .

وتأمل حكمته في إفساد العضو الذي باشر العبد به الجنائية ، كما أفسد على قاطع الطريق يده ورجله اللتين هما آلة قطعه ، ولم يفسد على القاذف لسانه الذي جنى به ، إذ مفسدته تزيد على مفسدة الجنائية ولا يبالغها ، فاكثف من ذلك بإيلاء جميع بدنه بالجلد . .

فإن قيل : فهلا أفسد على الزاني فرجه الذي باشر به المعصية ؟ !
قيل ، لوجوه :
أحدها أن مفسده ذلك تزيد على مفسدة الجناية ، إذ فيه قطع النسل ،
وتعريضه للهلاك .
الثاني : أن الفرج عضو مستور لا يحصل بقطعه مقصود الحد من الردع
والزجر لأمثاله من الجناة ، بخلاف قطع اليد .
الثالث : أنه إذا قطع يده أبقى له يداً أخرى تعوض عنها ، بخلاف الفرج .
الرابع : أن لذة الزنى عمت جميع البدن ، فكان الأحسن أن تعم العقوبة
جميع البدن وذلك أولى من تخصيصها ببضعة منه ^(١) .
فعقوبات الشارع جاءت على أتم الوجوه وأوفقها للعقل ، وأقومها بالمصلحة .
والمقصود : أن الذنوب إنما تترتب عليها العقوبات الشرعية أو القدرية ،
أو يجمعهما الله للعبد ، وقد يرفعهما عن تاب وأحسن .

فصل

وعقوبات الذنوب نوعان : شرعية ، وقدرية ، فإذا أقيمت الشرعية رفعت
العقوبات القدرية أو خففتها ، ولا يكاد الرب تعالى يجمع على العبد بين
العقوبتين إلا إذا لم يف أحدهما برفع موجب الذنب ، ولم يكف في زوال دأبه ^(٢)
وإذا عطلت العقوبات الشرعية استحالت قدرية ، وربما كانت أشد من الشرعية ،
وربما كانت دونها ، ولكنها تعم ، والشرعية تخص ، فإن الرب تبارك وتعالى
لا يعاقب شرعاً إلا من باشر الجناية أو تشبب إليها .

(١) البضعة - بفتح الباء - هي القطعة من اللحم ، أى بجزء منه ، والمراد الفرج .

(٢) في نسخة : ذاته .

وأما العقوبة القدرية فإنها تقع عامة وخاصة ، فإن المعصية إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها ، وإذا أعلنت ضرت الخاصة والعامة ، وإذا رأى الناس المنكر فاشتركوا في ترك إنكاره أو شك أن يُعمم الله بعقابه .

وقد تقدم أن العقوبة الشرعية شرعها الله سبحانه على قدر مفسدة الذنب وتقاضى الطبع لها ، وجعلها الله سبحانه ثلاثة أنواع : القتل ، والقطع ، والجلد ، وجعل القتل بإزاء الكفر وما يليه ويقرب منه ، وهو الزنى واللواط ، فإن هذا يفسد الأديان ، وهذا يفسد (الأنساب ، ونوع) الإنسان .

قال الإمام أحمد « لا أعلم بعد القتل ذنباً أعظم من الزنى » واحتج بحديث سب الله بن مسعود أنه قال : « يا رسول الله ، أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك ، قال : قلت : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك ، قال : قلت : ثم أى ؟ قال : أن تزنى بحليلة جارك » . فأنزل الله تصديقها ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون ﴾ الآية [الفرقان : ٦٨] .

والنبي صلى الله عليه وسلم ذكر من كل نوع أعلاه ليطابق جوابه سؤال السائل ، فإنه سأل عن أعظم الذنب ، فأجابه بما تضمن ذكر أعظم أنواعها ، وما هو أعظم كل نوع .

فأعظم أنواع الشرك : أن يجعل العبد لله نداً

وأعظم أنواع القتل : أن يقتل ولده خشية أن يشاركه في طعامه وشرابه .

وأعظم أنواع الزنى : أن يزنى بحليلة جاره ، فإن مفسدة الزنى تنضاعف ، بتنضاعف من انتهكه من الحق ، فالزنى بالمرأة التى لها زوج أعظم إثماً وعقوبة من التى لا زوج لها ، إذ فيه انتهاك حرمة الزوج وإفساد فراشه ، وتعليق نسب عليه . لم يكن منه ، وغير ذلك من أنواع آذاه : فهو أعظم إثماً وجراً من الزنى بغير

ذات البعل ، فالزنى بمائة امرأة لا زوج لها أيسر عند الله من الزنى بامرأة الجار ، فإن كان زوجها جاراً له انضاف إلى ذلك سوء الجوار ، وأذى جاره بأعلى أنواع الأذى ، وذلك من أعظم البوائق (١) .

وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه » ولا بائقة أعظم من الزنى بامرأة الجار ، فإن كان الجار أخاً له أو قريباً من أقاربه انضم إلى ذلك قطيعة الرحم ، فيتضاعف الإثم ، فإن كان الجار غائباً في طاعة الله كالصلاة وطلب العلم والجهاد تضاعف له الإثم ، حتى إن الزانى بامرأة الغازى في سبيل الله يوقف له يوم القيامة ويقال : خذ من حسناته ما شئت ، قال النبي صلى الله عليه وسلم « فما ظنكم ؟ » أى ما ظنكم أنه يترك له من الحسنات قد حُكِّم في أن يأخذ منها ما شاء ؟ على شدة الحاجة إلى حسنة واحدة حيث لا يترك الأب لابنه ولا الصديق لصديقه حقاً يجب عليه ؟ فإن اتفق أن تكون المرأة رحماً منه انضاف إلى ذلك قطيعة رحمها ، فإن اتفق أن يكون الزانى محصناً كان الإثم أعظم ، فإن كان شيخاً كان أعظم إثماً ، وهو أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولم يذهب عنهم أليهم ، فإن اقترن بذلك أن يكون في شهر حرام ، أو بلد حرام ، أو وقت معظم عند الله كأوقات الصلاة وأوقات الإجابة تضاعف الإثم ، وعلى هذا فاعتبر مفسد الذنوب وتضاعف درجاتها في الإثم والعقوبة ، والله المستعان .

فصل

وجعل سبحانه القلع بلزاء إفساد الأموال الذى يمكن الاحتراز منه ، فإن السارق لا يمكن الاحتراز منه ، لأنه يأخذ الأموال في إختفاء ، وينقب الدور ، ويتسور من غير الأبواب ، فهو كالسُّور والحية التى تدخل عليك من حيث

(١) أي الغوائل والشُرور ، واحداً بائقة ، وهي المهلكة .

لا تعلم ، فلم ترتفع مفسدة سرقة إلى القتل ، ولا تندفع بالجلد ، فأحسن ما دفعت به مفسدته لإبانة العضو^(١) الذي يتسلط به على الجنابة ، وجعل الجلد بإزاء إفساد العقول ، وتمزيق الأعراض بالقذف .

فدارت عقوباته سبحانه الشرعية على هذه الأنواع الثلاثة كما دارت الكفارات على ثلاثة أنواع : العتق ، وهو أعلاها ، والإطعام ، والصيام .

ثم إنه سبحانه جعل الذنوب ثلاثة أقسام :

قسماً فيه الحد ، فهذا لم يشرع فيه كفارة اكتفاء الحد .

وقسماً لم يترتب عليه حداً ، فشرع فيه الكفارة ، كالوطء في نهار رمضان ، والوطء في الإحرام ، والظهار ، وقتل الخطأ ، والحنث في اليمين ، وغير ذلك .

وقسماً لم يترتب عليه حداً ولا كفارة ، وهو نوعان :

أحدهما : ما كان الوازع عنه طبيعياً ، كأكل العذرة ، وشرب البول والدم .

والثاني : ما كانت مفسدته أدنى من مفسدة ما رتب عليه الحد ، كالنظر والتبلة واللمس والمحادثة ، وسرقة فلس ، ونحو ذلك .

وشرع الكفارات في ثلاثة أنواع :

أحدها : ما كان مباح الأصل ، ثم عرض تحريمه فباشره في الحالة التي عرض فيها التحريم ، كالوطء في الإحرام والصيام ، وطردّه : الوطء في الحيض والنفس ، بخلاف الوطء في الدبر ، ولهذا كان إلحاق بعض الفقهاء له بالوطء في الحيض لا يصح ، فإنه لا يباح في وقت دون وقت ، فهو بمنزلة التلوط وشرب المسكر .

النوع الثاني : ما عقد الله من نذر أو بالله من يمين ، أو حرمه الله ثم أراد

(١) إبانة العضو : قطعه وفصله من سائر الأعضاء .

حله . فشرع الله سبحانه حله بالكفارة وسماه تحلّة . وليس هذه الكفارة ماحية
لهتك حرمة الاسم بالحنث ، كما ظنه بعض الفقهاء ، فإن الحنث قد يكون
واجباً ، وقد يكون مستحباً ، وقد يكون مباحاً ، وإنما الكفارة حلٌّ لما عقده .

النوع الثالث : ما تكون فيه جابرة لما فات ، ككفارة قتل الخطأ ، وإن لم
يكن هناك إثم ، وكفارة قتل الصيد خطأ ، فإن ذلك من باب الجوابر ، والنوع
الأول من باب الزواجر ، والنوع الأوسط من باب التحلة لما منعه العقد .

ولا يجتمع الحد والتعزير في معصية ، بل إن كان فيها حد اكتفى به ،
ولما اكتفى بالتعزير ، ولا يجتمع الحد والكفارة في معصية ، بل كان معصية فيها
حد فلا كفارة فيها ، وما فيه كفارة فلا حد فيه ، وهل يجتمع التعزير والكفارة
في المعصية التي لا حد فيها ؟ فيه وجهان ، وهذا كالوطء في الإحرام والصيام ،
ووطء الحائض ، إذا أوجبنا فيه الكفارة ، فقليل : يجب التعزير ، لما انتهك
من الحرمة بركوب الجنابة ، وقيل : لا تعزير في ذلك ، اكتفاء بالكفارة ،
لأنها جابرة وماحية .

فصل

وأما العقوبات القدرية فهي نوعان : نوع على القلوب والنفوس ، ونوع
على الأبدان والأموال .

والتي على القلوب نوعان ، أحدهما : آلام وجودية يضرب بها القلب ،
والثاني : قطع المواد التي بها حياته وصلاحه عنه ، وإذا قطعت عنه حصل له
أضدادها ، وعقوبة القلوب أشد العقوبتين ، وهي أصل عقوبة الأبدان .

وهذه العقوبة تقوى وتزايد ، حتى تسرى من القلب إلى البدن ، كما
سرى ألم البدن إلى القلب ، فإذا فارقت النفس البدن صار الحكم متعلقاً بها ،

فظهرت القلب حينئذ وصارب علانية ظاهرة ، وهى انسياة بعداب القبر ، ونسبته إلى البرزخ كنسبة عذاب الأبدان إلى هذه الدار .

فصل

والتي على الأبدان أيضاً نوعان : نوع في الدنيا ، ونوع في الآخرة ، وشلها ودوامها بحسب مفاسد ما رتبت عليه في الشدة والخفة ، فليس في الدنيا والآخرة بشر أصلاً إلا الذنوب وعقوباتها ، فالشر اسم لذلك كله ، وأصله من شر النفس وسيئات الأعمال ، وهما الأصلان اللذان كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعبد منهما في خطبته بقوله « ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا » وسيئات الأعمال : من شرور النفس ، فعاد كله إلى شر النفس ، فإن سيئات الأعمال من فروعه وثمراته .

وقد اختلف في معنى قوله « ومن سيئات أعمالنا » هل معناه السيئ من أعمالنا ، فيكون من باب إضافة الفرع إلى جنسه ؟ أو تكون « من » بيانية ، وقيل : معناه من عقوباتها التي تسوء ، فيكون التقرير : ومن عقوبات أعمالنا التي تسوؤنا . ويرجع هذا القول : أن الاستعادة تكون قد تضمنت جميع الشر فإن شرور الأنفس تستلزم الأعمال السيئة ، وهى تستلزم العقوبات السيئة فنبه شرور الأنفس على ما تقتضيه من قبح الأعمال ، واكتفى بذكرها منه ، إذ هو أصله ، ثم ذكر غاية الشر ومنتهاه ، فهو السيئات التي تسوء العبد عن عمله ، من العقوبات والآلام . فتضمنت هذه الاستعادة أصل الشر وفرعه وغايته ومقتضاه . ومن دعاء الملائكة للمؤمنين قولهم : ﴿ وَفِيهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ﴾ [غافر : ٩] فهذا يتضمن طلب وقايتهم من سيئات الأعمال وعقوباتها التي تسوء صاحبها فإنه سبحانه متى وقاهم عمل السيئ وقاهم جزاء

السيء ، وإن كان قوله ﴿ ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ﴾ أظهر في عقوبات الأعمال المطلوب وقايتها يومئذ .

فإن قيل : فقد سألوه سبحانه أن يقيهم عذاب الجحيم ، وهذا هو وقاية العقوبات السيئة ، فدل على أن المراد بالسيئة التي سألوا وقايتها : الأعمال السيئة ، ويكون الذى سأل الملائكة نظير ما استعاذ منه النبي صلى الله عليه وسلم . ولا يرد على هذا قوله (يومئذ) فإن المطلوب وقاية شرور سيئات الأعمال ذلك اليوم ، وهى سيئات فى أنفسها .

قيل : وقاية السيئات نوعان : أحدهما : وقاية فعلها بالتوفيق فلا تصدر منه ، والثانى : وقاية جزائها بالمغفرة ، فلا يعاقب عليها . فتضمنت الآية سؤال الأمرين ، والظرف تقييد للجملة الشرطية لا للجملة الطلبية .

وتأمل ما تضمنه هذا الخبر عن الملائكة من مدحهم بالإيمان ، والعمل الصالح ، والإحسان إلى المؤمنين بالاستغفار لهم ، وقدموا بين استغفارهم توسلهم إلى الله سبحانه بسعة علمه ، وسعة رحمته ، فسعة علمه تتضمن علمه بذنوبهم وأسبابها وضعفهم عن العصمة ، واستيلاء عدوهم وأنفسهم ، وهواهم وطباعهم ، وما زين لهم من الدنيا وزينتها ، وعلمه بهم ، إذ أنشأهم من الأرض ، وإذ هم أجنة فى بطون أمهاتهم ، وعلمه السابق بأنهم لا بد أن يعصوه ، وأنه يحب العفو والمغفرة ، وغير ذلك من سعة علمه الذى لا يحيط به أحد سواه ، وسعة رحمته تتضمن أنه لا يهلك عليه أحد من المؤمنين به أهل توحيده ومحبته ، فإنه واسع الرحمة لا يخرج عن دائرة رحمته إلا الأشقياء ، ولا أشقى ممن لم تسعه رحمته التى وسعت كل شيء ، ثم سألوه أن يغفر للتائبين الذين اتبعوا سبيله ، وهو ضراطه الموصل إليه الذى هو معرفته ومحبته وطاعته ، فتابوا بما يكره ، واتبعوا السبيل التى يحبها ، ثم سألوه أن يقيهم عذاب الجحيم ، وأن يدخلهم والمؤمنين - من

أصوبهم وفروعهم وأزواجهم - جنات عدن التي وعدهم بها ، وهو سبحانه وإن كان لا يخلف الميعاد ، فإنه وعدهم بها بأسباب : من جملتها : دعاء ملائكته لهم أن يدخلهم إياها برحمته التي منها أن وفقهم لأعمالها ، وأقام ملائكته يدعون لهم بها .

ثم أخبر سبحانه عن ملائكته أنهم قالوا عقيب هذه الدعوة : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى مصدر ذلك وسببه وغايته صادر عن كمال قدرتك وكمال علمك . فإن العزة كمال القدرة ، والحكمة كمال العلم ، وبهاتين الصفتين يقضى سبحانه وتعالى ما شاء ويأمر وينهى ، ويثيب ويعاقب ، فهاتان الصفتان مصدر الخلق والأمر .

والمقصود : أن عقوبات السيئات تتنوع إلى عقوبات شرعية ، وعقوبات قدرية . وهى إما فى القلب ، وإما فى البدن ، وإما فيهما ، وعقوبات فى دار البرزخ بعد الموت ، وعقوبات يوم حشر الأجساد ، فالذنب لا يخلو من عقوبة ألبته ، ولكن لجهل العبد لا يشعر بما هو فيه من العقوبة : لأنه بمنزلة السكران والمخدّر والنائم الذى لا يشعر بالألم ، فإذا استيقظ وصحا أحسن بالألم ، فترتب العقوبات على الذنوب كترتب الإحراق على النار ، والكسر على الانكسار ، والاغتراق على الماء ، وفساد البدن على السموم ، والأمراض على الأسباب الجالبة لها ، وقد تقارن المضرة الذنب ، وقد تتأخر عنه ، إما يسيراً وإما مدة كما يتأخر المرض عن سببه أو يقارنه ، وكثيراً ما يقع الغلط للعبد فى هذا المقام ويلتنب الذنب فلا يرى أثره عقيقه ، ولا يدرى أنه يعمل عمله على التكرير شيئاً فشيئاً ، كما تعمل السموم والأشياء الضارة حلو القلّة بالقلة^(١) فإن تدارك العبد بالأدوية والاستفراغ والحمية ، وإلا فهو صائر إلى الهلاك ، هذا

(١) القلة : واحدة ريش السم ، أى كما تقدر كل واحدة منها على قدر صاحبها ، يضرب مثلاً للشيطان يستويان ولا يتفاوتان .

إذا كان ذنباً واحداً لم يتداركه بما يزيل اثره ، فكيف بالذنب على كل يوم
وكل ساعة ؟ والله المستعان

فصل

فاستحضر بعض العقوبات التي رتبها الله سبحانه وتعالى على الذنوب ،
وجوّز وصول بعضها إليك ، وأجعل ذلك داعياً للنفس إلى هجرانها ، وأنا أسوق
لك منها طرفاً يكفي العاقل مع التصديق ببعضه .

فمنها : الختم على القلوب والأسماع ، والغشاوة على الأبصار ، والإقفال على
القلوب وجعل الأكنة ^(١) عليها والرين عليها والطبع ، وتقليب الأفتدة والأبصار ،
والحيلولة بين المرء وقلبه ، وإغفال القلب عن ذكر الرب ، وإنسَاء الإنسان نفسه
وترك إرادة الله تطهير القلب ، وجعل الصدر ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء ،
وصرف القلوب عن الحق ، وزيادتها مرضاً على مرضها ، وإركاسها وإنكاسها ،
بحيث تبقى منكوسة كما ذكر الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه
أنه قال « القلوب أربعة : قلب أجرد فيه سراج يزهر ^(٢) ، فذلك قلب المؤمن ،
وقلب أغلف ^(٣) ، فذلك قلب الكافر ، وقلب منكوس ، فذلك قلب المنافق ،
وقلب تمده مادتان : مادة إيمان ، ومادة نفاق ، وهو لما غلب عليه منهما » .

ومنها التشبيط عن الطاعة ، والإقعاد عنها .

ومنها : جعل القلب أصم لا يسمع الحق ، أبكم لا ينطق به ، أعمى لا يراه ،
فتصير النسبة بين القلب وبين الحق الذي لا ينفعه غيره ، كالنسبة بين أذن

(١) الأكنة : الأغشية .

(٢) أى ليس فيه غل ولا غش من أثر الجهل والغفلة ، فهو على أصل الفطرة السليمة ونور الإيمان
فيه مشرق .

(٣) أى مغطى بالأهواء والجهل والتقليد والشهوات ، قد أغلق عليه ؛ فلا يستمع لداعى الحق ،
ولا يستيقظ بآيات الله ومواعظه .

الأصم والأصوات ، وعين الأعمى والألوان ، ولسان الأخرس والكلام ، وبهذا يعلم أن العمى والصمم والبكم للقلب بالذات والحقيقة ، وللجوارح بالعرض والتبعية ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ [الحج : ٤٦] . وليس المراد نفي العمى الحسى عن البصر ، كيف وقد قال تعالى ﴿ ليس على الأعمى حرج ﴾ [النور : ٦١] . وقال ﴿ عبس وتولى ﴾ ، أن جاءه الأعمى ﴿ [عبس : ١-٢] . وإنما المراد أن العمى التام في الحقيقة عمى القلب ، حتى إن عمى البصر بالنسبة إليه كالأعمى ، حتى إنه يصح نفيه بالنسبة إلى كماله وقوته كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « ليس الشديد بالصرعة ^(١) » ، ولكنه الذى يملك نفسه عند الغضب » . وقوله صلى الله عليه وسلم « ليس المسكين بالطواف الذى ترُدُّه اللقمة واللقمتان ولكن المسكين الذى لا يسأل الناس ، ولا يُفطن له فيُتصدق عليه » ونظائره كثيرة .

والمقصود : أن من عقوبات المعاصى جعل القلب أعمى أصم أبكم .
ومنها : الخسف بالقلب كما يخسف بالمكان وما فيه : فيخسف به إلى أسفل السافلين ، وصاحبه لا يشعر ، وعلامة الخسف به : أنه لا يزال جواراً حول السفليات والقاذورات والردائل ، كما أن القلب الذى رفعه الله وقربه إليه لا يزال جواراً حول العرش .

ومنها : البر والخير ومعالي الأعمال والاقوال والأخلاق .
قال بعض السلف « إن هذه القلوب جواراً ، فمنها ما يجول حول العرش ، ومنها ما يجول حول العُش » :

ومنها : مسخ القلب ، فيمسخ كما تمسخ الصورة ، فيصير القلب على قلب الحيوان الذى شابهه في أخلاقه وأعماله وطبيعته ، فمن القلوب ما يمسخ على

(١) بضم الصاد وفتح الراء : المبالغ في قوة المصارعة الذى لا يفلب .

قلب خنزير لشدة شبه صاحبه به . ومنها ما يمسح على خلق كلب أو حمار أو حية أو عقرب وغير ذلك ، وهذا تأويل سفيان بن عيينة في قوله تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ﴾ [الأنعام : ٣٨] قال : منهم من يكون على أخلاق السباع العادية : ومنهم من يكون على أخلاق الكلاب وأخلاق الخنازير وأخلاق الحمير : ومنهم من يتطوس في ثيابه كما يتطوس الطاوس ، ومنهم من يكون بليداً كالحمار ، ومنهم من يؤثر على نفسه كالديك ، ومنهم من يألف ويؤلف كالحمام ، ومنهم الحقود كالجمال ومنهم الذى هو خير كله كالغنم ، ومنهم أشباه الثعالب الى تروغ كروغانها ، وقد شبه الله تعالى أهل الجهل والغبى بالحرر تارة ، وبالكلب تارة ، وبالأنعام تارة ، وثقوى هذه المشبهة باطنا حتى تظهر في الصورة الظاهرة ظهوراً خفياً ، يراه المتفكرون ، وتظهر في الأعمال ظهوراً يراه كل أحد ، ولا يزال يقوى حتى تستشع الصورة ، فتقلب له الصورة بإذن الله ، وهو المسخ التام ، فيقلب الله سبحانه وتعالى الصورة الظاهرة على صورة ذلك الحيوان ، كما فعل باليهود وأشباههم ويفعل بقوم من هذه الأمة يمسخهم قردة وخنزير .

فسبحان الله ! كم من قلب منكوس وصاحبه لا يشعر ؟ وقلب ممسوخ ، وقلب مخسوف به ، وكم من مفتون بثناء الناس عليه ؟ ومغرور بستر الله عليه ومستدرج بنعم الله عليه ؟ وكل هذه عقوبات وإهانات ، ويظن الجاهل أنها كرامة . ومنها : مكر الله بالماكر ، ومخادعته للمخادع ، واستهزاؤه بالمستهزئ ، وإزاغته القلب الزائف عن الحق .

ومنها : نكس القلب حتى يرى الباطل حقاً ، والحق باطلاً ، والمعروف منكراً والمنكر معروفاً ، ويفسد ويرى أنه يصلح ، ويصد عن سبيل الله وهو يرى أنه يدعو إليها ، ويشترى الضلالة بالهدى ، وهو يرى أنه على الهدى ، ويتبع هواه ،

وهو يزعم أنه مطيع لمولاه ، وكل هذا من عقوبات الذنوب الجارية على القلب .
ومنها : حجاب القلب عن الرب في الدنيا ، والحجاب الأكبر يوم القيامة .
كما قال الله تعالى ﴿ كَلَّا بَلْ رَأَىٰ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ، كلاً منهم
عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴿ [المطففين : ١٥ - ١٦] فمنعتهم الذنوب أن
يقطعوا المسافة بينهم وبين قلوبهم فيصلوا إليها فيروا ما يصلحها ويزكيها ،
وما يفسدها ويشقيها وأن يقطعوا المسافة بين قلوبهم وبين ربهم ، فتصل القلوب
إليه ، فتفوز بقربه وكرامته ، وتقرُّ به عينا وتطيب به نفساً ، بل كانت
الذنوب حجاباً بينهم وبين قلوبهم ، وحجاباً بينهم وبين ربهم وخلقتهم .

ومنها : المعيشة الضنك في الدنيا وفي البرزخ والعذاب في الآخرة ، قال تعالى
﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً ﴾ . ونحشره يوم القيامة أعمى ﴿ [طه : ١٢٤] .
وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر ، ولا ريب أنه من
المعيشة الضنك ، والآية تتناول ما هو أعم منه وإن كانت نكرة في سياق الإثبات
فإن عمومها من حيث المعنى ، فإنه سبحانه رتب المعيشة الضنك على الإعراض
عن ذكره ، فالعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه ، وإن تنعم في
الدنيا بأصناف النعم ، ففي قلبه من الوحشة والذل والحسرات التي تقطع القلوب
والآمانى الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه ، وإنما يواريه عنه سكرات الشهوات
والعشق وحب الدنيا والرياسة ، وإن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر ، فسكر هذه
الأمر أعظم من سكر الخمر ، فإنه يفيق صاحبه ويصحو ، وسكر الهوى وحب
الدنيا لا يصحو صاحبه إلا إذا كان صاحبه في سكر الأموات ، فالمعيشة الضنك
لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم في دنياه
وفي البرزخ ويوم معاده ، ولا تقرُّ العين ، ولا يهدأ القلب ، ولا تطمئن النفس
إلا بإلهها ومعبودها الذي هو حق ، وكل معبود سواه باطل ، فمن قرئت عينه بالله

قوت به كل عين ، ومن لم تفر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات ،
والله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن به وعمل صالحاً كما قال تعالى :
﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم
أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ [النحل : ٩٧] فضمن لأهل الإيمان والعمل
الصالح الجزاء في الدنيا بالحياة الطيبة والحسن يوم القيامة ، فلهم أطيب
الحياتين ، فهم أحياء في الدارين

ونظير هذا قوله تعالى ﴿ للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة
خير ولنعم دار المتقين ﴾ [النحل : ٣٠] ونظيرها قوله تعالى ﴿ وأن استغفروا
ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذي فضل
فضله ﴾ [هود : ٣] ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة ، وحصلوا على
الحياة الطيبة في الدارين ، فإن طيب النفس وسرور القلب وفرحه ولذته وابتهاجه
وطمأنينته وانشراحه ونوره وسعته وعافيته من ترك الشهوات المحرمة والشبهات
الباطلة ، وهو النعيم على الحقيقة ، ولا نسبة لنعيم البدن إليه .

فقد كان يقول بعض من ذاق هذه اللذة : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن
عليه لجالدونا عليه بالسيوف .

وقال آخر : إنه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها : إن كان أهل الجنة في مثل
هذا إنهم لفي عيش طيب .

وقال آخر : إن في الدنيا جنة هي في الدنيا كالجنة في الآخرة ، فمن دخلها
دخل تلك الجنة ، ومن لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة ، وقد أشار النبي صلى الله
عليه وسلم إلى هذه الجنة بقوله « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قالوا :
وما رياض الجنة ؟ قال : خَلْقُ الذكر » وقال « ما بين بيتي ومنبري روضة من
رياض الجنة »

ولا تظن أن قوله تعالى ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ ، وإن الفجار لفي جحيم ﴿﴾ ، [الانفطار : ١٣ ، ١٤] مختص بيوم المعاد فقط ، بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة ، وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة ، وأي لذة ونعيم في الدنيا أطيب من بر القلب ، وسلامة الصلر ، ومعرفة الرب تبارك وتعالى ، والعمل على موافقته ؟ وهل العيش في الحقيقة إلا عيش القلب السليم ؟ وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على خليله عليه السلام بسلامة قلبه فقال ﴿وإن من شيعته لإبراهيم﴾ ، إذ جاء ربه بقلب سليم ﴿﴾ [الصافات : ٨٣ - ٨٤] وقال حاكياً عنه أنه قال ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ [الشعراء : ٨٨ - ٨٩] والقلب السليم هو الذي سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر ، وحب الدنيا والرياسة ، فسلم من كل آفة تبعده من الله ، وسلم من كل شبهة تعارض خبره ، ومن كل شهوة تعارض أمره ، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده ، وسلم من كل قاطع يقطع عن الله ، فهذا القلب السليم في جنة معجلة في الدنيا ، وفي جنة في البرزخ ، وفي جنة يوم المعاد .

ولا تتم له سلامته مطلقاً حتى يسلم من خمسة أشياء : من شرك يناقض التوحيد وبدعة تخالف السنة ، وشهوة تخالف الأمر ، وغفلة تناقض الذكر ، وهوى يناقض التجريد والإخلاص .

وهذه الخمسة حجب عن الله ، وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة تتضمن أفراداً لا تنحصر ، ولذلك اشتدت حاجة العبد ، بل ضرورته إلى أن يسأل الله أن يهديه الصراط المستقيم ، فليس العبد أحوج منه إلى هذه الدعوة ، وليس شيء أنفع له منها ، فإن الصراط المستقيم يتضمن علوماً وإرادات وأعمالاً وتروكاً ظاهرة وباطنة تجرى عليه كل وقت ، فتفاصيل الصراط المستقيم قد يعلمها العبد ، وقد لا يعلمها ، وقد يكون ما لا يعلمه أكثر مما يعلمه ، وما يعلمه قد

يقدر عليه وقد لا يقدر عليه ، وهو الصراط المستقيم وإن عجز عنه ، وما يقدر عليه قد لا تريده ، كسلا وتهاوناً ، أو لقيام مانع وغير ذلك ، وما تريده قد يفعله وقد لا يفعله ، وما يفعله قد يقوم فيه بشرط الإخلاص وقد لا يقوم . وما يقوم فيه بشروط الإخلاص قد يقوم فيه بكمال المتابعة وقد لا يقوم ، وما يقوم فيه بالمتابعة قد يثبت عليه وقد يصرف قلبه عنه ، وهذا كله واقع سار في الخلق ، فمستقل ومستكثر ، وليس في طباع العبد الهداية إلى ذلك ، بل متى وُكِّلَ إلى طباعه حيل بينه وبين ذلك كله ، وهذا هو الإركاس الذي أركس الله به المنافقين بذنوبهم فأعادهم إلى طباعهم وما خلقت عليه نفوسهم من الجهل والظلم ، والرب تبارك وتعالى على صراط مستقيم في قضائه وقدره ، ونهيه وأمره ، فيهدى من يشاء إلى صراط مستقيم بفضله ورحمته ، وجعله الهداية حيث تصلح ، ويصرف من يشاء عن صراطه المستقيم بعدله وحكمته ^(١) لعدم صلاحية المحل ، وذلك موجب صراطه المستقيم الذي هو عليه ، فإذا كان يوم القيامة نصب لخلقه صراطاً مستقيماً يوصلهم إليه ، فهو على صراط مستقيم . ونصب لعباده من أمره صراطاً مستقيماً دعاهم جميعاً إليه حجة منه وعدلاً ، ويهدى من شاء منهم إلى سلوكه نعمة منه وفضلاً ، ولم يخرج بهذا العدل وهذا الفضل عن صراطه المستقيم الذي هو عليه ، فإذا كان يوم لقائه نصب لخلقه صراطاً مستقيماً يوصلهم إلى جنته ، ثم صرف عنه من صرف عنه في الدنيا ، وأقام عليه من أقامه عليه في الدنيا ، وجعل نور المؤمنين به ورسوله وما جاء به الذي كان في قلوبهم في الدنيا نوراً ظاهراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم في ظلمة الحشر ، وحفظ عليهم نورهم حتى قطعوه ، كما حفظ عليهم الإيمان به حتى لقوه ، وأطفأ نور المنافقين أحوج ما كانوا إليه ، كما أطفأه من قلوبهم في الدنيا ، وأقام أعمال

(١) في نسخة : وحكمه .

العصاة بجنبتي الصراط كلاليب وحسكا^(١) تخطفهم كما خطفتهم في الدنيا عن الاستقامة عليه ، وجعل قوة سيرهم وسرعتهم عليه على قدر قوة سيرهم وسرعتهم إليه في الدنيا ، ونصب للمؤمنين حوضاً يشربون منه بإزاء شربهم من شرعه في الدنيا ، وحرّم من الشرب منه هاك من حرم من الشرب من شرعه ودينه هاهنا . فانظر إلى الآخرة كأنها رأى عين ، وتأمل حكمة الله سبحانه في الدارين تعلم حينئذ (علماً) يقيناً لا شك فيه : أن الدنيا مزرعة الآخرة ، وعنوانها وأغودجها ، وأن منازل الناس فيها من السعادة والشقاوة على حسب منازلهم في هذه الدار في الإيمان والعمل الصالح وضدهما ، وبالله التوفيق . فمن أعظم عقوبات الذنوب الخروج عن الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة .

فصل

ولما كانت الذنوب متفاوتة في درجاتها ومفاسدها تفاوتت عقوباتها في الدنيا والآخرة بحسب تفاوتها .

ونحن نذكر فيها بعون الله وحسن توفيقه فصلاً وجيزاً جامعاً فنقول : أصلها نوعان : ترك مأمور ، وفعل محظور ، وهما الذنبان اللذان ابتلى الله سبحانه بهما أبوى الجن والإنس ، وكلاهما ينقسم باعتبار محله إلى ظاهر على الجوارح ، وباطن في القلوب ، وباعتبار بتعلقه إلى حق الله ، وحق خلقه ، وإن كان كل حق لخلقفه فهو متضمن لحقه ، لكن سمي حقاً للخلق ، لأنه يجب بمطالبتهم ، ويسقط بإسقاطهم .

ثم هذه الذنوب تنقسم إلى أربعة أقسام : ملكية ، وشيطانية ، وسبعية ، وبهيمية ، ولا تخرج عن ذلك .

(١) الكلاليب : جمع كلاب أو كلوب ، وهو حديدة معقوفة الرأس يمر بها . والحسك - بفتح الحاء والسين المهملتين - الشوك .

فالذنوب الملكية : أن يتعاطى ما لا يصلح له من صفات الربوبية ، كالعظمة ، والكبرياء ، والجبروت ، والقهر ، والعلو ، واستعباد الخلق ، ونحو ذلك ، ويدخل في هذا الشرك بالله تعالى ، وهو نوعان : شرك به في أسمائه وصفاته وجعل آلهة أخرى معه ، وشرك به في معاملته ، وهذا الثاني قد لا يوجب دخول النار ، وإن أحبط العمل الذي أشرك فيه مع الله غيره .

وهذا القسم أعظم أنواع الذنوب ، ويدخل فيه القول على الله بلا علم في خلقه وأمره ، فمن كان من أهل هذه الذنوب فقد نازع الله سبحانه في ربوبيته وملكوته ، وجعل له نداً ، وهذا أعظم الذنوب عند الله ، ولا ينفع معه عمل .

فصل

وأما الشيطانية : فالتشبه بالشيطان في الحسد ، والبغى ، والغش ، والغل ، والخداع ، والمكر ، والأمر بمعاصي الله ، وتحسينها ، والنهي عن طاعته ، وتهجينها^(١) ، والابتداع في دينه ، والدعوة إلى البدع والضلال . وهذا النوع يلي النوع الأول في المفسدة ، وإن كانت مفسدته دونه .

فصل

وأما السبعية : فذنوب العدوان ، والغضب ، وسفك الدماء ، والتوثب على الضعفاء والعاجزين ، ويتولد منها أنواع أذى النوع الإنساني ، والجرأة على الظلم والعدوان .

وأما الذنوب البهيمية : فمثل الشره ، والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ، ومنها يتولد الزنى ، والسرقة ، وأكل أموال اليتامى ، والبخل ، والشح ، والجبن ، والهلع ، والجزع ، وغير ذلك .

(١) تهجين الشيء : تقييحه .

وهذا القسم أكثر ذنوب الخلق لعجزهم عن الذنوب السبعية والملكية ، ومنه يدخلون إلى سائر الأقسام ، فهو يجرمهم إليها بالزام ، فيدخلون منه إلى الذنوب السبعية ، ثم إلى الشيطانية ، ثم إلى منازعة الربوبية ، والشرك في الإوحادية . ومن تأمل هذا حق التأمل تبين له أن الذنوب دهليز الشرك والكفر ومنازعة الله ربوبيته .

فصل

وقد دل القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين بعدهم والأئمة على أن من الذنوب كبائر وصغائر ، قال الله تعالى ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ، وندخلكم مدخلا كريماً ﴾ [النساء : ٣١] . وقال تعالى ﴿ والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ^(١) ﴾ [النجم : ٣٢] .

وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان : مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » . وهذه الأعمال المكفرة لها ثلاث درجات :

إحداها : أن تقصر عن تكفير الصغائر لضعفها وضعف الإخلاص فيها ، والقيام بحقوقها ، بمنزلة الدوام الضعيف الذي ينقص عن مقاومة الداء كمية وكيفية .

الثانية : أن تقاوم الصغائر ، ولا ترتقي إلى تكفير شيء من الكبائر .

الثالثة : أن تقوى على تكفير الصغائر ، وتبقى فيها قوة تكفير بها بعض

الكبائر . فتأمل هذا ، فإنه يزيل عنك إشكالات كثيرة

وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا أنبئكم بأكبر

(١) اللمم : الذنب يلم به العبد .

الكبائر ؟ قلنا : بلى يا رسول الله . فقال : الإِشراك بالله ، وعقوق الوالدين .
وشهادة الزور » .

وفى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم : « اجتنبوا السبع الموبقات . قيل :
وما هن يا رسول الله ؟ قال : الإِشراك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله .
إِلا بالحق ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، والتولى يوم الزحف ، وقذف
المحصنات الغافلات المؤمنات » .

وفى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم « أنه سئل : أى الذنب أكبر عند
الله ؟ قال : أن تدعو لله ندأ وهو خلقك . قيل : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك
مخافة أن يطعم معك . قال : ثم أى ؟ قال : أن تزاني بحليلة جارك » فانزل الله
تعالى تصديقها ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرم
الله إلا بالحق ، ولا يزنون ﴾ [الفرقان : ٦٨] الآية .

واختلف الناس فى الكبائر ، هل لها عدد يحصرها ؟ على قولين :
ثم الذين قالوا بحصرها اختلفوا فى عددها ، فقال عبد الله بن مسعود : هى أربع ،
وتال عبد الله بن عمر هى سبع ، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص هى تسعة ،
وقال غيره هى إحدى عشرة . وقال آخر : هى سبعون .

وقال أبو طالب المكي : جمعتهما من أقوال الصحابة فوجدتها أربعة فى القلب ،
وهى : الشرك بالله ، والإِصرار على المعصية ، والقنوط من رحمة الله ، والأمن
من مكر الله . وأربعة فى اللسان : شهادة الزور ، وقذف المحصنات ، واليمين
الغموس ، والسحر . وثلاث فى البطن : شرب الخمر ، وأكل مال اليتيم ، وأكل
الربا . واثنان فى الفرج ، وهما : الزنى ، واللواط . واثنان فى اليدين وهما :
القتل ، والسرقه . وواحد فى الرجلين ، وهو الفرار من الزحف . وواحد يتعلق
بجميع الجسد ، وهو عقوق الوالدين .

والذين لم يحصروها بعدد ، منهم من قال : كل ما نهى الله عنه في القرآن فهو كبيرة ، وما نهى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم فهو صغيرة .
وقالت طائفة : ما اقترن بالنهي عنه وعيد من لعن أو غضب أو عقوبة فهو كبيرة ، وما لم يقترن به شيء من ذلك فهو صغيرة .

وقيل : كل ما يرتب عليه حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة فهو كبيرة ، وما لم يرتب عليه لا هذا ولا هذا فهو صغيرة .

وقيل : كل ما اتفقت الشرائع على تحريمه فهو من الكبائر ، وما كان تحريمه في شريعة دون شريعة فهو صغيرة .

وقيل : كل ما لعن الله ورسوله فاعله فهو كبيرة ، وقيل : كل ما ذكر من أول سورة النساء إلى قوله ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ [النساء : ٣١] .

والذين لم يقسموها إلى كبائر وصغائر قالوا : الذنوب كلها - بالنسبة إلى الجراحة على الله سبحانه ومعصيته ومخالفة أمره - كبائر ، فالنظر إلى من عصي أمره . وانتهك محارمه يوجب أن تكون الذنوب كلها كبائر ، وهي مستوية في هذه المفسدة ، قالوا : ويوضح هذا أن الله سبحانه لا تضره الذنوب ولا يتأثر بها ، فلا يكون بعضها بالنسبة إليه أكبر من بعض ، فلم يبق إلا مجرد معصيته ومخالفته ، ولا فرق في ذلك بين ذنب وذنب .

لوا : ويدل عليه أن مفسدة الذنوب إنما هي تابعة للجراحة والتوثب على حق الرب تبارك وتعالى ، وهذا لو شرب رجل خمرأ أو وطئ فرجاً حراماً ، وهو لا يعتقد تحريمه ، لكان قد جمع بين الجهل وبين مفسدة ارتكاب الحرام ، ولو فعل ذلك من يعتقد تحريمه لكان آتياً بإحدى المفسدتين ، وهو الذي يستحق العقوبة دون الأول : فدل على أن مفسدة الذنب تابعة للجراحة والتوثب .

قالوا : ويدل على هذا أن المعصية تتضمن الاستهانة بأمر المطاع ونهيه وانتهاك حرمة ، وهذا لا فرق فيه بين ذنب وذنب .

قالوا : فلا ينظر العبد إلى كبر الذنب وصغره في نفسه ، ولكن ينظر إلى قدر من عصاه ، وعظمته ، وانتهاك حرمة بالمعصية ، وهذا لا يفترق فيه الحال بين معصية ومعصية ، فإن ملكاً مطاعاً عظيماً لو أمر أحد مملوكيه أن يذهب في مهم له إلى بلد بعيد ، وأمر آخر أن يذهب في شغل له إلى جانب الدار ، فعصياه وخالفاً أمره ، لكانا في مقتته والسقوط من عينه سواء .

قالوا : ولهذا كانت معصية من ترك الحج من مكة ومن ترك الجمعة وهو جار المسجد أقبح عند الله من معصية من ترك من المكان البعيد ، والواجب على هذا أكثر من الواجب على هذا ، ولو كان مع رجل مائتا درهم ومنع زكاتها ومع آخر مائتا ألف فمنع زكاتها لاستويا في منع ما وجب على كل واحد منهما ، ولا يبعد استواؤهما في العقوبة ، إذا كان كل منهما مصرأ على منع زكاة ماله ، قليلاً كان المال أو كثيراً .

فصل

وكشف الغطاء عن هذه المسألة أن يقال :

إن الله عز وجل أرسل رسله ، وأنزل كتبه ، وخلق السموات والأرض ليعرف ويُعبد ويوحّد ويكون الدين كله لله ، والطاعة كلها له ، والدعوة له كما قال تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ [الذاريات : ٥٦] . وقال تعالى ﴿ وما خلقتنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ [الحجر : ٨٥] . وقال تعالى ﴿ الله الذي خلق سبع سموات ، ومن الأرض مثلهن ، يتنزل الأمر بينهن ، لتعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴾ [الطلاق : ١٢] . وقال تعالى ﴿ جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام

والهدى والقلائد^(١) ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم ﴿ [المائدة : ٩٧] .

فأخبر سبحانه أن القصد بالخلق والأمر : أن يعرف بأسمائه وصفاته ، ويعبد وحده لا يشرك به ، وأن يقوم الناس بالقسط ، وهو العدل الذي قامت به السماوات والأرض ، كما قال تعالى ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ [الحديد : ٢٥] .

فأخبر سبحانه أنه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل ومن أعظم القسط التوحيد ، وهو رأس العدل وقوامه . وإن الشرك لظلم عظيم ، فالشرك أظلم الظلم ، والتوحيد أعدل العدل ، فما كان أشد منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر ، وتفاوتها في درجاتها بحسب منافاتها له ، وما كان أشد موافقة لهذا المقصود فهو أوجب الواجبات وأفرض الطاعات .

فتأمل هذا الأصل حق التأمل واعتبر تفاصيله تعرف به حكمة أحكام الحاكمين ، وأعلم العالمين ، فيما فرضه على عباده ، وحرمه عليهم ، وتفاوت مراتب الطاعات والمعاصي .

فلما كان الشرك بالله منافياً بالذات لهذا المقصود كان من أكبر الكبائر على الإطلاق ، وحرّم الله الجنة على كل مشرك ، وأباح دمه وماله وأهله لأهل التوحيد وأن يتخذوهم عبيداً لهم ، لما تركوا القيام بعبوديته ، وأبى الله سبحانه أن يقبل من مشرك عملاً ، أو يقبل فيه شفاعته ، أو يستجيب له في الآخرة دعوة ، أو يقلل له فيها عثرة ، فإن المشرك أجهل الجاهلين بالله ، حيث جعل له من خلقه ندأ ، وذلك غاية الجهل به ، كما أنه غاية الظلم منه ، وإن كان المشرك لم يظلم ربه ، وإنما ظلم نفسه .

(١) القلائد : جمع قلادة ، من تقليد الهدى ، وهو أن يعلق بمنق البعير قطعة من جلد ليعلم أنه هدى فيكف الناس عنه .

فصل

ووقعت مسألة ، وهى : أن المشرك إنما قصده تعظيم جناب الرب تبارك وتعالى وأنه لعظمته لا ينبغى الدخول عليه إلا بالوسائط والشفعاء ، كحال الملوك ، فالمشرك لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبية ، وإنما قصد تعظيمه ، وقال : إنما اعبد هذه الوسائط لتقربنى إليه وتدلنى وتدخلى عليه ، فهو المقصود ، وهذه وسائل وشفعاء ، فلم كان هذا القدر موجباً لسخطه وغضبه تبارك وتعالى ، ومخلداً فى النار ، وموجباً لسفك دماء أصحابه ، واستباحة حريمهم وأموالهم ؟ . وترتب على هذا سؤال آخر ، وهو : أنه هل يجوز أن يشرع الله سبحانه لعباده التقرب إليه بالشفعاء والوسائط ، فيكون تحريم هذا إنما استفيد من الشرع ، أم ذلك قبيح فى الفطر والعقول يمتنع أن تأتى به شريعة ؟ بل جاءت الشرائع بتقرير ما فى الفطر والعقول من قبحه الذى هو أقبح من كل قبيح ؟ وما السر فى كونه لا يغفره من بين سائر الذنوب ؟ كما قال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨] .

فتأمل هذا السؤال ، واجمع قلبك وذهنك على جوابه ولا تستهونه ، فإن به يحصل الفرق بين المشركين والموحدين ، والعالمين بالله والجاهليين به ، وأهل الجنة وأهل النار .

فنقول ، وبالله التوفيق والتأييد ، ومنه نسأل المعونة والتسديد ، فإنه من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادى له ، ولا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع .

الشرك شركان : شرك يتعلق بذات المعبود ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، وشرك فى عبادته ومعاملته ، وإن كان صاحبه يعتقد أنه سبحانه لا شريك له فى ذاته ، ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله .

والشرك الأول نوعان : أحدهما شرك التعطيل ، وهو أقبح أنواع الشرك .
كشرك فرعون إذ قال : ﴿ وما رب العالمين ؟ ﴾ [الشعراء : ٢٣] . وقال تعالى
مخبراً عنه أنه قال لهامان ﴿ وقال فرعون يا هامان ابني لي صرحاً لعلى أبلغ الأسباب ،
أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى ، وإني لأظنه كاذباً ﴾ [غافر : ٣٦ ، ٣٧]
والشرك والتعطيل متلازمان ، فكل مشرك معطل ، وكل معطل مشرك ، لكن الشرك
لا يستلزم أصل التعطيل ، بل قد يكون المشرك مقرأ بالخالق سبحانه وصفاته
ولكنه عطل حق التوحيد ، وأصل الشرك وقاعدته التي يرجع إليها : هو التعطيل ،
وهو ثلاثة أقسام : تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه ، وتعطيل الصانع سبحانه
عن كماله المقدس بتعطيل أسمائه وأوصافه وأفعاله ، وتعطيل معاملته عما يجب
على العبد من حقيقة التوحيد ، ومن هذا شرك طائفة أهل وحدة الوجود الذين
يقولون : ما ثم خالق ومخلوق ، ولا هاهنا شيئان ، بل الحق المنزه هو عين
الخلق المشبه ، ومنه شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديته ، وأنه لم يكن
معدوماً أصلاً ، بل لم يزل ولا يزال ، والحوادث بأسرها مستندة عندهم إلى
أسباب ووسائل اقتضت لإيجادها ، يسمونها بالعقول والنفوس ، ومن هذا شرك
من عطل أسماء الرب تعالى وأوصافه وأفعاله من غلاة الجهمية والقرامطة ،
فلم يثبتوا له اسماً ولا صفة ، بل جعلوا المخلوق أكمل منه ، إذ كمال الذات
بأسمائها وصفاتها .

فصل

النوع الثاني : شرك من جعل مع الله إلهاً آخر ولم يعطل أسمائه وصفاته
وربوبيته كشرك النصارى الذين جعلوه ثالث ثلاثة ، فجعلوا المسيح إلهاً ،
وأمه إلهاً .

ومن هذا شرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور ، وحوادث
الشر إلى الظلمة .

ومن هذا شرك القدرية القائلين بأن الحيوان هو الذى يخلق أفعال نفسه ،
وأنها تحدث بدون مشيئة الله وقدرته ، ولهذا كانوا أشباه المجوس .

ومن هذا شرك الذى حاج إبراهيم نى ربه ﴿ إذ قال إبراهيم : ربى الذى يحيى ويميت ، قال : أنا أحىي وأميت ﴾ [البقرة : ٢٥٨] فهذا جعل نفسه نداً لله ، يحيى ويميت بزعمه ، كما يحيى الله ويميت ، فالزمه إبراهيم أن طرد قولك أن تقدر على الإتيان بالشمس من غير الجهة التى يأتى بها الله منها ، وليس هذا انتقلاً كما زعم بعض أهل الجدل ، بل إلزاماً على طرد الدليل إن كان حقاً .
ومن هذا شرك كثير ممن يشرك بالكواكب العلويات ، ويجعلها أرباباً مدبرة
لأمر هذا العالم كما هو مذهب مشركى الصابئة وغيرهم .

ومن هذا شرك عباد الشمس وعباد النار وغيرهم .
ومن هؤلاء من يزعم أن معبوده هو الإله على الحقيقة ، ومنهم من يزعم أنه أكبر الآلهة ، ومنهم من يزعم أنه إله من جملة الآلهة ، وأنه إذا خصه بعبادته والتبتل إليه والانقطاع إليه أقبل عليه واعتنى به ، ومنهم من يزعم أنه معبوده الأدنى يقربه إلى المعبود الذى هو فوقه ، والفوقانى يقربه إلى من هو فوقه ، حتى يقربه تلك الآلهة إلى الله سبحانه وتعالى ، فتارة تكثر (الآلهة) والوسائط وتارة تقل .

فصل

وأما الشرك فى العبادة : فهو أسهل من هذا الشرك ، وأخف أمراً ، فإنه يصدر
من يعتقد أنه لا إله إلا الله ، وأنه لا يضر ولا ينفع ولا يعطى ولا يمنع إلا الله ،
وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ، ولكن لا يخلص الله فى معاملته وعبوديته ،
بل يعمل لحظ نفسه تارة ، ولطلب الدنيا تارة ، ولطلب الرفعة والمنزلة والجاه
عند الخلق تارة ، فله من عمله وسعيه نصيب ، ولنفسه وحظه وهواه نصيب ،

وللشيطان نصيب ، وللخلق نصيب ، وهذا حال أكثر الناس : وهو الشرك الذى قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن حبان فى صحيحه « الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل ، قالوا : كيف ننجو منه يا رسول الله ؟ قال : قل اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم » فالرياء كله شرك ، قال تعالى ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما ألهمكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ [الكهف : ١١٠] أى كما أنه إله واحد ، ولا إله سواه ، فكذلك ينبغى أن تكون العبادة له وحده ، فكما تفرد بالإلهية يجب أن يفرد بالعبودية ، فالعمل الصالح هو الخالى من الرياء المقيد بالسنة ، وكان من دعاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « اللهم اجعل عملى كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ولا تجعل لأحد فيه شيئاً » .

وهذا الشرك فى العبادة يبطل ثواب العمل ، وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجباً . فإنه ينزله منزلة من لم يعمله ، فيعاقب على ترك الأمر ، فإن الله سبحانه إنما أمر بعبادته خالصة ، قال تعالى ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ^(١) ﴾ [البينة : ٥] . فمن لم يخلص لله فى عبادته لم يفعل ما أمر به ، بل الذى أتى به شيء غير المأمور به ، فلا يصح ، ولا يقبل منه ، ويقول الله « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملاً أشرك معى فيه غيى ، فهو للذى أشرك به ، وأنا منه برىء » .

وهذا الشرك ينقسم إلى مغفور وغير مغفور ، وأكبر وأصغر ، والنوع الأول : ينقسم إلى كبير وأكبر . وليس شيء منه مغفور ، فمنه الشرك بالله فى المحبة والتعظيم أن يحب مخلوقاً كما يحب الله ، فهذا من الشرك الذى لا يغفره الله ،

(١) حنفاء : جمع حنيف ، وهو المستقيم غير المائل إلى التفريط ولا إلى الإفراط .

وهو الشرك الذى قال سبحانه فيه ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ [البقرة : ١٦٥] .
وقال أصحاب هذا الشرك لاكتهم وقد جمعهم الجحيم ﴿ تالله إن كنا لفي ضلال مبين ، إذ نُسوِّبكم رب العالمين ﴾ [الشعراء : ٩٧ ، ٩٨] .

ومعلوم أنهم ما سووهم به سبحانه فى الخلق ، والرزق ، والإماتة . والإحياء .
والملك ، والقدرة ، وإنما سووهم به فى الحب والتأله والخضوع لهم والتذلل .
وهذا غاية الجهل والظلم ، فكيف يُسوَّى التراب برب الأرباب ؟ وكيف يسوى العبيد بمالك الرقاب ؟ وكيف يسوى الفقير بالذات ، الضعيف بالذات . العاجز بالذات ، المحتاج بالذات ، الذى ليس له من ذاته إلا العدم ، بالغنى بالذات ، القادر بالذات ، الذى غناه ، وقدرته ، وملكه ، وجوده ، وإحسانه ، وعلمه ، ورحمته ، وكماله المطلق التام من لوازم ذاته ؟ .

فأى ظلم أقبح من هذا ؟ وأى حكم أشد جوراً منه ؟ حيث عدل من لا عدل له بخلقه ، كما قال تعالى ﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ [الأنعام : ١] فعدل المشرك من خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور . بمن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، فيالك من عدل تضمن أكبر الظلم وأقبحه !! .

فصل

ويتبع هذا الشرك الشرك به سبحانه فى الأفعال ، والآقوال ، والإرادات ، والنيات ، فالشرك فى الأفعال كالتسجود لغيره ، والطواف بغير بيته ، وحلق الرأس عبودية وخضوعاً لغيره ، وتقبيل الأحجار غير الحجر الأسود الذى هو يمين الله فى الأرض ، وتقبيل القبور ، واستلامها ، والسجود لها ، وقد لعن النبي

صلى الله عليه وسلم من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلى الله فيها ، فكيف بمن اتخذ القبور أوثاناً يعبدونها من دون الله ؟ .

ففى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

وفى الصحيح عنه : « إن من أشرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد » .

وفى الصحيح أيضاً عنه : « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك » .

وفى مسند الإمام أحمد رضى الله عنه ، وصحيح ابن حبان عنه صلى الله عليه وسلم قال « لعن الله زوَّارات القبور ، والمتخذين عليها المساجد والسرج » .

وقال : « اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

وقال : « إن من كان قبلكم كان إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ، وصوروا فيه تلك الصورة ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » .

فهذا حال من سجد لله فى مسجد على قبر ، فكيف حال من سجد للقبر نفسه ؟ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يُعبد » وقد حمى النبي صلى الله عليه وسلم جانب التوحيد أعظم حماية ، حتى نهى عن صلاة التطوع لله سبحانه عند طلوع الشمس وعند غروبها ، لئلا يكون ذريعة إلى التشبه بعباد الشمس الذين يسجدون لها فى هاتين الحالتين ، وسدَّ الذريعة بأن منع من الصلاة بعد العصر والصبح لاتصال هذين الوقتين بالوقتتين اللذين يسجد المشركون فيهما للشمس .

وأما السجود لغير الله فقال « لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد إلا لله » و « لا ينبغي » فى كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم للذى هو فى غاية الامتناع شرعاً ،

كقوله تعالى ﴿ وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدأ ﴾ [مريم : ٩٢] . وقوله : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغى له ﴾ [يس : ٦٩] . وقوله ﴿ وما تنزلت به الشياطين وما ينبغى لهم ﴾ [الشعراء : ٢١٠] وقوله عن الملائكة ﴿ ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ﴾ [الفرقان : ١٨] .

فصل

ومن الشرك به سبحانه الشرك به فى اللفظ ، كالحلف بغيره ، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « من حلف بغير الله فقد أشرك » صححه الحاكم وابن حبان .

ومن ذلك قول القائل للمخلوق : ما شاء الله وشئت ، كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال له رجل « ما شاء الله وشئت ، فقال : أجعلتنى لله ندا ؟ قل : ما شاء الله وحده » . هذا مع أن الله قد أثبت للعبد مشيئة كقوله : ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ [التكويد : ٢٨] . فكيف بمن يقول : أنا متوكل على الله وعليك ، وأنا فى حسب الله وحسبك ، ومالى إلا الله وأنت ، وهذا من الله ومنك ، وهذا من بركات الله وبركاتك ، والله لى فى السماء وأنت لى فى الأرض ، أو يقول : والله وحياة فلان ، أو يقول : ندرا لله ولفلان ، أو أنا نائب لله ولفلان ، أو أرجو الله ولفلاناً ، ونحو ذلك ؟ .

فوازن بين هذه الألفاظ وبين قول القائل : ما شاء الله وشئت ، ثم انظر أيهما أفحش ؟ يتبين لك أن قائلها أولى بجواب النبي صلى الله عليه وسلم لقائل تلك الكلمة ، وأنه إذا كان قد جعل لله نداً فهذا قد جعل من لا يدانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شىء من الأشياء - بل لعله أن يكون له من أعدائه - نداً لرب العالمين ، فالسجود والعبادة ، والتوكل ، والإنابة ، والتقوى ، والخشية ، والحسب ، والتوبة ، والنذر ، والحلف ، والتسبيح ، والتكبير ، والتهليل ، والتحميد ،

والاستغفار ، وحلق الرأس خضوعاً ونبهاً ، والطواف بالبيت ، والدعاء : كل ذلك محض حق الله الذي لا يصلح ولا ينبغي لسواه من ملك مقرب ولا نبي مرسل وفي مسند الإمام أحمد « أن رجلاً أتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم قد أذنب ذنباً ، فلما وقف بين يديه قال : اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد ، فقال : قد عرف الحق لأهله . »

فصل

وأما الشرك في الإرادات والنيات فذلك البحر الذي لا ساحل له ، وقَل من ينجو منه فمن أراد بعمله غير وجه الله ونوى شيئاً غير التقرب إليه ، وطلب الجزاء منه ، فقد أشرك في نيته وإرادته . والإخلاص : أن يخلص الله في أقواله وأفعاله وإرادته ونيته . وهذه هي الحنيفية ملة إبراهيم التي أمر الله بها عباده كلهم ، ولا يقبل من أحد غيرها وهي حقيقة الإسلام ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٥] وهي ملة إبراهيم التي من رغب عنها فهو من أسفه السفهاء .

فصل

إذا عرفت هذه المقدمة انفتح لك الجواب عن السؤال المذكور ، فنقول ، ومن الله وحده نستمد الصواب .

حقيقة الشرك : هو التشبه بالخالق والتشبيه للمخلوق به ، هذا هو التشبيه في الحقيقة ، لا لإثبات صفات الكمال التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسوله ، فعكس الأمر من نكس الله قلبه ، وعمى عين بصيرته ، وأركسه بكسبه ، وجعل التوحيد تشبيهاً ، والتشبيه تعظيماً وطاعة ، فالشرك مشبه للمخلوق بالخالق في خصائص الإلهية . فإن من خصائص الإلهية التفرد بملك الضر والنفع والعطاء

والمنع ، وذلك يوجب تعليق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل به وحده ، فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق ، وجعل ما لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً - فضلاً عن غيره - شبيهاً لمن له الأمر كله ، فأزمت الأمور كلها بيديه ، ومرجعها إليه ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، بل إذا فتح لعبده باب رحمته لم يمسكها أحد ، وإن أمسكها عنه لم يرسلها إليه أحد .

فمن أقبح التشبيه : تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات ، بالقادر الغنى بالذات ومن خصائص الإلهية : الكمال المطلق من جميع الوجوه ، الذى لا نقص فيه بوجه من الوجوه . وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده ، والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوبة والتوكل والاستعانة ، وغاية الدل مع غاية الحب ، كل ذلك عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون له وحده ، ويمنع عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون لغيره . فمن جعل شيئاً من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا مثيل له ولا ند له ، وذلك أقبح التشبيه وأبطله . ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم أخبر سبحانه عباده أنه لا يغفره ، مع أنه كتب على نفسه الرحمة .

ومن خصائص الإلهية : العبودية التى قامت على ساقين لا قوام لها بدونهما : غاية الحب ، مع غاية الدل ، هذا تمام العبودية ، وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم فى هذين الأصلين ، فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله فقد شبهه فى خالص حقه . وهذا من المحال أن تجيء به شريعة من الشرائع ، وقبحه مستقر فى كل قطرة وعقل ، ولكن غيرت الشياطين فطر أكثر الخلق وعقولهم ، وأفسدتهم عليهم واجتالتهم ^(١) عنها ، ومضى على الفطرة الأولى من

(١) اجتالتهم الشياطين : أى استخفتهم وركبتهم وجالت بهم حيث شاءت من السفه والضلal ، فجالوا معهم وبعادوا عن الفطرة السليمة .

سبقته له من الله الحسنى ، فأرسل إليهم رسله ، وأنزل عليهم كتبه بما يوافق
فطرهم وعقولهم فازدادوا بذلك نوراً على نور ﴿ يهدى الله لنوره من يشاء ﴾ ،
[النور : ٣٥]

إذا عرف هذا فمن خصائص الإلهية السجود ، فمن سجد لغيره فقد شبه
المخلوق به .

ومنها : التوكل ، فمن توكل على غيره فقد شبهه به . ومنها : التوبة ،
فمن تاب لغيره فقد شبهه به .

ومنها : الحلف باسمه تعظيماً وإجلالاً له ، فمن حلف بغيره فقد شبهه به .
هذا في جانب التشبيه .

وأما في جانب التشبه به : فمن تعاضم وتكبر ودعا الناس إلى إطرائه في
المدح والتعظيم والخضوع والرجاء ، وتعليق القلب به خوفاً ورجاء والتجاء
واستعانة فقد تشبه بالله ونازعه في ربوبيته وإلهيته ، وهو حقيق بأن يهينه الله
غاية الهوان ، ويذله غاية الذل ، ويجعله تحت أقدام خلقه .

وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله عز وجل : العظمة
لإزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى واحداً منهما عذبتة » وإذا كان المصور
الذى يصنع الصورة بيده من أشد الناس عذاباً يوم القيامة لتشبهه بالله في مجرد
الصنعة ، فما الظن بالتشبه بالله في الربوبية والإلهية ؟ كما قال النبي صلى الله
عليه وسلم « أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون ، يقال لهم أحيوا ما خلقتم »
وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « قال الله عز وجل : ومن
أظلم ممن ذهب يخلق خلقاً كخلقى ، فليخلقوا ذرة ، فليخلقوا شعيرة » فنبه بالنرة
والشعيرة على ما هو أعظم منها وأكبر .

والمقصود : أن هذا حال من تشبه به في صنعة صورة ، فكيف حال من تشبه

به في خواص ربوبيته وإلهيته ؟ وكذلك من تشبه في الاسم الذي لا ينبغي إلا لله وحده ، كملك الأملاك ، وحاكم الأحكام ، ونحوه

وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن أخضع الأسماء ^(١) عند الله رجل يسمى : بشاهان شاه - أى ملك الملوك - لا ملك إلا الله » وفي لفظ « أغبط رجل على الله رجل يسمى بملك الأملاك » .

فهذا مقت الله وغضبه على من تشبه به في الاسم الذي لا ينبغي إلا له ، فهو سبحانه ملك الملوك وحده وهو حاكم الحكام وحده ، فهو الذي يحكم على الحكام كلهم ، ويقضى عليهم كلهم ، لا غيره .

فصل

إذا تبين هذا فهنا أصل عظيم يكشف سر المسألة ، وهو أن أعظم الذنوب عند الله إساءة الظن به ، فإن المسيء به الظن قد ظن به خلاف كماله المقدس وظن به ما يناقض أسماه وصفاته ، ولهذا توعده الله سبحانه الظانين به ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهم ، كما قال تعالى ﴿ عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساعت مصيراً ﴾ [الفتح : ٦] . وقال تعالى لمن أنكر صفة من صفاته ﴿ وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ﴾ [فصلت : ٢٣] . وقال تعالى عن خليله إبراهيم أنه قال لقومه ﴿ ماذا تعبدون ؟ أفكأ آلهة دون الله تريدون ؟ فما ظنكم برب العالمين ﴾ [الصافات : ٨٥ - ٨٧] أى فما ظنكم أن يجازيكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره ؟ وما ظننتم به حتى عبدتم معه غيره ؟ وما ظننتم بأسمائه وصفاته وربوبيته من النقص حتى أحوجكم ذلك إلى عبودية غيره ؟ فلو ظننتم به ما هو أهله من أنه بكل شيء عليم ، وهو على كل شيء قدير ، وأنه غنى عن كل ما سواه ، وكل ما سواه فقير إليه ،

(١) أى أحقرها .

وأنه بالقسط على خلقه ، وأنه المنفرد بتدبير خلقه لا يشركه فيه غيره ، والعالم بتفاصيل الأمور ، فلا يخفى عليه خافية من خلقه ، والكافي لهم وحده ، فلا يحتاج إلى معين ، والرحمن بذاته ، فلا يحتاج في رحمته إلى من يستعطفه ، وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء ، فإنهم يحتاجون إلى من يعرفهم أحوال الرعية وحوائجهم ، ويعينهم على قضاء حوائجهم ، وإلى من يسترحمهم ويستعطفهم بالشفاعة ، فاحتاجوا إلى الوسائط ضرورة لحاجتهم وضعفهم وعجزهم وقصور علمهم ، فأما القادر على كل شيء ، الغنى بذاته عن كل شيء ، العالم بكل شيء ، الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء ، فإدخال الوسائط بينه وبين خلقه تنقص بحق ربوبيته وإلهيته وتوحيده وظن به ظن السوء ، وهذا يستحيل أن يشرعه لعباده ، ويمتنع في العقول والفطر جوازه ، وقبحه مستقر في العقول السليمة فوق كل قبيح .

ويوضح هذا : أن العابد معظم لمعبوده ، مثاله له ، خاضع ذليل له ، والرب تعالى وحده هو الذي يستحق كمال التعظيم والإجلال والتأله والخضوع والذل ، وهذا خالص حقه ، فمن أقبح الظلم أن يعطى حقه لغيره ، أو يشرك بينه وبينه فيه ، ولا سيما إذا كان الذي جعل شريكه في حقه هو عبده ومملوكه ، كما قال تعالى ﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم ، هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾ [الروم : ٢٨] أى إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكه شريكه في رزقه ، فكيف تجعلون لى من عبيدى شركاء فيما أنا منفرد به وهو الإلهية ، التى لا تنبغى لغيرى ، ولا تصح لسواى ؟ .

فمن زعم ذلك فما قدرنى حق قدرى ، ولا عظمى حق تعظيمى ، ولا أفردنى بما أنا منفرد به وحدى دون خلقى فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيرى ،

كما قال تعالى ﴿ يا أيها الناس ضُرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ، ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقلوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب . ما قدروا الله حق قدره ، إن الله لقوى عزيز ﴾ [الحج : ٧٣ ، ٧٤] فما قدر الله حق قدره من عبده معه غيره من لا يقدر على خلق أضعف حيوان وأصغره ، وإن سلبه الذباب شيئاً مما عليه لم يقدر على استنقاذه منه ، وقال تعالى ﴿ وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسموات مطوياتٌ بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ [الزمر : ٦٧] فما قدر من هذا شأنه وعظمته حق قدره من أشرك معه في عبادته من ليس له شيء من ذلك ألبتة ، بل هو أعجز شيء وأضعفه ، فما قدر القوى العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الدليل .

وكذلك ما قدره حق قدره من قال : إنه لم يرسل إلى خلقه رسولا ، ولا أنزل كتاباً ، بل نسبه إلى ما لا يليق به ولا يحسن منه من إهمال خلقه وتضييعهم وتركهم سدى ، وخلقهم باطلاً وعبثاً ، ولا قدره حق قدره من نبى خفائى أسائه الحسنى وصفاته العلى ، فنفى سمعه وبصره وإرادته واختياره وعلوه فوق خلقه ، وكلامه وتكليمه لمن شاء من خلقه بما يريد ، أو نفى عموم قدرته وتعلقها بأفعال عباده من طاعتهم ومعاصيهم ، فأخرجها عن قدرته وعشيته وخلقهم ، وجعلهم يخلقون لأنفسهم ما يشاءون بدون مشيئة الرب ، فيكون فى ملكه ما لا يشاء ، ويشاء ما لا يكون ، تعالى الله عن قول أشباه المجوس علواً كبيراً .

وكذلك ما قدره حق قدره من قال : إنه يعاقب عبده على ما لا يفعله العبد ، ولا له عليه قدرة ، ولا تأثير له فيه ألبتة ، بل هو نفس فعل الرب جل جلاله ، فيعاقب عبده على فعله هو سبحانه الذى جبر العبد عليه ، وجبره على الفعل أعظم من إكراه المخلوق للمخلوق ، وإذا كان من المستقر فى الفطر والعقول أن

السيد لو أكره عبده على فعل أو ألجأه إليه ثم عاقبه عليه لكان قبيحاً ، فأعدل
العادلين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين كيف يجبر العبد على فعل لا يكون
للعبد فيه صنع ولا تأثير . ولا هو واقع بإرادته ، بل ولا هو فعله ألبتة ، ثم
يعاقبه عليه عقوبة الأبد ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وقول هؤلاء شر من
أقوال المجوس ، والطائفتان ما قدروا الله حق قدره .

وكذلك ما قدره حق قدره من لم يصنه عن نتن ولا حش^(١) ولا مكان يرغب
عن ذكره ، بل جعله في كل مكان ، وصانه عن عرشه أن يكون مستوياً عليه
﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ [فاطر : ١٠] . وتخرج الملائكة
والروح إليه ، وتنزل من عنده ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه ﴾
[السجدة : ٥] فصانه عن استوائه على سرير الملك ، ثم جعله في كل مكان
يأنف الإنسان ، بل غيره من الحيوان ، أن يكون فيه ، وما قدر الله حق قدره من
نفي حقيقة محبته ورحمته ورأفته ورضاه وغضبه ومقتته ، ولا من نفي حقيقة
حكيمته التي هي الغايات المحمودة المقصودة بفعله ، ولا من نفي حقيقة فعله ،
ولم يجعل له فعلاً اختيارياً يقوم به ، بل أفعاله مفعولات منفصلة عنه ، فنفي
حقيقة مجيئه وإتيانه واستوائه على عرشه ، وتكليمه موسى من جانب الطور ،
ومجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده بنفسه ، إلى غير ذلك من أفعاله
وأوصاف كماله التي نفوها ، وزعموا أنهم بنفيها قد قدروه حق قدره .

وكذلك لم يقدره حق قدره من جعل له صاحبة وولداً ، أو جعله سبحانه يحل
في مخلوقاته ، أو جعله عين هذا الوجود .

وكذلك لم يقدره حق قدره من قال : إنه رفع أعداء رسول الله صلى الله عليه
وسلم وأهل بيته وأعلى ذكركم ، وجعل فيهم الملك والخلافة والعز ، ووضع أولياء

(١) الحش : بيت الخلاه الذي تقضى فيه الحاجة .

رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته وأهائهم وأذهم وضرب عليهم الذلة
أيها تُقفوا . وهذا يتضمن غاية القدح في جناب الرب ، تعالى عن قول الرافضة
علواً كبيراً .

وهذا القول مشتق من قول اليهود والنصارى في رب العالمين : أنه أرسل ملكاً
ظالماً ، فادعى النبوة لنفسه ، وكذب على الله ، ومكث زمناً طويلاً يكذب عليه
كل وقت ، ويقول : قال الله كذا ، وأمر بكذا ، ونهى عن كذا ، وينسخ شرائع
أنبيائه ورسله ، ويستبيح دماء أتباعهم وأموالهم وحریمهم ، ويقول : الله أباح
لى ذلك ، والرب تعالى يظهره ويؤيده ويعليه ، ويعزه ويجيب دعواته ، ويمكنه
من خالفه ، ويقم الأدلة على صدقه ، ولا يعاديه أحد إلا ظفر به ، فيصدقه
بقوله وفعله وتقريره ، ويحدث أدلة تصديقه شيئاً بعد شيء .

ومعلوم أن هذا يتضمن أعظم القدح والظعن في الرب سبحانه وتعالى وعلمه
وحكمته ورحمته وربوبيته ، تعالى عن قول الجاحدين علواً كبيراً .

فوازن بين قول هؤلاء وقول إخوانهم من الرافضة تجد القولين ، كما قال
الشاعر :

رضيعة لبان ثدى أم تقاسما بأسهم داج عوض لا نتفرق
وكذلك لم يقدره حق قدره من قال : إنه يجوز أن يعذب أوليائه ومن لم
يعصه طرفة عين ويدخلهم دار الجحيم ، وينعم أعدائه ومن لم يؤمن به طرفة عين
ويدخلهم دار النعيم ، وأن كلا الأمرين بالنسبة إليه سواء ، وإنما الخبر المحض
جاء عنه بخلاف ذلك ، فمنعناه للخبر لا لمخالفة حكمته وعدله . وقد أنكر
سبحانه في كتابه على من جوز عليه ذلك غاية الإنكار ، وجعل الحكم به من
أسوأ الأحكام . قال تعالى ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك
ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار ، أم نجعل الذين آمنوا وعملوا

الصالحات كالمفسدين في الأرض ؟ أم نجعل المتقين كالفجار ؟ [ص : ٢٧ - ٢٨] . وقال ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ؟ سناء ما يحكمون ، وخلق الله السموات والأرض بالحق ، ولتجزى كل نفس بما كسبت ، وهم لا يظلمون ﴾ [الجاثية : ٢١ ، ٢٢] . وقال ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ مالكم كيف تحكمون ؟ ﴾ [القلم : ٣٥ ، ٣٦] .

وكذلك لم يقدره حق قدره من زعم أنه لا يحيي الموتى ، ولا يبعث من في القبور ، ولا يجمع خلقه ليوم يجازى المحسن فيه بإحسانه والمسيء بإساءته ، ويأخذ للمظلوم فيه حقه من ظالمه ، ويكرم المتحملين للمشاق في هذه الدار من أجله وفي مرضاته بأفضل كرامته ، ويبين لخلق الله الذي يختلفون فيه ، ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين .

وكذلك لم يقدر حق قدره من هان عليه أمره فعصاه ، ونهيه فارتكبه ، وحقه فضيعه ، وذكره فأهمله ، وغفل قلبه عنه ، وكان هواه أثر عنده من طلب رضاه وطاعة المخلوق أهم من طاعته ، فله الفضلة من قلبه وقوله وعمله ، هواه المقدم في ذلك لأنه المهم عنده ، يستخف بنظر الله إليه وإطلاعه عليه وهو في قبضته ، وناصيته بيده ، ويعظم نظر المخلوق إليه وإطلاعه عليه بكل قلبه وجوارحه ، يستحي من الناس ولا يستحي من الله ، ويخشى الناس ولا يخشى الله ، ويعامل الخلق بأفضل ما يقدر عليه ، وإن عامل الله عامله بأهون ما عنده وأحقره ، وإن قام في خدمة من يعبه من البشر قام بالجد والاجتهاد وبذل النصيحة ، وقد أفرغ له قلبه وجوارحه ، وقدمه على كثير من مصالحه ، حتى إذا قام في حق ربه - إن ساعد القدر - قام قياماً لا يرضاه مخلوق من مخلوق مثله ، وبذل له من ماله ما يستحي أن يواجه به مخلوق مثله ، فهل قدر الله حق قدره من هذا وصفه ؟

وهل قدره حق قدره من شارك بينه وبين عدوه في محض حقه من الإجلال والتعظيم والطاعة والذل والخضوع والخوف والرجاء ؟ فلو جعل له من أقرب الخلق إليه شريكاً في ذلك لكان ذلك جراءة وتوثباً على محض حقه ، واستهانة به ، وتشريكاً بينه وبين غيره فيما لا ينبغي ولا يصلح إلا له سبحانه فكيف وإنما شرك بينه وبين أبغض الخلق إليه ، وأهونهم عليه ، وأمقتهم عنده ، وهو عدوه على الحقيقة ؟ فإنه ما عبد من دون الله إلا الشيطان ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ آعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ؟ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [يس : ٦٠ - ٦١] . ولما عبد المشركون الملائكة يزعمهم وقعت عبادتهم في نفس الأمر للشياطين ، وهم يظنون أنهم يعبدون الملائكة ، كما قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ : أَهَؤُلَاءِ إِلَاكُمْ . كَانُوا يَعْبُدُونَ ؟ قَالُوا : سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِينَا مِنْ دُونِهِمْ ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ، أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ [سَبَأُ : ٤٠ ، ٤١] فالشيطان يدعو المشرك إلى عبادته ، ويوهمه أنه ملك ، وكذلك عبادة الشمس والقمر والكواكب يزعمون أنهم يعبدون روحانيات هذه الكواكب . وهي التي تخاطبهم ، وتقضي لهم الحوائج ، ولهذا إذا طلعت الشمس قارنها الشيطان فيسجد لها الكفار ، فيقع سجودهم له ، وكذلك عند غروبها ، وكذلك من عبد المسيح وأمه لم يعبدهما وإنما عبد الشيطان ، فإنه يزعم أنه يعبد من أمره بعبادته وعباد أمه ، ورضيها لهم وأمرهم بها ، وهذا هو الشيطان الرجيم ، لا عبد الله ورسوله ، فنزل هذا كله على قوله تعالى ﴿ أَلَمْ آعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ ، أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ؟ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ، وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [يس : ٦٠ - ٦١] . فما عبد أحد من بني آدم غير الله كائناً من كان إلا وقعت عبادته للشيطان^(١) فيستمتع العابد

(١) ويدل لذلك أيضاً قوله تعالى على لسان إبراهيم لأبيه : ﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً ﴾ (مريم : ٤٤) .

بالمعبود في حصول غرضه ، ولهذا قال تعالى ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس — أى من إغوائهم وإضلالهم — ﴾ وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضهم ببعض ، وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا ، قال : النار مثواكم خالدين فيها ، إلا ما شاء الله ، إن ربك حكيم عليم ﴾ . [الأنعام : ١٢٨]
فهذه إشارة لطيفة إلى السر الذى لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله ، وأنه لا يغفر بغير التوبة منه ، وأنه يوجب الخلود في العذاب ، وأنه ليس تحريره وقبحه لمجرد النهى عنه ، بل يستحيل على الله سبحانه أن يشرع لعباده عبادة إله غيره ، كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله ونعوت جلاله ، وكيف يظن بالمتفرد بالربوبية والإلهية والعظمة والجلال أن يأذن في مشاركته في ذلك ، أو يرضى به ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

فصل

فلما كان الشرك أكبر شيء منافاة للأمر الذى خلق الله له الخلق ، وأمر لأجله بالأمر ، كان أكبر الكبائر عند الله ، وكذلك الكبر وتوابعه كما تقدم ، فإن الله سبحانه خلق الخلق ، وأنزل الكتاب ، لتكون الطاعة له وحده . والشرك والكبر ينافيان ذلك ، وكذلك حرم الله الجنة على أهل الشرك والكبر فلا يدخلها من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر .

فصل

ويلي ذلك في كبر المفسدة : القول على الله بلا علم في أميائه وصفاته وأفعاله .
ووصفه بضد ما وصف به نفسه ووصفه به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهذا أشد شيء مناقضة ومنافاة لكمال من له الخلق والأمر ، وقدح في نفس الربوبية وخصائص الرب ، فإن صدر ذلك عن علم فهو عناد أقبح من الشرك وأعظم إثمًا

عند الله ، فإن المشرك المقر بصفات الرب خير من المعطل الجاحد لصفات كماله ؟
كما أن من أقر للملك بالملك ، ولم يجحد ملكه ولا الصفات التي استحق بها الملك ،
لكن جعل معه شريكاً في بعض الأمور يقربه إليه ، خير ممن جحد صفات الملك ،
وما يكون به ملكاً ، هذا أمر مستقر في سائر الفطر والعقول .

فأين القدح في صفات الكمال والجحد لها من عبادة واسطة بين المعبود الحق
وبين العابد يتقرب إليه بعبادة تلك الواسطة إعظاماً له وإجلالا ؟ .

فداء التعطيل هذا الداء العضال الذي لا دواء له . ولهذا حكى الله عن إمام
المعطلة فرعون أنه أنكر على موسى ما أخبر به من أن ربه فوق السموات ، فقال :
﴿ يا هامان ابن لي صرحاً لعلّي أبليغ الأسباب ، أسباب السموات ، فأطلع إلى إله
موسى . وإنّي لأظنه كاذباً ﴾ [غافر : ٣٦ ، ٣٧] . واحتج الشيخ أبو الحسن
الأشعري في كتبه على المعطلة بهذه الآية . وقد ذكرنا لفظه في غير هذا الكتاب^(١) ،
والقول على الله بلا علم والشرك متلازمان . ولما كانت البدع المضلة جهلاً
بصفات الله وتكذيباً بما أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسول الله صلى الله عليه
وسلم عناداً وجهلاً كانت من أكبر الكبائر ، وإن قصرت عن الكفر ، وكانت
أحب إلى إبليس من كبائر الذنوب ، كما قال بعض السلف « البدعة أحب إلى
إبليس من المعصية لأن المعصية يتاب منها والبدع لا يتاب منها » . وقال إبليس
« أهلك بني آدم بالذنوب ، وأهلكوني بالاستغفار وبلا إله إلا الله ، فلما
رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء ، فهم يذنبون ولا يتوبون لأنهم يحسبون أنهم
يحسنون صنعا » .

ومعلوم أن المذنب إنما ضرره على نفسه ، وأما المبتدع فضرره على النوع ،
وفتنة المبتدع في أصل الدين ، وفتنة المذنب في الشهوة ، والمبتدع قد قعد للناس

(١) ذكره الشيخ في كتاب « اجتماع الجيوش الإسلامية ، على حرب المعطلة والجهمية » .

على صراط الله المستقيم يصدّهم عنه ، والمذنب ليس كذلك . والمبتدع قاذح في
أوصاف الرب وكماله ، والمذنب ليس كذلك ، والمبتدع يقطع على الناس طريق
الآخرة ، والعاصي بطيء السير بسبب ذنوبه .

فصل

ثم لما كان الظلم والعدوان منافيين للعدل الذي به قامت السموات والأرض ،
وأرسل الله سبحانه رسله عليهم الصلاة والسلام وأنزل كتبه ليقوم الناس به كان
من أكبر الكبائر عند الله ، وكانت درجته في العظمة بحسب مفسدته في نفسه ،
وكان قتل الإنسان ولده الطفل الصغير الذي لا ذنب له - وقد جبل الله سبحانه
القلوب على محبته ورحمته وعطفها عليهم ، وخص الوالدين من ذلك بمزية
ظاهرة ، فقتله خشية أن يشاركه في مطعمه ومشربه وماله - من أقبح الظلم وأشده
وكذلك قتله أبويه اللذين كانا سبب وجوده ، وكذلك قتله ذا رحمه ،
وتتفاوت درجات القتل بحسب قبحه واستحقاق من قتله للسعي في إبقائه
ونصيحته ، ولهذا كان أشد الناس عذاباً يوم القيامة من قتل نبياً أو قتله نبي
ويليه من قتل إماماً أو عالماً يأمر الناس بالقسط ، ويدعوهم إلى الله سبحانه ،
وينصحهم في دينهم ، وقد جعل الله سبحانه جزاء قتل النفس المؤمنة عمداً
الخلود في النار ، وغضب الجبار ، ولعنته وإعداد العذاب العظيم له ، هذا موجب
قتل المؤمن عمداً ما لم يمنع منه مانع . ولا خلاف أن الإسلام الواقع بعد القتل
طوعاً واختياراً مانع من نفوذ ذلك الجزاء وهل تمنع توبة المسلم منه بعد وقوعه ؟
فيه قولان للسلف والخلف ، وهما روايتان عن الإمام أحمد .

والذين قالوا لا تمنع التوبة من نفوذه رأوا أنه حق لا دمي لم يستوفه في دار
الدنيا ، وخرج منها بظلامته ، فلا بد أن يستوفي له في دار العدل .

قالوا : وما استوفاه الوارث فإنما استوفى محض حقه الذي خيره الله بين

استيفائه والعفو عنه ، وما ينفع المقتول من استيفاء وارثه ؟ وأنى استدراك لظلامته حصل له باستيفاء وارثه ؟ .

وهذا أصح القولين في المسألة : أن حق المقتول لا يسقط باستيفاء الوارث ، وهما وجهان لأصحاب أحمد والشافعي وغيرهما .

ورأت طائفة أنه يسقط بالتوبة واستيفاء الوارث ، فإن التوبة تهدم ما قبلها ، والذنب الذى قد جناه قد أقيم عليه حده .

قالوا : وإذا كانت التوبة تمحو أثر الكفر والسحر ، وهما أعظم إثماً من القتل ، فكيف تقصر عن محو أثر القتل ؟ وقد قبل الله توبة الكفار الذين قتلوا أوليائهم ، وجعلهم من خيار عباده ، ودعا الذين أحرقوا أوليائهم وفتنهم عن دينهم إلى التوبة . وقال تعالى : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ [الزمر : ٥٣] فهذه فى حق التائب وهى تتناول الكفر وما دونه .

قالوا : وكيف يتوب العبد من الذنب ويعاقب عليه بعد التوبة ؟ هذا معلوم انتفاؤه فى شرع الله وجزائه .

قالوا : وتوبة هذا المذنب تسليم نفسه ، ولا يمكن تسليمها إلى المقتول فأقام الشارع وليه مقامه ، وجعل تسليم النفس إليه كتسليمها إلى المقتول ، بمنزلة تسليم المال الذى عليه لوارثه ، فإنه يقوم مقام تسليمه للموروث .

والتحقيق فى المسألة : أن القتل يتعلق به ثلاث حقوق : حق الله ، وحق للمقتول ، وحق للولى ، فإذا سلم القاتل نفسه طوعاً واختياراً إلى الولى ندماً على ما فعل ، وخوفاً من الله ، وتوبة نصوحاً ، سقط حق الله بالتوبة ، وحق الولى بالاستيفاء أو الصلح أو العفو . وبقي حق المقتول يعوضه الله عنه يوم القيامة عن عبده التائب المحسن ، ويصلح بينه وبينه ، فلا يبطل حق هذا ، ولا تبطل توبة هذا .

وأما مسألة المال فقد اختلف فيها ، فقالت طائفة : إذا أدى ما عليه من المال إلى الوارث برئ من عهده في الآخرة ، كما برئ منها في الدنيا .
وقالت طائفة : بل المطالبة لمن ظلمه بأخذه باقية عليه يوم القيامة ، وهو لم يستدرك ظلامته بأخذ وارثه له ، فإنه منعه من انتفاعه به طول حياته ، ومات ولم ينتفع به . وهذا ظلم لم يستدركه ، وإنما ينتفع غيره باستدراكه ، وبنوا على هذا أنه لو انتقل المال من واحد إلى واحد وتعدد الورثة . كانت المطالبة به للجميع ، لأنه حق كان يجب عليه دفعه إلى كل واحد منهم عند كونه هو الوارث . وهذا قول طائفة من أصحاب مالك وأحمد .

وفصل شيخنا رحمه الله بين الطائفتين ، فقال : إن تمكن الموروث من أخذ ماله أو المطالبة به فلم يأخذه حتى مات ، صارت المطالبة به للوارث في الآخرة ، كما هي كذلك في الدنيا ، وإن لم يتمكن من طلبه وأخذه ، بل حال بينه وبينه ظلماً وعدواناً ، فالطلب له في الآخرة .

وهذا التفصيل من أحسن ما يقال ، فإن المال إذا استهلكه الظالم على الموروث وتعذر عليه أخذه منه صار بمنزلة عبده الذي قتله قاتل ، وداره التي أحرقها غيره ، وطعامه وشرابه الذي أكله وشربه غيره . ومثل هذا إنما تلف على الموروث لا على الوارث ، فحق المطالبة لمن تلف على ملكه . يبقى أن يقال : فإذا كان المال عقاراً أو أرضاً أو أعياناً قائمة باقية بعد الموت ، فهي ملك الوارث يجب على الغاصب دفعها إليه كل وقت ، فإذا لم يدفع إليه أعيان ماله استحق المطالبة بها عند الله تعالى كما يستحق المطالبة بها في الدنيا .

وهذا سؤال قوى لا مخلص منه إلا بأن يقال : المطالبة لهما جميعاً ، كما لو غصب مالا مشتركاً بين جماعة استحق كل منهم المطالبة لحقه منه ، وكما لو استولى على وقف مرتب على بطون فأبطل حق البطون كلهم منه كانت المطالبة يوم القيامة لجميعهم ولم يكن بعضهم أولى بها من بعض ، والله أعلم .

فصل

ولما كانت مفسدة القتل هذه المفسدة ، قال الله تعالى ﴿ من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ﴾ [المائدة : ٣٢] .

وقد أشكل فهم هذا على كثير من الناس ، وقال : معلوم أن لائم قاتل مائة أعظم عند الله من لائم قاتل نفس واحدة ، وإنما أتوه من ظنهم أن التشبيه في مقدار الإثم والعقوبة ، واللفظ يدل على هذا ، ولا يلزم من تشبيه الشيء بالشيء أخذه بجميع أحكامه . وقد قال تعالى ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ [النازعات : ٤٦] . وقال تعالى ﴿ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ﴾ [الأحقاف : ٣٥] وذلك لا يوجب أن لبثهم في الدنيا إنما كان هذا المقدار . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ، ومن صلى الفجر في جماعة فكأنما قام الليل كله » .

أي مع العشاء كما جاء في لفظ آخر . وأصرح من هذا قوله « من صام رمضان وأتبعه بست من شوال فكأنما صام الدهر » . وقوله صلى الله عليه وسلم « من قرأ : قل هو الله أحد فكأنما قرأ ثلث القرآن » ومعلوم أن ثواب فاعل هذه الأشياء لم يبلغ ثواب المشبه به ، فيكون قدرهما سواء ، ولو كان قدر الثواب سواء لم يكن لمصلي العشاء والفجر جماعة في قيام الليل منفعة غير التعب والنصب وما أوتي أحد - بعد الإيمان - أفضل من الفهم عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

فلإن قيل : ففي أي شيء وقع التشبيه بين قاتل نفس واحدة وقاتل الناس جميعاً ؟ قيل ، في وجوه متعددة :

أحدها : أن كلا منهما عاص لله ورسوله صلى الله عليه وسلم مخالف لأمره ،

متعرض لعقوبته ، وكل منهما قد باء بغضب الله ولعنته ، واستحقاق الخلود في نار جهنم ، وإعداده له عذاباً عظيماً ، وإنما التفاوت في دركات العذاب ، فليس إثم من قتل نبياً أو إماماً عادلاً أو عالماً يأمر الناس بالقسط كإثم من قتل من لا مزية له من آحاد الناس .

الثاني : أنهما سواء لاستحقاق إزهاق النفس .

الثالث : أنهما سواء في الجراءة على سفك الدم الحرام ، فإن من قتل نفساً بغير استحقاق ، بل لمجرد الفساد في الأرض أو لأخذ ماله ، فإنه يجترئ على قتل كل من ظفر به وأمكنه قتله ، فهو معاد للنوع الإنساني .
ومنها : أنه يسمى قاتلاً أو فاسقاً أو ظالماً أو عاصياً بقتله واحداً ، كما يسمى كذلك بقتله الناس جميعاً .

ومنها : أن الله سبحانه جعل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر . فإذا أتلّف القاتل من هذا الجسد عضواً فكأنما أتلّف سائر الجسد ، وآلم جميع أعضائه ، فمن آذى مؤمناً واحداً فكأنما آذى جميع المؤمنين ، وفي آذى جميع المؤمنين آذى جميع الناس ، فإن الله يدافع عن الناس بالمؤمنين الذين بينهم ، فأيداء الخفير إيداء المخفور . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تقتل نفس ظلماً بغير حق إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ ^(١) من دمه ، لأنه أول من سنّ القتل » . ولم يجئ هذا الوعيد في أول زانٍ ولا أول سارق ولا أول شارب مسكر . وإن كان أول المشركين قد يكون أولى بذلك من أول قاتل ، لأنه أول من سنّ الشرك ، ولهذا رأى النبي صلى الله عليه وسلم عمر بن لحي الخزاعي يعذب بأعظم العذاب في النار ، لأنه أول من غير دين إبراهيم عليه السلام . وقد قال تعالى ولا تكونوا

(١) الكفل - بكسر الكاف وسكون الفاء - : النصيب .

أول كافر به [البقرة : ٤١] أى فيقتدى بكم من بعدكم فيكون لائم كضربه عليكم ، وكذلك حكم من سن سنة سيئة فاتبع عليها .

وفى جامع الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يجرى المقتول بالقاتل يوم القيامة ، ناصيته ورأسه بيده ، وأوداجه تشخب دماً ، يقول : يارب ، سل هذا : فيم قتلنى ؟ فذكروا لابن عباس التوبة ، فتلا هذه الآية ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ﴾ [النساء : ٩٣] ثم قال : « ما نسخت هذه الآية ولا بدلت وأنى له التوبة ؟ » . وقال الترمذى هذا حديث حسن .

وفيه أيضاً : عن نافع قال « نظر عبد الله بن عمر يوماً إلى الكعبة ، قال : ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والمؤمنون عند الله أعظم حرمة منك » . قال : هذا حديث حسن .

وفى صحيح البخارى عن سمرة بن جندب قال « أول ما ينتن من الإنسان بطنه ، فمن استطاع منكم أن لا يأكل إلا طيباً فليفعل ، ومن استطاع أن لا يحول بينه وبين الجنة ملء كف من دم أهراقه فليفعل » .

وفى صحيحه أيضاً عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يزال المؤمن فى فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً » . وذكر البخارى أيضاً عن ابن عمر قال « من ورطت الأمور التى لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله » .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة يرفعه « سباب المسلم ^(١) فسوق وقتاله كفر » . وفيهما أيضاً عنه صلى الله عليه وسلم « لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » .

(١) فى نسخة : « سباب المؤمن - إلخ » .

وفي صحيح البخارى عنه صلى الله عليه وسلم « من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً » .

هذه عقوبة قاتل عدو الله إذا كان في عهده وأمانه ، فكيف عقوبة قاتل عبده المؤمن ؟ وإذا كانت امرأة قد دخلت النار في هرة حبستها حتى ماتت جوعاً وعطشاً ، فرأها النبي صلى الله عليه وسلم في النار والهرة تغلشها في وجهها وصلبرها ، فكيف عقوبة من حبس مؤمناً حتى مات بغير جرم ؟ وفي بعض السنن عنه صلى الله عليه وسلم « لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل مؤمن بغير حق » .

فصل

ولما كانت مفسدة الزنى من أعظم المفساد ، وهى منافية لمصلحة نظام العالم في حفظ الأنساب ، وحماية الفروج ، وصيانة الحرمات ، وتوقى ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس ، من إفساد كل منهم امرأة صاحبه وابنته وأخته وأمه ، وفي ذلك خراب العالم . كانت تلى مفسدة القتل في الكبر ، ولهذا قرنها الله سبحانه بها في كتابه ، ورسوله صلى الله عليه وسلم في سننه كما تقدم .

قال الإمام أحمد : ولا أعلم بعد قتل النفس شيئاً أعظم من الزنى . وقد أكد سبحانه حرمة بقوله ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ، ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً ، إلا من تاب ﴾ [الفرقان : ٦٨ - ٧٠] . فقرن الزنى بالشرك وقتل النفس ، وجعل جزاء ذلك الخلود في العذاب المضاعف ، ما لم يرفع العبد موجب ذلك بالتوبة والإيمان والعمل الصالح ، وقد قال تعالى : ﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾ [الإسراء : ٣٢] . فأخبر عن فحشه في نفسه وهو القبيح الذى قد تنهى قبحه حتى استقر فحشه في العقول حتى عند كثير من الحيوان ، كما ذكر البخارى في صحيحه عن عمرو بن ميمون

الأودى قال « رأيت في الجاهلية قرداً زنى بقردة ، فاجتمع القرود عليهما فرجموهما حتى ماتا » ثم أخبر عن غايته بأنّه ساء سبيلا ، فإنه سبيل هلكة وبوار وافتقار في الدنيا ، وعذاب وخزى ونكال في الآخرة ، ولما كان نكاح أزواج الآباء من أقبحه خصه بمزيد ذم فقال ﴿ إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا ﴾ [النساء : ٢٢] وعلق سبحانه فلاح العبد على حفظ فرجه منه ، فلا سبيل له إلى الفلاح بدونه منه ، فقال ﴿ قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين - إلى قوله - فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ [المؤمنون : ١ - ٧] .

وهذا يتضمن ثلاثة أمور : أن من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين ، وأنه من الملوّمين ، ومن العادين ، ففاته الفلاح ، واستحق اسم العدوان ، ووقع في اللوم ، فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك .

ونظير هذا : أنه سبحانه ذم الإنسان ، وأنه خلق هلوياً لا يصبر على سراء ولا ضراء ، بل إذا مسه الخير منع وبخل ، وإذا مسه الشر جزع ، إلا من استثناه بعد ذلك من الناجين من خلقه ، فذكر منهم : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ [المعارج : ٢٩ - ٣١] فأمر الله تعالى نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم ، وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم ، مطلع عليها ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ [غافر : ١٩] .

ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الأمر بغضه مقدماً على حفظ الفرج ، فإن الحوادث مبدؤها من البصر ، كما أن معظم النار من مستصغر الشرر ،

تكون نظرة ، ثم لحظة ، ثم خطوة ، ثم خطيئة ؟ ولهذا قيل : من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه : اللحظات ، والخطرات ، واللفظات ، والخطوات . فينبغي للعبد أن يكون بواب نفسه على هذه الأبواب الأربعة : ويلتزم الرباط على ثغورها ، فممنها يدخل عليه العدو ، فيجوس خلال الدبار ، ويُتبر ما علا تنبيراً .

فصل

وأكثر ما تدخل المعاصي على العبد من هذه الأبواب الأربعة ، فنذكر في كل باب منها فصلاً يليق به .

فأما اللحظات : فهي رائد الشهوة ورسولها ، وحفظها أصل حفظ الفرج ، فمن أطلق بصره أورد نفسه موارد الهلكات . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تتبع النظرة النظرة ، فإنما لك الأولى ، وليست لك الأخرى » .

وفي المسند عنه صلى الله عليه وسلم « النظرة سهم مسهوم من سهام إبليس : فمن غض بصره عن محاسن امرأة لله أورث الله قلبه حلاوة إلى يوم يلقاه . هذا معنى الحديث . وقال « غضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم » . وقال « ولما كنتم والجلوس على الطرقات . قالوا يا رسول الله مجالسنا ، ما لنا بد منها . قال : فإن كنتم لا بد فاعلين ، فأعطوا الطريق حقه . قالوا : وما حقه ؟ قال : غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام » .

والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان ، فالنظرة تولد خطرة ثم تولد الخطرة فكرة ، ثم تولد الفكرة شهوة ، ثم تولد الشهوة إرادة تقوى فتصير عزيمة جازمة ، فيقع الفعل ولا بد ، ما لم يمنع منه مانع . وفي هذا قيل « الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده » قال الشاعر :

كل الحوادث مبدأها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة بلغت من قلب صاحبها كمبلغ السهم بين القوس والوتر

والعبد ما دام اذ طرف يقلبه في أعين العين موقوف على الخطر
بسرور مقلته ما ضر مهجته لا مرحباً بسرور عاد بالضرر
ومن آفات النظر : أنه يورث الحشرات والزفرات الحرقات ، فيرى العبد
ما ليس قادراً عليه ولا صابراً عنه ، وهذا من أعظم العذاب : أن ترى ما لا صبر
لك عن بعضه ، ولا قدرة على بعضه قال الشاعر :

وكننت متى أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوماً ، أنعبتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر عليه ، ولا عن بعضه أنت صابر
وهذا البيت يحتاج إلى شرح . ومراده : أنك ترى ما لا تصبر عن شيء منه
ولا تقدر عليه ، فإن قوله « لا كله أنت قادر عليه » نفي لقدرة على الكل الذي
لا ينفي إلا بنى القدرة عن كل واحد واحد .

كم من أرسل لحظاته فما أقلعت إلا وهو يتشطح بينهن قتيلاً ، كما قيل :
يا ناظراً ، ما أقلعت لحظاته حتى تشطح بينهن قتيلاً
ولى من أبيات :

ملّ السلامة فاغتدت لحظاته وقفاً على طلل يظن جميلاً
ما زال يتبع إثره لحظاته حتى تشطح بينهن قتيلاً
ومن العجب أن لحظة الناظر سهم لا يصل إلى المنظور إليه ، حتى يتبرأ
مكاناً من قلب الناظر ، ولى من قصيدة :

يا رامياً بسهام اللحظ مجتهداً أنت القتيل بما ترى ، فلا تصب
يا باعث الطرف يرتاد الشفاء له احبس رسولك ، لا يأتيك بالعطب
وأعجب من ذلك ، أن النظرة تجرح القلب جرحاً ، فيتبعها جرحاً على جرح
ثم لا يمنعه ألم الجراحة من استدعاء تكرارها . ولى أيضاً في هذا المعنى :
ما زلت تتبع نظرة في نظرة في إثر كل مليحة ومليح

وتظن ذلك دواء جرحك وهو في الـ تحقيق تجريح على تجريح
فدبحت طرفك باللحاظ وبالبكا فالقلب منك ذبيح أى ذبيح
وقد قيل إن حبس اللحظات أيسر من دوام الحسرات .

فصل

وأما المخاطر : فشأنها أصعب ، فإنها مبدأ الخير والشر ، ومنها تتولد
الإرادات والهمم والعزائم ، فمن راعى خطراته ملك زمام نفسه وقهر هواه ، ومن
غلبته خطراته فهواه ونفسه له أغلب . ومن استهان بالمخاطر قادته قهراً إلى
المهلكات . ولا تزال المخاطر تتردد على القلب حتى تصير مئى^(١) كسراب
بقية^(٢) يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، ووجد الله عنده
فوفاه حسابه ، والله سريع الحساب ﴿ [النور : ٣٩] وأخس الناس همّة ،
وأوضعهم نفساً من رضى الحقائق بالأمانى الكاذبة ، واستجلبها لنفسه ، وتحلى
بها ، وهى لعمر الله رؤوس أموال المفلسين ، ومتاجر البطالين وهى قوت النفس
الفارغة التى قد قنعت من الوصل بزورة الخيال ، ومن الحقائق بكواذب الآمال ،
كما قال الشاعر :

أمانى من سعدى رواء على الظلم سقتنا بها سعدى على ظلم برداً
منى إن تكن أحسن المئى وإلا فقد عشنا بها زمناً رغداً
وهى أضر شئ على الإنسان ، ويتولد منها العجز والكسل ، وتولد التفريط
والحسرة والندم . والمتمنى لما فاتته مباشرة الحقيقة بجسمه حول صورتها فى قلبه ،
وعانقها وضمها إليه ، ففنع بوصال صورة وهمية خيالية صورها فكره ، وذلك
لا يجدى عليه شيئاً ، وإنما مثله مثل الجائع والظمآن يصبور فى وهمه صورة الطعام

(١) مئى : جمع منية ، وهى ما تتمناه النفس .

(٢) القيمة والقاع : المستوى من الأرض .

والشراب ، وهو لا يأكل ولا يشرب . والسكون إلى ذلك واستجلابه يدل على خساسة النفس ووضاعتها . وإنما شرف النفس وزكاؤها ، وطهارتها وعلوها بأن ينقى عنها كل خطرة لا حقيقة لها ، ولا يرضى أن يخطرها بباله ، ويأنف لنفسه منها .

ثم الخطرات بعد اقسام ندور على أربعة أصول : خطرات يستجلب بها منافع دنياء ، وخطرات يستدفع بها مضار دنياء ، وخطرات يستجلب بها مصالح آخرته ، وخطرات يستدفع بها مضار آخرته .

فليحصر العبد خطراته وأفكاره وهمومه في هذه الأقسام الأربعة ، فإذا انحصرت له فيها فما أمكن اجتماعه منها لم يتركه لغيره ، وإذا تزاوجت عليه الخطرات لتزاحم متعلقاتها قدم الأهم فالأهم الذى يخشى فوته ، وآخر الذى ليس بأهم ولا يخاف فوته .

بقى قسمان آخران ، أحدهما : مهم لا يفوت . والثانى : غير مهم ولكنه يفوت ، ففى كل منهما ما يدعو إلى تقديمه ، فهنا يقع التردد والحيرة ، فإن قدم المهم خشى فوات ما دونه وإن قدم ما دونه فاته الاشتغال به عن المهم ، وكذلك يعرض له أمران لا يمكن الجمع بينهما ، ولا يحصل أحدهما إلا بتفويت الآخر ، فهذا موضع استعمال العقل والنفق والمعرفة ، ومن ههنا ارتفع من ارتفع ، وأنجح من أنجح ، وخاب من خاب ، وأكثر من ترى ممن يعظم عقله ومعرفته يؤثر غير المهم الذى لا يفوت على المهم الذى يفوت ، ولا تجد أحداً يسلم من ذلك ، ولكن مستقل ومستكثر .

والتحكيم فى هذا الباب للقاعدة الكبرى التى عليها مدار الشرع والقدر ، وإليها مرجع الخلق والأمر ، وهى إيثار أكبر المصلحتين وأعلامهما ، وإن فاتت المصلحة التى هى دونها ، والدخول فى أدنى المفسدتين لدفع ما هو أكبر منها ؛

فيفوت مصلحة لتحصيل ما هو أكبر منها ، ويرتكب مفسدة لدفع ما هو أعظم منها .

فخطرات العاقل وفكره لا يجاوز ذلك ، وبذلك جاءت الشرائع ، ومصالح الدنيا والآخرة لا تقوم إلا على ذلك ، وأعلى الفكر وأجلها وأنفعها : ما كان لله والدار الآخرة ، فما كان لله فهو أنواع

أحدها : الفكرة في آياته المنزلة وتعقلها ، وفهم مراده منها ، ولذلك أنزلها الله تعالى لا لمجرد تلاوتها ، بل التلاوة وسيلة . قال بعض السلف : أنزل القرآن ليعمل به ، فاتخذوا تلاوته عملاً .

الثاني : الفكرة في آياته المشهودة والاعتبار بها ، والاستدلال بها على أسمائه وصفاته ، وحكمته ، وإحسانه ، وبره ، وجوده ، وقد حض الله سبحانه عباده على التفكير في آياته وتدبرها وتعقلها وذم الغافل عن ذلك .
الثالث : الفكرة في آلائه وإحسانه ، وإنعامه على خلقه بأصناف النعم ، وسعة رحمته ومغفرته وحلمه .

وهذه الأنواع الثلاثة تستخرج من القلب معرفة الله ومحبته وخوفه ورجاءه ، ودوام الفكرة في ذلك مع الذكر يصيب القلب في المعرفة والمحبة صبغة تامة .

الرابع : الفكرة في عيوب النفس وآفاتنا ، وفي عيوب العمل ، وهذه الفكرة عظيمة النفع ، وهى باب لكل خير ، وتأثيرها في كسر النفس الأمارة بالسوء ، ومتى كسرت عاشت النفس المطمئنة وانبعثت ^(١) وصار الحكم لها ، فحجى القلب ودارت كلمته في مملكته ، وبث أمراءه وجنوده في مصالحه .

الخامس : الفكرة في واجب الوقت ووظيفته ، وجمع المم كنه عليه ، فالعارف ابن وقته ، فلن أضاعه ضاعت عليه مصالحه كلها ، فجميع المصالح

(١) في رواية : « وانبعثت » .

إِنَّمَا تَنْشَأُ مِنَ الْوَقْتِ ، وَإِنْ ضَيَّعَهُ لَمْ يَسْتَبْرِكْهُ أَبَدًا .

قال الشافعي رضى الله عنه « صحبت الصوفية فلم أستفد منهم سوى حرفين : أحدهما قولهم : الوقت سيف ، فإن قطعه وإلا قطعك . وذكر الكلمة الأخرى : ونفسك إن لم تشغلها بالحق وإلا شغلتك بالباطل ، فوقت الإنسان هو عمره في الحقيقة ، وهو مادة حياته الأبدية في النعيم المقيم ، ومادة معيشته الضنك في العذاب الاليم ، وهو يمر أسرع من السحاب ، فما كان من وقته لله وبالله فهو حياته وعمره ، وغير ذلك ليس محسوباً من حياته وإن عاش فيه عاش غيش البهائم ، فإذا قطع وقته في الغفلة والسهو والأمانى الباطلة ، وكان خير ما قطعه به النوم والبطالة ، فموت هذا خير له من حياته ، وإذا كان العبد وهو في الصلاة ليس له (من صلاته) إلا ما عقل منها ، فليس له من عمره إلا ما كان فيه بالله والله وما عدا هذه الأقسام من الخطرات والفكر ، وإما وساوس شيطانية ، وإما آماني باطلة ، وخدع كاذبة ، بمنزلة خواطر المصابين في عقولهم من السكران والمحشوشين ، والموسوسين ولسان حال هؤلاء يقول ، عند انكشاف الحقائق :

إِنْ كَانَ مَنَزَلِي فِي الْحَشْرِ عِنْدَكُمْ مَا قَدْ لَقِيتُ ، فَقَدْ ضَيَّعْتُ أَيَّامِي^(١)
أُمْنِيَّةٌ ظَفَرَتْ نَفْسِي بِهَا زَمَنًا وَالْيَوْمَ أَحْصَيْتُهَا أَضْغَاثَ أَحْلَامٍ
واعلم أن ورود الخاطر لا يضر ، وإنما يضر استدعاؤه ومحاادثته ، فالخاطر كاللار على الطريق فإن تركته مروانصرف عنك ، وإن استدعيتته سحرك بحديثه خلدعه وغروره ، أخف شيء على النفس الفارغة الباطلة ، وأثقل شيء على القلب والنفس الشريفة السماوية المطمئنة .

وقد ركب الله سبحانه في الإنسان نفسين . نفساً أمارة ، ونفساً مطمئنة ، وهما متعاديّتان ، فكل ما خف على هذه ثقل على هذه ، وكل ما التذت به هذه

(١) كذا ، والمفوظ : « إن كان منزلي في الحب عندكم » .

تأملت به الأخرى ، فليس على النفس الأمانة أشق من العمل لله وإيثار رضاه على هواها ، وليس لها أنفع منه ، وليس على النفس المطمئنة أشق من العمل لغير الله وما جاء به داعي الهوى . وليس عليها شيء أضر منه . والمملك مع هذه عن يمنة القلب ، والشيطان مع تلك عن يسرة القلب ، والحروب مستمرة لا تضع أوزارها إلا أن يستوفى أجلها من الدنيا ، والباطل كله يتحيز مع الشيطان والأمانة ، والحق كله يتحيز مع الملك والمطمئنة ، والحرب دول وسجال ، والنصر مع الصبر ، ومن صبر وصابر ورابط واتق الله فله العاقبة في الدنيا والآخرة ، وقد حكم الله تعالى حكماً لا يبدو أبداً : أن العاقبة للتقوى . والعاقبة للمتقين ، فالقلب لوح فارغ ، والخواطر نقوش تنقش فيه ، فكيف يليق بالعقل أن تكون نقوش لوحه ما بين كذب وغرور وخدع ، وأمانى باطلة ، وسراب لا حقيقة له ؟ فأى حكمة وعلم وهدى ينتقش مع هذه النقوش ؟ وإذا أراد أن ينقش ذلك في لوح قلبه كان بمنزلة كتابة العلم النافع في محل مشغول بكتابة ما لا منفعة فيه ، فإن لم يفرغ القلب من الخواطر الردية لم تستقر فيه الخواطر النافعة ، فإنها لا تستقر إلا في محل فارغ ، كما قيل :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً فارغاً فتمكننا

وهذا كثير من أرباب السلوك بنوا سلوكهم على حفظ الخواطر ، وأن لا يمكنوا خاطراً يدخل قلوبهم ، حتى تصير القلوب فارغة قابلة للكشف وظهور حقائق العلويات فيها ، وهؤلاء حفظوا شيئاً وغابت عنهم أشياء ، فإنهم أدخلوا القلوب من أن يطرقها خاطر فبقيت فارغة لا شيء فيها ، فصادفها الشيطان خالية ، فبذر فيها الباطل في قوالب أوهمهم أنها أعلى الأشياء وأشرفها ، وعرضهم بها عن الخواطر التي هي مادة العلم والهدى ، وإذا خلا القلب عن الخواطر جاء الشيطان فوجد المحل خالياً ، فشغله بما يناسب حال صاحبه ، حيث لم يستطع

أن يشغله بالخواطر السفلية ، فشغله بإرادة التجريد والفراغ من الإرادة التي لا صلاح للعبد ولا فلاح إلا بأن تكون هي المستولية على قلبه ، وهي إرادة مراد الله الديني الأمرى الذى يحبه ويرضاه ، وشغل القلب واهتمامه بمعرفته على التفصيل به ، والقيام به وتنفيذه فى الخلق ، والتطرق إلى ذلك ، والتوصل إليه بالدخول فى الخلق لتنفيذه ، فيضلهم الشيطان عن ذلك بأن دعاهم إلى تركه وتعطيله من باب الزهد فى خواطر الدنيا وأسبابها . وأوهمهم أن كمالهم فى ذلك التجريد والفراغ . وهيهات هيهات إنما الكمال فى امتلاء القلب من الخواطر والإرادات والفكر فى تحصيل مرضى الرب تعالى من العبد ومن الناس والفكر فى طرق ذلك والتوصل إليه ، فأكمل الناس أكثرهم خواطر وفكراً وإرادات لذلك ، كما أن أنقص الناس أكثرهم خواطر وفكراً وإرادات لحظوظه وهواه أين كانت ، والله المستعان .

ولهذا فإن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه كانت تتزاحم عليه الخواطر فى مرضى الرب تعالى ، فربما استعملها فى صلاته ، وكان يجهز جيشه وهو فى الصلاة ، فيكون قد جمع بين الجهاد والصلاة وهذا من باب تداخل العبادات فى العبادة الواحدة . وهو باب عزيز شريف ، لا يعرفه إلا صادق حاذق الطلب ، متضلع من العلم على الهمة ، بحيث تدخل فى عبادة يظفر فيها بعبادات شتى . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

فصل

وأما اللفظات : فحفظها بأن لا يخرج لفظة ضائعة ، بأن لا يتكلم إلا فيما يرجو فيه الربح والزيادة فى دينه ، فإذا أراد أن يتكلم بالكلمة نظر : هل فيها ربح وفائدة أم لا ؟ فإن لم يكن فيها ربح أمسك عنها ، وإن كان فيها ربح نظر : هل تفوت بها كلمة هى أربح منها ؟ فلا يضيعها بهذه ، وإذا أردت أن تستدل

على ما فى القلب فاستدل عليه بحركة اللسان ، فإنه يطالعك على ما فى القلب ، شاء صاحبه أم أبى .

قال يحيى بن معاذ « القلوب كالقدور تغلى بما فيها ، وألسنتها مغارفها » . فانظر إلى الرجل حين يتكلم فإن لسانه يغترف لك بما فى قلبه ، حلو وحامض ، وعذب وأجاج ، وغير ذلك ، ويبين لك طعم قلبه اغتراف لسانه أى كما تطعم بلسانك طعم ما فى القدور من الطعام فتدرك العلم بحقيقته ، كذلك تطعم ما فى قلب الرجل من لسانه ، فتذوق ما فى قلبه من لسانه كما تذوق ما فى القدور بلسانك .

فى حيث أنس المرفوع « لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه » . وسئل النبى صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس النار ؟ فقال « الفم والفرج » . قال الترمذى : حديث حسن صحيح . وقد سأل معاذ النبى صلى الله عليه وسلم عن العمل الذى يدخله الجنة ويباعده من النار ، فأخبره النبى صلى الله عليه وسلم برأسه وعموده وذروة سنامه ، ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قال : بلى يا رسول الله ، فأخذ بلسان نفسه ثم قال : كف عليك هذا ، فقال : ولنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس على وجوههم - أو على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم » قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنى والسرقة وشرب الخمر ، ومن النظر المحرم وغير ذلك ، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه ، حتى ترى الرجل يشار إليه بالدين والزهد والعبادة ، وهو يتكلم بالكلمات من سخط الله لا يلقى لها بالا ينزل بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب ، وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم ،

ولسانه يفرى^(١) في أعراض الأحياء والأموات ، ولا يبالي ما يقول .
وإذا أردت أن تعزف ذلك فانظر فيما رواه مسلم في صحيحه من حديث
جندب بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال رجل : والله
لا يغفر الله لفلان ، فقال الله عز وجل : من ذا الذي يتألى على أنى لا أغفر
لفلان^(٢) ؟ قد غفرت له وأحببت عملك » فهذا العابد الذى قد عبد الله ما شاء
أن يعبده أحبطت هذه الكلمة الواحدة عمله كله .
وفي حديث أبي هريرة نحو ذلك ، ثم قال أبو هريرة « تكلم بكلمة أوبقت^(٣)
دنياه وآخرته » .

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن العبد
ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقى لها بالاً يرفعه الله بها درجات ، وإن العبد
ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالاً يهوى بها في نار جهنم » . وعند
مسلم « إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يزل بها في النار أبعد ما بين
المشرق والمغرب » .

وعند الترمذى من حديث بلال بن الحارث المزنى عن النبي صلى الله عليه
وسلم « إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب
الله بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن
أن تبلغ ما بلغت ، فيكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه » وكان علقمة يقول :
كم من كلام قد منعه حديث بلال بن الحارث ؟ .

وفي جامع الترمذى أيضاً من حديث أنس قال « توفي رجل من الصحابة ،
فقال رجل : أبشر بالجنة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يدريك ؟
فلعله تكلم فيما لا يعنيه ، أو بخل بما لا ينقصه » قال : حديث حسن .

(٢) هو من الآلية وهى اليمين .

(١) فرى الجلد : مزقه .

(٣) أوبقت : أهلكت .

وفى لفظ « إن غلاماً استشهد يوم أحد ، فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع ، فمسحت أمه التراب عن وجهه ، وقالت : هنيئاً لك يا بنى ، لك الجنة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : وما يدريك ؟ لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ، ويمنع ما لا يضره » .

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة يرفعه « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » .

وفى لفظ لمسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإذا شهد أمراً فليتكلم بخير أو ليسكت » .

وذكر الترمذى بإسناد صحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » .

وعن سفيان بن عبد الله الثقفى قال : قلت يا رسول الله : قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك ، قال : قل آمنت بالله ثم استقم ، قلت : يا رسول الله ما أخوف ما تخاف على ؟ فأخذ بلسان نفسه ، ثم قال : « هذا » والحديث صحيح .

وعن أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « كل كلام ابن آدم عليه لا له ، إلا أمراً بمعروف ، أو نهياً عن منكر ، أو ذكراً لله عز وجل » قال الترمذى : حديث حسن . وفى حديث آخر « إذا أصبح العبد فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان ، تقول : اتق فينا فإنما نحن بك ، فإذا استقمتم استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا » .

وقد كان السلف يحاسب أحدهم نفسه فى قوله : يوم حار ، ويوم بارد ، ولقد رأى بعض الأكابر من أهل العلم فى النوم فسئل عن حاله فقال : أنا موقوف على كلمة قتلها ، قلت ما أحوج الناس إلى غيث ، فقيل لى : وما يدريك ؟

أنا أعلم بمصلحة عبادي . وقال بعض الصباحية لجاريته يوماً : هاتي السفرة .
فبعث بها ، ثم قال : أستغفر الله ما أتكلم بكلمة إلا وأنا أنخطبها وأزمها (١)
إلا هذه الكلمة خرجت مني بغير خطام ولا زمام ، أو كما قال : وأيسر حركات
الجوارح حركة اللسان وهي أضرها على العبد .

واختلف السلف والخلف هل يكتب جميع ما يلفظ به أو الحير والشر فقط ؟
على قولين أظهرهما الأول .

وقال بعض السلف : كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا ما كان من الله
وما والا (٢) وكان الصديق رضي الله عنه يمسك على لسانه ويقول : هذا أوردني
الموارد ، والكلام أسيرك ، فإذا خرج من فيك صرت أنت أسيره . والله عند لسان
كل قائل ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ [ق : ١٨] .

وفي اللسان آفتان عظيمتان ، إن خلص من إحداها لم يخلص من الأخرى .
آفة الكلام ، وآفة السكوت ، وقد يكون كل منهما أعظم إثمًا من الأخرى في
وقتها ، فالساكت عن الحق شيطان أخرس ، عاص لله ، وراء مدهن إذا لم يخف
على نفسه . والمتكلم بالباطل شيطان ناطق عاص لله ، وأكثر الخلق منحرف في
كلامه وسكوته ، فهم بين هذين النوعين وأهل الوسط - وهم أهل الصراط
المستقيم - كفوا ألسنتهم عن الباطل ، وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه في الآخرة ،
فلا ترى أحدهم يتكلم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعة ، فضلاً أن تضره في
آخרתه ، وإن العبد ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال فيجد لسانه قد
هدمها عليه كلها ، ويأتي بسيئات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها من كثرة
ذكر الله وما اتصل به .

(١) غلط البير : أن يؤخذ حبل من ليف أو شعر من كتان فيجعل في أحد طرفيه حلقة ثم يشد فيه
الطرف الآخر حتى يصير كالحلقة ، ثم يقلد البير ، ثم يثنى على خطمه وهو أنفه . وأما الحبل الذي يجعل
في الأنف دقيقتاً فهو الزمام .

(٢) أى وما تبع وذكر الله . وقد تقدم قريباً أنه نحديث من رواية أم حبيبة .

فصل

وأما الخطوات : فحفظها بأن لا ينقل قدمه إلا فيما يرجو ثوابه ، فإن لم يكن في خطاه مزيد ثواب فالقعود عنها خير له ، ويمكنه أن يستخرج من كل مباح يخطو إليه قربة ينويها لله ، فتتبع خطاه قربة .

ولما كانت العشرة عشرين : عشرة الرجل ، وعشرة اللسان جاءت إحداهما قرينة الأخرى في قوله تعالى ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾ (١) وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴿ [الفرقان : ٦٣] فوصفهم بالاستقامة في لفظاتهم وخطواتهم ، كما جمع بين اللحظات والخطوات في قوله تعالى ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ [غافر : ١٩] .

فصل

وهذا كله ذكرناه مقدمة بين يدي تحريم الفواحش ووجوب حفظ الفرج ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « أكثر ما يدخل الناس النار : الفم والفرج » . وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني . والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » . وهذا الحديث في اقتران الزنى بالكفر وقتل النفس نظير الآية التي في الفرقان ، ونظير حديث ابن مسعود .

بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأكثر وقوعاً ، والذي يليه ، فالزنى أكثر وقوعاً من قتل النفس ، وقتل النفس أكثر وقوعاً من الردة ، وأيضاً فإنه انتقل من الأكبر إلى ما هو أكبر منه ، ومفسدة الزنى مناقضة لصلاح العالم ، فإن المرأة إذا زنت أدخلت العار على أهلها وزوجها وأقاربها ، ونكست رؤوسهم بين الناس

(١) الهون : الرفق واللين .

وإن حملت من الزنى ، فإن قتلت ولدها جمعت بين الزنى والقتل ، وإن حملته على الزوج أدخلت على أهله وأهلها أجنبياً ليس منهم ، فورثهم وليس منهم ، ورآهم وخلا بهم وانتسب إليهم وليس منهم ، إلى غير ذلك من مفسد زناها ، وأما زنى الرجل فإنه يوجب اختلاط الأنساب أيضاً ، وإفساد المرأة المصونة ، وتعريضها للتلف والفساد ، وفي هذه الكبيرة خراب الدنيا والدين ، وإن عمزت القبور في البرزخ والنار في الآخرة ، فكم في الزنى من استحلال لحرمات ، وفوات حقوق ، ووقوع مظالم ! .

ومن خاصيته : أنه يوجب الفقر ، ويقصر العمر ، ويكسو صاحبه سواد الوجه وثوب المقت بين الناس .

ومن خاصيته أيضاً : أنه يشتت القلب ويمرضه إن لم يمته ، ويجلب الهم والحزن والخوف ، ويباعد صاحبه من الملك ويقربه من الشيطان ، فليس بعد مفسدة القتل أعظم من مفسدته ، ولهذا شرع فيه القتل على أشنع الوجوه وأفحشها وأصعبها ، ولو بلغ العبد أن أمرأته أو حرمة قتلت كان أسهل عليه من أن يبلغه أنها زنت .

وقال سعد بن عباد رضي الله عنه « لو رأيت رجلاً مع امرأتى لضربتة بالسيف غير مُصَفَّحٍ ^(١) فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « تعجبون من غيره سعد ؟ والله لأننا أغير منه ، والله أغير مني ، ومن أجل غيره الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » متفق عليه .

وفي الصحيحين أيضاً عنه صلى الله عليه وسلم « إن الله يغار ، وإن المؤمن يغار ، وغيره الله أن يأتى العبد ما حرم عليه » .

وفي الصحيحين أيضاً عنه صلى الله عليه وسلم « لا أحد أغير من الله ، من

(١) بضم الميم وفتح الفاء ، يقال : أصفحه بالسيف ، أى ضربه بهرضه دون حده .

أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ، ولا أحد أحب إليه المذح من الله ، ومن أجل ذلك أثني على نفسه .

وفي الصحيحين في خطبته صلى الله عليه وسلم في صلاة الكسوف أنه قال : « يا أمة محمد والله إنه لا أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته ، يا أمة محمد ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، ثم رفع يديه وقال : اللهم هل بلغت ؟ » .

وفي ذكر هذه الكبيرة بخصوصها عقب صلاة الكسوف سر بديع لمن تأمله ، وظهور الزنى من أمارات خراب العالم ، وهو من أشراط الساعة ، كما في الصحيحين عن أنس بن مالك أنه قال « لأحدثنكم حديثاً لا يحدثكموه أحد بعدى ، سمعته من النبي صلى الله عليه وسلم سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « من أشراط الساعة أن يرفع العلم ، ويظهر الجهل ، ويشرب الخمر ، ويظهر الزنى ، ويقل الرجال ، وتكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد » .

وقد جرت سنة الله سبحانه في خلقه أنه عند ظهور الزنى يغضب الله سبحانه وتعالى ويشتد غضبه ، فلا بد أن يؤثر غضبه في الأرض عقوبة ، قال عبد الله ابن مسعود « ما ظهر الربى والزنى في قرية إلا أذن الله بإهلاكها » ورأى بعض أحبار بنى إسرائيل ابنه يغمز امرأة فقال : مهلا يا بنى ، فصرع الأب عن سريزه فانقطع نخاعه ، وأسقطعت امرأته ، وقيل له « هكذا غضبك لى ؟ لا يكون في جنسك خير أبداً » .

وخص سبحانه حد الزنى من بين الحدود بثلاث خصائص :
أحدها : القتل فيه بأشنع القتلات ، وحيث خففه جمع فيه بين العقوبة على البدن بالجلد وعلى القلب بتغريبه عن وطنه سنة .

الثانى : أنه نهى عباده أن تأخذهم بالزناة رأفة فى دينه ، بحيث تمنعهم من إقامة الحد عليهم ، فإنه سبحانه من رأفته ورحمته بهم شرع هذه العقوبة فهو أرحم بكم ، ولم تمنعه رحمته من أمره بهذه العقوبة ، فلا يمنعكم أنتم ما يقوم بقلوبكم من الرأفة من إقامة أمره .

وهذا - وإن كان عاماً فى سائر الحدود - ولكن ذكر فى حد الزنى خاصة لشدة الحاجة إلى ذكره ، فإن الناس لا يجدون فى قلوبهم من الغلظة والقسوة على الزانى ما يجدونه على السارق والقاذف وشارب الخمر ، فقلوبهم ترحم الزانى أكثر مما ترحم غيره من أرباب الجرائم ، والواقع شاهد بذلك ، فنهوا أن تأخذهم هذه الرأفة وتحملهم على تعطيل حد الله .

وسبب هذه الرحمة : أن هذا ذنب يقع من الأشراف والأوساط والأراذل ، وفى النفوس أقوى الدواعى إليه ، والمشارك فيه كثير ، وأكثر أسبابه العشق ، والقلوب مجبولة على رحمة العاشق ، وكثير من الناس يعد مساعدته طاعة وقربة ، وإن كانت الصورة المعشوقة محرمة عليه ، ولا يستنكر هذا الأمر : فإنه مستقر عند ما شاء الله من أشباه الأنعام ، ولقد حكى لنا من ذلك شيئاً كثيراً نقص العقول كالخدام والنساء .

وأيضاً فإن هذا ذنب غالب ما يقع مع التراضى من الجانبين ، ولا يقع فيه من العبدوان والظلم والاعتصاب ما تنفر النفوس منه ، وفى النفوس شهوة غالبية له فيصور ذلك لها فتقوم بها رحمة تمنع إقامة الحد ، وهذا كله من ضعف الإيمان ، وكمال الإيمان أن تقوم به قوة يقيم بها أمر الله ورحمة يرحم بها المحدود ، فيكون موافقاً لربه تعالى فى أمره ورحمته .

الثالث : أنه سبحانه أمر أن يكون أحدهما بمشهد من المؤمنين ، فلا يكون فى خلوة بحيث لا يراهما أحد ، وذلك أبلغ فى مصلحة الحد وحكمة الزجر ، وحد

المحصن مشتق من عقوبة الله تعالى لقوم لوط بالقذف بالحجارة ، وذلك لاشتراك الزنى واللواط في الفحش ، وفي كل منهما فساد يناقض حكمة الله في خلقه وأمره ، فإن في اللواط من المفساد ما يفوت الحصر والتعداد ، ولأن يقتل المفعول به خير له من أن يؤذى ، فإنه يفسد فساداً لا يرجى له بعده صلاح أبداً ، ويذهب خيره كله ، وتمص الأرض ماء الحياء من وجهه ، فلا يستحي بعد ذلك من الله ولا من خلقه ، وتعمل في قلبه وروحه نطفة الفاعل ما يعمل السم في البدن .

وقد اختلف الناس : هل يدخل الجنة مفعول به ؟ على قولين ، سمعت شيخ الإسلام يحكيهما .

والذين قالوا لا يدخل الجنة احتجوا بأمر :

منها : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا يدخل الجنة ولد زنية » فإذا كان هذا حال ولد الزنى مع أنه لا ذنب له في ذلك ، ولكنه مظنة كل شر وخبيث ، وهو جدير أن لا يجيء منه خير أبداً ، لأنه مخلوق من نطفة خبيثة ، وإذا كان الجسد الذي تربى على الحرام ، النار أولى به ، فكيف بالجسد المخلوق من النطفة الحرام ؟ .

قالوا : والمفعول به شر من ولد الزنى ، وأخزى وأخبث وأوقح ، وهو جدير أن لا يوفق لخير ، وأن يحال بينه وبينه ، وكلما عمل خيراً قبيض الله له ما يفسده عقوبة له ، وقل أن ترى من كان كذلك في صغره إلا وهو في كبره شر مما كان ، ولا يوفق لعلم نافع ولا عمل صالح ولا توبة نصوح .

والتحقيق في المسألة أن يقال : إن تاب المبتلى بهذا البلاء وأناب ورزق توبة نصوحاً وعمل صالحاً ، وكان في كبره خيراً منه في صغره ، وبذلك سيئاته بحسنات ، وغسل عار ذلك عنه بأنواع الطاعات والقربات ، وغض بصره وحفظ فرجه عن المحرمات ، وصدق الله في معاملته ، فهذا مغفور له ، وهو من

أهل الجنة ، فإن الله يغفر الذنوب جميعاً ، وإذا كانت التوبة تمحو كل ذنب ، حتى الشرك بالله وقتل أنبيائه والسحر والكفر وغير ذلك ، فلا تقصر عن محو هذا الذنب ، وقد استقرت حكمة الله تعالى به عدلاً وفضلاً أن « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » وقد ضمن الله سبحانه لمن تاب من الشرك وقتل النفس والزنى أنه يبدل سيئاته حسنات ، وهذا حكم عام لكل تائب من كل ذنب ، وقد قال تعالى ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم ﴾ [الزمر : ٥٣] فلا يخرج من هذا العموم ذنب واحد ، ولكن هذا في حق التائبين خاصة .

وأما المفعول به إن كان في كبره شراً مما كان في صغره : لم يوفق لتوبة نصوح ولا لعمل صالح ، ولا استدرك ما فات . ولا أبدل السيئات بالحسنات ، فهذا بعيد أن يوفق عند الممات لخاتمة يدخل بها الجنة ، عقوبة له على عمله ، فإن الله سبحانه وتعالى يعاقب على السيئة بسيئة أخرى ، وتتضاعف عقوبة السيئات بعضها ببعض ، كما يثيب على الحسنة بحسنة أخرى .

وإذا نظرت إلى حال كثير من المحتضرين ووجدتهم يحال بينهم وبين حسن الخاتمة ، عقوبة لهم على أعمالهم السيئة .

قال الحافظ أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأشبيلي رحمه الله :
« واعلم أن لسوء الخاتمة - أعاذنا الله منها - أسباباً ، ولها طرق وأبواب ، أعظمها الانكباب على الدنيا ، والإعراض عن الآخرة ، والإقدام والجرأة على معاصي الله عز وجل ، وربما غلب على الإنسان ضرب من الخطيئة ، ونوع من المعصية ، وجانب من الإعراض ، ونصيب من الجرأة والإقدام فملك قلبه ، وسبى عقله ، وأطفأ نوره ، وأرسل عليه حجه ، فلم تنفع فيه تذكرة ولا نجحت فيه موعظة ، فربما جاءه الموت على ذلك ، فسمع النداء من مكان بعيد ، فلم يتبين المراد ، ولا علم ما أراد ، وإن كرر عليه الداعي وأعاد .

ولا علم ما أراد ، وإن كرر عليه الداعي وأعاد .

قال : ويروى أن بعض رجال الناصر نزل به الموت ، فجعل ابنه يقول : قل لا إله إلا الله ، فقال : الناصر مولاي ، فأعاد عليه القول ، فأعاد مثل ذلك ، ثم أصابته غشية ، فلما أفاق قال : الناصر مولاي ، وكان هذا دأبه ، كلما قيل له لا إله إلا الله ، قال : الناصر مولاي ، ثم قال لابنه : يا فلان الناصر إنما يعرفك بسيفك ، والقتل القتل ، ثم مات . قال عبد الحق : وقيل لآخر - ممن أعرفه - قل لا إله إلا الله فجعل يقول : الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا ، والبستان الفلاني افعلوا فيه كذا .

قال : وفيما أذن لي أبو طاهر السلفي أن أحدث به عنه أن رجلاً نزل به الموت ، فقيل له : قل لا إله إلا الله ، فجعل يقول بالفارسية : ده يازده ده وازده ، تفسيره : عشرة بأحد عشر ، وقيل لآخر : قل لا إله إلا الله ، فجعل يقول : أين الطريق إلى حمام منجاب ؟ .

قال : وهذا الكلام له قصة ، وذلك أن رجلاً كان واقفاً بإزاء داره ، وكان بابها يشبه باب هذا الحمام ، فمرت به جارية لها منظر ، فقالت : أين الطريق إلى حمام منجاب ؟ فقال : هذا حمام منجاب ، فدخلت الدار ودخل وراءها . فلما رأت نفسها في داره وعلمت أنه قد خدعها أظهرت له البشوى والفرح باجتماعها معه ، وقالت له : يصلح أن يكون معنا ما يطيب به عيشنا وتقر به عيوننا ، فقال لها : الساعة آتيك بكل ما تريدين وتشتهين ، وخرج وتركها في الدار ، ولم يغلقها ، فأخذ ما يصلح ورجع ، فوجدتها قد خرجت وذهبت ، ولم تخنه في شيء ، فهم الرجل وأكثر الذكر لها ، وجعل يمشى في الطرق والأزقة ويقول : يارب قاتلة يوماً ، وقد تعبت : كيف الطريق إلى حمام منجاب

فبينما هو يوماً يقول ذلك ، وإذا بجارية أجابته من طاق :

هلا جعلت سريعاً إذ ظفرت بها حرزاً على الدار أو قفلاً على الباب
فازداد هيمانه واشتد ، ولم يزل على ذلك ، حتى كان هذا البيت آخر كلامه
من الدنيا .

ولقد بكى سفيان الثوري ليلة إلى الصباح ، فلما أصبح قيل له : كل هذا
خوفاً من الذنوب ؟ فأخذ تبنة من الأرض ، وقال : الذنوب أهون من هذا ،
ولئنا أبكى من خوف (سوء) الخاتمة .

وهذا من أعظم الفقه : أن يخاف الرجل أن تعذله ذنوبه عند الموت ،
فتحول بينه وبين الخاتمة الحسنى .

وقد ذكر الإمام أحمد عن أبي الدرداء أنه لما احتضر جعل يغمى عليه ثم
يفيق ويقرأ ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم
في طغيانهم يعمهون ﴾ [الأنعام : ١١٠] .

فمن هذا خاف السلف من الذنوب أن تكون حجاباً بينهم وبين الخاتمة
الحسنى .

قال : واعلم أن سوء الخاتمة - أعاذنا الله تعالى منها - لا تكون لمن استقام
ظاهره وصلح باطنه ، ما سمع بهذا ولا علم به والله الحمد ، ولئنا تكون لمن له فساد
في العقد أو إصرار على الكبائر ، وإقدام على العظائم ، فربما غلب ذلك عليه حتى
ينزل به الموت قبل التوبة ، فيأخذه قبل إصلاح الطوية ويصطلم^(١) قبل الإنابة ،
فيظفر به الشيطان عند تلك الصدمة ، ويختطفه عند تلك الدهشة ، والعياذ بالله .
قال : ويروى أنه كان بمصر رجل يلزم مسجداً للأذان والصلاة وعليه بهاء
الطاعة وأنوار العبادة ، فرق يوماً المنارة على عادته للأذان ، وكان تحت المنارة
دار لنصراني فاطلع فيها ، فرأى ابنة صاحب الدار فافتتن بها ، فترك الأذان ،

(١) الاصطلام : الاستئصال .

ونزل إليها ، ودخل الدار عليها ، فقالت له : ما شأنك ، وما تريد ؟ قال : أريدك . قالت : لماذا ؟ قال : قد سبيت لبي وأخذت بمجامع قلبي . قالت : لا أجيبك إلى ريبة أبداً . قال : أتزوجك . قالت : أنت مسلم وأنا نصرانية وأبي لا يزوجني منك . قال : أنت نصر . قالت : إن فعلت أفعل ، فتنصر الرجل ليتزوجها ، وأقام معهم في الدار . فلما كان في أثناء ذلك اليوم رقى إلى سطح كان في الدار فسقط منه ، فمات فلم يظفر بها ، وفاته دينه .

وقال : ويروى أن رجلاً علق شخصاً ، فاشتد كلفه به ، وتمكن حبه من قلبه ، حتى وقع ألماً به ولزم الفراش بسببه ، وتمنع ذلك الشخص عليه ، واشتد نفاره عنه ، فلم تزل الوسائط يمشون بينهما حتى وعده بأن يعود ، فأنجبره بذلك الناس . ففرح واشتد فرحه وانجلي غمه ، وجعل ينتظره للميعاد الذي ضرب له فبينما هو كذلك إذ جاءه الساعي بينهما ، فقال : إنه وصل معي إلى بعض الطريق ورجع ، ورغبت إليه وكلمته ، فقال : إنه ذكرني وفرح بي ، ولا أدخل مدخل الريبة ، ولا أعرض نفسي لمواقع التهم ، فعاودته فأبى وانصرف ، فلما سمع البائس أسقط في يده ، وعاد إلى أشد مما كان به ، وبدت عليه علائم الموت ، فجعل يقول في تلك الحال :

أسلم يا راحة العليل ويا شفا المدنف النحيل
رضاك أشهى إلى فسؤدى من رحمة الخالق الجليل

فقلت له : يا فلان اتق الله ، قال : قد كان ، فقامت عنه ، فما تجاوزت باب داره حتى سمعت صيحة الموت ، فعياداً بالله من سوء العاقبة وشؤم الخاتمة .

فصل

ولما كانت مفسدة اللواط من أعظم المفاسد كانت عقوبته في الدنيا والآخرة من أعظم العقوبات .

وقد اختلف الناس : هل هو أغلظ عقوبة من الزنى ، أو الزنى أغلظ عقوبة منه ، أو عقوبتهما سواء ؟ على ثلاثة أقوال :

فذهب أبو بكر الصديق وعلى بن أبي طالب وخالد بن الوليد وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس وجابر بن زيد وعبد الله بن معمر والزهرى وربيعة ابن أبي عبد الرحمن ، ومالك وإسحاق بن راهويه ، والإمام أحمد فى أصح الروايتين عنه - والشافعى فى أحد قوليه - إلى أن عقوبته أغلظ من عقوبة الزنى ، وعقوبة القتل على كل حال ، محصناً كان أو غير محصن .

وذهب عطاء بن أبي رباح والحسن البصرى وسعيد بن المسيب وإبراهيم النخعى ، وقتادة والأوزاعى ، والشافعى - فى ظاهر مذهبه - والإمام أحمد ، فى الرواية الثانية عنه - وأبو يوسف ومحمد - إلى أن عقوبة الزنى سواء .

وذهب الحاكم وأبو حنيفة إلى أن عقوبته دون عقوبة الزانى هى التعزير . قالوا : لأنه معصية من المعاصى لم يقلل الله ولا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها حداً مقدراً ، فكان فيه التعزير كما أكل الميتة والدم ولحم الخنزير .

قالوا : ولأنه وطئ فى محل لا تشتهيه الطباع ، بل ركبها الله تعالى على النفرة منه حتى الحيوان البهيم ، فلم يكن فيه حد كوطء الأتان وغيرها .

قالوا : ولأنه لا يسمى زانياً لغة ولا شرعاً ولا عرفاً ، فلا يدخل فى النصوص الدالة على حد الزانين .

قالوا : وقد رأينا قواعد الشريعة أن المعصية إذا كان الوازع منها طبعياً اكتفى بذلك الوازع من الحد ، وإذا كان فى الطباع تقاضيهما جعل فيها الحد بحسب اقتضاء الطباع لها ، ولهذا جعل الحد فى الزنى والسرقة وشرب المسكر دون أكل الميتة والدم ولحم الخنزير .

قالوا : وطرد هذا ، أنه لا حد فى وطء البهيمة ولا الميتة ، وقيل جبل الله

سبحانه الطباع على النفرة من وطء الرجل (رجلا) مثله أشد نفرة ، كما جبلها على النفرة من استدعاء الرجل من يطؤه ، بخلاف الزنى ، فإن الداعى فيه من الجانبين .

قالوا : ولأن أحد النوعين إذا استمتع بشكله لم يجب عليه الحد ، كما لو تساحت المرأتان ، واستمتعت كل واحدة منهما بالأخرى .

قال أصحاب القول الأول - وهو جمهور الأمة ، وحكاه غير واحد إجماعاً للصحاب : ليس فى المعاصى أعظم مفسدة من هذه المفسدة ، وهى تلى مفسدة الكفر وربما كانت أعظم من مفسدة القتل ، كما سنبينه إن شاء الله تعالى .

قالوا : ولم يتل الله سبحانه بهذه الكبيرة قبل قوم لوط أحداً من العالمين ، وعاقبهم عقوبة لم يعاقب بها أحداً غيرهم ، وجمع عليهم من أنواع العقوبات بين الإهلاك ، وقلب ديارهم عليهم ، والخسف بهم ، ورجمهم بالحجارة من السماء ، فنكل بهم نكالا لم ينكله أمة سواهم ، وذلك لعظم مفسدة هذه الجريمة التى تكاد الأرض تميد من جوانبها إذا عملت عليهم ، وتهرب الملائكة إلى أقطار السموات والأرض إذا شاهدوها ، خشية نزول العذاب على أهلها ، فيصيبهم معهم ، وتنج الأرض ^(١) إلى ربها تبارك وتعالى ، وتكاد الجبال تزول عن أماكنها ، وقتل المفعول به خير له من وطئه ، فإنه إذا وطئه قتله قتلا لا ترجى الحياة معه ، بخلاف قتله ، فإنه مظلوم شهيد أو ربما ينتفع به فى آخرته .

قالوا : والدليل على هذا : أن الله سبحانه جعل حد القاتل إلى خيرة الولي ، إن شاء قتل وإن شاء عفا ، وحتم قتل اللوطى حداً ، كما أجمع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ودلت عليه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) أى ترفع صوتها بالشكوى .

الصحيحة الصريحة التي لا معارض لها بل عليها عمل أصحابه وخلفائه الراشدين رضي الله عنهم أجمعين .

وقد ثبت عن خالد بن الوليد « أنه وجد في بعض ضواحي العرب رجلاً ينكح كما تنكح المرأة فكتب إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فاستشار أبو بكر الصديق الصحابة رضي الله عنهم ، فكان علي بن أبي طالب أشدهم قولاً فيه ، فقال : ما فعل هذا إلا أمة من الأمم واحدة ، وقد علمتم ما فعل الله بها ، أرى أن يحرق بالنار . فكتب أبو بكر إلى خالد فحرقه » .

وقال عبد الله بن عباس « ينظر أعلى بناء في القرية فيرمي اللوطي منها منكباً ثم يتبع بالحجارة » وأخذ عبد الله بن عباس هذا الحد من عقوبة الله قوم لوط ، وابن عباس هو الذي روى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » . رواه أهل السنن ، وصححه ابن حبان وغيره ، واحتج الإمام أحمد بهذا الحديث ، وإسناده على شرط البخاري .

قالوا : وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « لعن الله من عمل عمل قوم لوط ، لعن الله من عمل عمل قوم لوط ، لعن الله من عمل عمل قوم لوط » . ولم يجيء عنه صلى الله عليه وسلم لعنة الزاني ثلاث مرات في حديث واحد ، وقد لعن جماعة من أهل الكبائر ، فلم يتجاوز بهم في اللعن مرة واحدة ، وكرر لعن اللوطية ، وأكد ثلاث مرات ، وأطبق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتله ، لم يختلف فيه منهم رجلان ، وإنما اختلفت أقوالهم في صفة قتله ، فظن بعض الناس أن ذلك اختلاف منهم في قتله ، فحكاها مسألة نزاع بين الصحابة ، وهي بينهم مسألة إجماع ، لا مسألة نزاع .

قالوا : ومن تأمل قوله سبحانه ﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾ [الإسراء : ٣٢] . وقوله في اللواط ﴿ أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من

أحد من العالمين ؟ ﴿ [الأعراف : ٨٠] . تبين له تفاوت ما بينهما ، وأنه سبحانه أنكر الفاحشة في الزنى . أى هو فاحشة من الفواحش ، وعرفها في اللواط ، وذلك يفيد أنه جامع لمعاني اسم الفاحشة ، كما تقول : زيد الرجل ، ونعم الرجل زيد ، أى أتأتون الخصلة التى استقر فحشها عند كل أحد ، فهى لظهور فحشها وكماله غنية عن ذكرها ، بحيث لا ينصرف الاسم إلى غيرها ، وهذا نظير قول فرعون لموسى ﴿ وفعلت فعلتك التى فعلت ﴾ [الشعراء : ١٩] أى الفعلة الشنعاء الظاهرة المعلومة لكل أحد .

ثم أكد سبحانه شأن فحشها بأنها لم يعملها أحد من العالمين قبلهم فقال : ﴿ ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ ثم زاد في التأكيد بأن صرح بما تشتمز منه القلوب وتنبو عنه الأسماع ، وتنفر منه الطباع أشد نفرة ، وهو إتيان الرجل رجلاً مثله ينكحه كما ينكح الأنثى فقال ﴿ إنكم لتأتون الرجال ﴾ [الأعراف : ٨١] . ثم نبه على استغنائهم عن ذلك . وأن الحامل لهم عليه ليس إلا مجرد الشهوة لا الحاجة التى لأجلها مال الذكر إلى الأنثى ، من قضاء الوطر ولذة الاستمتاع ، وحصول المودة والرحمة التى تنسى المرأة لها أبويتها وتذكر بعلمها ، وحصول النسل الذى هو حفظ هذا النوع الذى هو أشرف المخلوقات ، وتحصين المرأة وقضاء وطرها ، وحصول علاقة المصاهرة التى هى أخت النسب ، وقيام الرجال على النساء ^(١) ، وخروج أحب الخلق إلى الله من جماعهن كالأنبياء والأولياء والمؤمنين ، ومكاثرة النبي صلى الله عليه وسلم الأنبياء بأئمتهم ، إلى غير ذلك من مصالح النكاح ، والمفسدة التى فى اللواط تقاوم ذلك كله ، وترى عليه بما لا يمكن حصر فساده ، ولا يعلم تفصيله إلا الله .

ثم أكد قبح ذلك بأن اللوطية عكسوا فطرة الله التى فطر الله عليها الرجال ،

(١) فى نسخة : « وقيام النساء على الرجال » .

وقلبوا الطبيعة التي ركبها الله في الذكور ، وهى شهوة النساء دون الذكور ، فقلبوا الأمر ، وعكسوا الفطرة والطبيعة . فأنوا الرجال شهوة من دون النساء . ولهذا قلب الله سبحانه عليهم ديارهم ، فجعل عاليها سافلها ، وكذلك قلوبهم ، ونكسوا في العذاب على رؤوسهم ، ثم أكد سبحانه قبح ذلك بأن حكم عليهم بالإسراف وهو مجاوزة الحد ، فقال : ﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾ [الأعراف : ٨١] فتأمل هل جاء مثل ذلك أو قريب منه في الزنى ؟ وأكد سبحانه ذلك عليهم بقوله : ﴿ ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث ﴾ [الأنبياء : ٧٤] ثم أكد سبحانه عليهم الذم بوصفين في غاية القبح فقال ﴿ إنهم كانوا قوم سوء فاسقين ﴾ [الأنبياء : ٧٤] وسماهم مفسدين في قول نبيهم ﴿ رب انصرني على القوم المفسدين ﴾ [العنكبوت : ٣٠] وسماهم ظالمين في قول الملائكة لإبراهيم : ﴿ إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين ﴾ [العنكبوت : ٣١] . فتأمل من عوقب بمثل هذه العقوبات ومن ذمه الله بمثل هذه المذمات ، ولما جادل فيهم خليله إبراهيم الملائكة وقد أخبروه بإهلاكهم قيل له ﴿ يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك ، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ﴾ [هود : ٧٦] . وتأمل خبت اللوطية وفرط تمردهم على الله حيث جاءوا نبيهم لوطاً لما سمعوا بأنه قد طرقه أضياف ، هم من أحسن البشر صوراً ، فأقبل اللوطية إليه يهرولون . فلما رآهم قال لهم ﴿ يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم ﴾ [هود : ٧٨] ففدى أضيافه ببناته يزوجهن بهن ، خوفاً على نفسه وأضيافه من العار الشديد . فقال : ﴿ يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي ، أليس منكم رجل رشيد ؟ ﴾ . فردوا عليه ، ولكن رد جبار عنيد ﴿ لقد علمت ما لنا في بناتك من حق ، وإنك لتعلم ما نريد ﴾ [هود : ٧٩] . فنفت نبي الله نفثة مصدور ، خرجت من قلب مكروب ، فقال ﴿ لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ؟ ﴾

فنفّس له رسل الله ، وكشفوا له عن حقيقة الحال ، وأعلموه أنهم ممن ليسوا
 يوصل إليهم ، ولا إليه بسببهم ، فلا تخف منهم ولا تعباً بهم ، وهون عليك ،
 فقالوا ﴿ يا لوط إنا رسل ربك ، لن يصلوا إليك ﴾ وبشروه بما جاءوا به من الوعد
 له ولقومه من الوعيد المصيب فقالوا ﴿ فأسرّ بأهلك بقطع من الليل ^(١) ولا يلتفت
 منكم أحد إلا أمرأتك ، إنه مصيبها ما أصابهم ، إن موعدهم الصبح ، أليس
 الصبح بقريب ؟ ﴾ [هود : ٨١] فاستبطأ نبي الله موعدهم هلاكهم وقال : أريد
 أعجل من هذا ، فقالت الملائكة ﴿ أليس الصبح بقريب ؟ ﴾ . فوالله ما كان بين
 إهلاك أعداء الله ونجاة نبيه وأوليائه إلا ما بين السحر وطلوع الفجر ، وإذا
 بديارهم قد اقتلعت من أصلها ، ورفعت نحو السماء حتى سمعت الملائكة نباح
 الكلاب ونهيق الحمير ، فبرز المرسوم الذي لا يرد عن الرب الجليل ، إلى عبده
 ورسوله جبرائيل ، بأن قلبها عليهم كما أخبر به في محمّ التنزيل ، فقال عز
 من قائل ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل ^(٢) ﴾ .
 [الحجر : ٧٤] فجعلهم آية للعالمين وموعظة للمتقين ، ونكالا وسلفاً لمن شاركهم في
 أعمالهم من المجرمين ، وجعل ديارهم بطريق السالكين ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين ،
 وإنها لبسبيل مقيم ، إن في ذلك لآية للمؤمنين ﴾ [الحجر : ٧٥ - ٧٧] أخذهم
 على غرة وهم نائمون ، وجاءهم بأسه وهم في سكرتهم يعمهون ، فما أغنى عنهم
 ما كانوا يكسبون ، فقلبت تلك اللذات آلاماً ، فأصبحوا بها يعذبون .

مآرب كانت في الحياة لأهلها عذاباً فصارت في الممات عذاباً ^(٣)
 ذهبت اللذات ، وأعقبت الحسرات ، وانقضت الشهوات ، وأورثت
 الشقوات ، تمتعوا قليلا ، وعذبوا طويلا ، رتّعوا مرتعاً ونخياً ، فأعقبهم عذاباً

(١) القطع - بكسر وسكون الطاء - ظلمة آخر الليل .

(٢) هو طين محمى في نار جهنم .

(٣) عذاب الأول بكسر العين من العلوبة وهي الخلوة ، وعذاب الثانية بفتح العين بمعنى العقوبة .

ألياً ، أسكرتهم خمرة تلك الشهوات ، فما استفاقوا منها إلا في ديار الملعبين ،
وآرقدتهم تلك الغفلة فما استيقظوا منها إلا وهم في منازل الهالكين ، فندموا والله
أشد الندامة حين لا ينفع الندم ، وبكوا على ما أسلفوه بذلك الدموع بالدم ،
فلو رأيت الأعلى والأسفل من هذه الطائفة ، والنار تخرج من منافذ وجوههم
وأبدانهم وهم بين أطباق الجحيم ، وهم يشربون بدل لذيذ الشراب كؤوس الحميم ،
ويقال لهم وهم على وجوههم يسحبون : ذوقوا ما كنتم تكسبون ﴿ اصلوها فاصبروا
أو لا تصبروا ، سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ [الطور : ١٦] ولقد
قرب الله مسافة العذاب بين هذه الأمة وبين إخوانهم في العمل ، فقال مخوفاً
لهم أن يقع الوعيد ﴿ وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ [هود : ٨٣] .

فيا ناكحى الذكران يهنيكم البشرى	فيوم معاد الناس إن لكم أجرا
كلوا واشربوا وازنوا ولوطوا وأبشروا	فلن لكم زفاً إلى الجنة الحمرا
فلإخوانكم ، قد مهدوا الدار قبلكم	وقالوا إلبنا ، عجلوا ، لكم البشرى
وها نحن أسلاف لكم في انتظاركم	سيجمعنا الجبار في ناره الكبرى
فلا تحسبوا أن الدين نكحتموا	يغيبون عنكم ، بل ترونهم جهراً
ويلعن كلا منكما لخليه	ويشقى به المحزون في الكرة الأخرى
يعذب كلا منهما بشريكه	كما اشتركا في لذة توجب الوزرا

فصل

في الأجوبة عما احتج به من جعل عقوبة هذه الفاحشة دون عقوبة الزنى .
أما قولهم إنها معصية لم يجعل الله فيها حداً معيناً ، فعجابه من وجوه :
أحدها : أن المبلغ عن الله جعل حد صاحبها القتل حتماً ، وما شرعه رسول الله
صلى الله عليه وسلم فلإنما شرعه عن الله ، فإن أردتم أن حدها غير معلوم بالشرع

فهو باطل ، وإن أردتم أنه غير ثابت بنص الكتاب لم يلزم من ذلك انتفاء حكمه لثبوته بالسنة .

والثاني : أن هذا ينقض بالرجم ، فإنه ثبت بالسنة .

فإن قلتم : بل ثبت بقرآن نسخ لفظه وبقي حكمه .

قلنا : فينقض عليكم بحد شارب الخمر .

والثالث : أن نفي دليل معين لا يستلزم نفي مطلق الدليل ولا نفي المدلول ،

فكيف وقد قدمنا أن الدليل الذي نفيتموه غير منتف ؟ .

وأما قولكم : إنه وطء في محل لا تشتهيه الطباع ، بل ركب الله الطباع على

النفرة منه فهو كوطء الميتة والبهيمة ، فجوابه من وجوه :

أحدها : أنه قياس فاسد الاعتبار ، مردود بسنة رسول الله وإجماع الصحابة .

كما تقدم بيانه .

والثاني : أن قياس وطء الأمرد الجميل الذي فتنته تربو على كل فتنة على

وطء أتان أو امرأة ميتة من أفسد القياس ، وهل يعدل ذلك أحد قط بأتان أو

بقرة أو ميتة أو سبي ذلك عقل عاشق ، أو أسر قلبه ، أو استولى على فكره

ونفسه ، فليس في القياس أفسد من هذا .

الثالث : أن هذا منتقض بوطء الأم والبنت والأخت ، فإن النفرة الطبيعية

عنه حاصلة مع أن الحد فيه من أغلظ الحدود - في أحد القولين - وهو القتل

بكل حال محصناً كان أو غير محصن ، وهذا إحدى الروايتين عن أحمد ، وهو

قول إسحاق بن راهويه وجماعة من أهل الحديث .

وقد روى أبو داود والترمذي من حديث البراء بن عازب قال « لقيت عمي

ومعه الراية ، فقلت : إلى أين تريد ؟ قال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم

إلى رجل نكح امرأة أبيه من بعده أن أضرب عنقه وأخذ ماله » . قال الترمذي :

هذا حديث حسن ، قال الجوزجاني عم البراء اسمه : الحارث بن عمرو .
وفى سنن أبي داود وابن ماجه من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم « من وقع على ذات محرم فاقتلوه » .

ورفع إلى الحجاج رجل اغتصب أخته على نفسها ، فقال : احبسوه وسلوا
من هاهنا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوا عبد الله بن مطرف ،
فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من تخطف حرم المؤمنين
فخطوا وسطه بالسيف » وفيه دليل على القتل بالتوسيط وهذا دليل مستقل في
المسألة ، وأن من لا يباح وطؤه بحال فحد وطئه القتل ، دليله : من وقع على
أمه أو ابنته ، كذلك يقال في وطء ذوات المحارم ، ووطء من لا يباح له وطؤه
بحال ، فكان حده القتل كاللوطي .

والتحقيق : أن يستدل على المسألتين بالنص ، والقياس يشهد لصحة كل
منهما ، وقد اتفق المسلمون على أن من زنى بذات محرمه فعليه الحد ، وإنما
اختلفوا في صفة الحد ، هل هو القتل بكل حال ، أو حده حد الزاني ؟
على قولين :

فذهب الشافعي ومالك وأحمد - في إحدى روايته - أن حده حد الزاني .
وذهب أحمد وإسحاق وجماعة من أهل الحديث إلى أن حده القتل بكل حال
وكذلك اتفقوا كلهم على أنه لو أصابها باسم النكاح عالماً بالتحريم أنه يحد ،
إلا أبا حنيفة وحده ، فإنه رأى ذلك شبهة مسقطه للحد .

ومنازعه يقولون : إذا أصابها باسم النكاح فقد زاد الجريمة غلظاً وشدة .
فإنه ارتكب محذورين عظيمين : محذور العقد ، ومحذور الوطء ، فكيف
تخفف عنه العقوبة بضم محذور العقد إلى محذور الزنى ؟ .

وأما وطء الميتة ففيه قولان للفقهاء ، وهما في مذهب أحمد وغيره :

أحدهما : يجب به الحد ، وهو قول الأوزاعي ، فإن فعله أعظم جرماً وأكبر ذنباً انضم إلى فاحشته هتك حرمة الميتة .

فصل

وأما واطيء البهيمة فللفقهاء فيه ثلاثة أقوال :
أحدها : أنه يؤدب ، ولا حد عليه ، وهذا قول مالك وأبي حنيفة والشافعي في أحد قوليه ، وهو قول إسحاق .
والقول الثاني : حكمه حكم الزاني ، يجلد إن كان بكراً ، ويرجم إن كان محصناً ، وهذا قول الحسن .
والقول الثالث : أن حكمه حكم اللوطي ، نص عليه أحمد ، فيخرج على الروایتين في حده ، هل هو القتل حتماً أو هو كالزاني ؟ .
والذين قالوا « حده القتل » احتجوا بما رواه أبو داود من حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم « من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوا معه » .
قالوا : ولأنه وطء لا يباح بحال ، فكان فيه القتل كحد اللوطي . ومن لم ير عليه حداً قالوا : لم يصح فيه الحديث ، ولو صح لقلنا به ، ولم يحل لنا مخالفته .
قال إسماعيل بن سعيد الشالنجي : سألت أحمد عن الذي يأتي البهيمة ، فوقف عندها ، ولم يثبت حديث عمرو بن أبي عمرو في ذلك .
وقال الطحاوي : الحديث ضعيف ، وأيضاً فراويه ابن عباس ، وقد أفتي بأنه لا حد عليه ، قال أبو داود : وهذا يضعف الحديث .
ولا ريب أن الزاجر الطبيعي عن إثبات البهيمة أقوى من الزاجر الطبيعي عن التلوط ، وليس الأمر أنهما في طباع الناس سواء ، فللحاق أحدهما بالآخر من أفسد القياس كما تقدم .

فصل

وأما قياسكم وطء الرجل لثله على تدالك المرأتين ^(١) ، فمن أفسد القياس ، إذ لا إيلاج هناك ، وإنما نظيره مباشرة الرجل الرجل من غير إيلاج ، على أنه قد جاء في بعض الآثار المرفوعة ^(٢) « إذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان » ولكن لا يجب الحد بذلك ، لعدم الإيلاج ، وإن أطلق عليهما اسم الزنى العام ، كزنى العين واليد والرجل والفم .

إذا ثبت هذا : فقد أجمع المسلمون على أن حكم التلوط مع المملوك كحكمه مع غيره ، ومن ظن أن تلوط الإنسان بمملوكه جائز ، واحتج على ذلك بقوله تعالى ﴿ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَلَهُمْ فِيهَا مَا مُلُوا بِهِمْ ﴾ [الحج : ٤] وقاس ذلك على أمته المملوكة فهو كافر ، يستتاب كما يستتاب المرتد ، فإن تاب وإلا ضربت عنقه . وتلوط الإنسان بمملوكه كتلوطه بمملوك غيره في الإثم والحكم .

فصل

فإن قيل : فهل مع هذا كله دواء لهذا الداء العضال ؟ ورقية لهذا السحر القتال ؟ وما الاحتياال لدفع هذا الخبال ؟ وهل من طريق قاصد إلى التوفيق ؟ وهل يمكن السكران بخمر الهوى أن يفيق ؟ وهل يملك العاشق قلبه والعشق قد وصل إلى سويدائه ؟ وهل للطبيب بعد ذلك حيلة في برئه من سويدائه ؟ إن لامة لائم التذ بلامه ذكراً لمحبوبه وإن عدله عاذل أغراه عدله وسار به في طريق مطلوبه ، ينادى شاهد حاله بلسان مقاله :

وقف الهوى بي حيث أنت ، فليس لي متأخر عنه ولا متقدم وأهنتني ، فأهنت نفسي جاهداً ما من يهون عليك ممن يسكرهم

(١) في نسخة : « حل سحاق المرأتين » وهما بمعنى واحد .

(٢) في نسخة : « في بعض الأحاديث المرفوعة » .

أشبهت أعدائي ، فصرت أحبيهم إذ كان حظي منك حظي منهم
أجد الملامة في هواك للذينة حباً للذكر ، فليلمني اللوم
ولعل هذا هو المقصود بالسؤال الأول الذي وقع عليه الاستفتاء والداء الذي
طلب له الدواء .

قيل : نعم ، الجواب من رأس « ما أنزل الله من داء إلا جعل له دواء ، علمه
من علمه وجهله من جهله » . والكلام في دواء داء تعلق القلب بالمحبة الهوائية
من طريقين :

أحدهما : حسم مادته قبل حصولها .

والثاني : قلعها بعد نزوله ، وكلاهما يسير على من يسره الله عليه ،
ومتعذر على من لم يعنه الله ، فإن أزمّة الأمور بيديه .
فأما الطريق المانع من حصول هذا الدواء ، فأمران :

أحدهما : غض البصر كما تقدم ، فإن النظرة سهم مسموم من سهام
إبليس ، ومن أطلق لحظاته دامت حسراته ، وفي غض البصر عدة منافع :
أحدها : أنه امتثال لأمر الله الذي هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاذه ،
فليس للعبد في دنياه وآخرفته أنفع من امتثال أوامر ربه تبارك وتعالى ، وما سعد
من سعد في الدنيا والآخرة إلا بامتثال أوامره ، وما شقى في الدنيا والآخرة
إلا بتضييع أوامره .

الثانية : أنه يمنع من وصول أثر السهم المسموم - الذي لعل فيه هلاكه -
إلى قلبه .

الثالثة : أنه يورث القلب أنساً بالله وجمعية عليه ، فإن لإطلاق البصر
بفرق القلب ويشتته ، ويبعده من الله ، وليس على القلب شيء أضر من إطلاق
البصر ، فإنه يورث الوحشة بين العبد وبين ربه .

الرابعة : أنه يقوى القلب ويفرحه ، كما أن إطلاق البصر يضعفه ويحزنه .
الخامسة : أنه يلبس القلب نوراً ، كما أن إطلاقه يلبسه ظلمة ، ولهذا ذكر الله سبحانه آية النور عقيب الأمر بغض البصر ، قال ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ﴾ ، [النور : ٣٠] ثم قال إثر ذلك ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ﴾ ، [النور : ٣٥] أى مثل في نوره قلب عبده المؤمن الذى امتثل أوامره واجتنب نواهيه ، وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات إليه من كل ناحية ، كما أنه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان ، فما شئت من بدع ، وضلالة ، واتباع هوى واجتناب هذى ، وإعراض عن أسباب السعادة ، واشتغال بأسباب الشقاوة ، فإن ذلك إنما يكشفه له النور الذى فى القلب ، فإذا نفذ ذلك النور بقى صاحبه كالأعمى الذى يجوس فى حنادس الظلام .

السادسة : أنه يورث فراسة صادقة يميز بها بين الحق والباطل ، والصادق والكاذب ، وكان شجاع الكرماني يقول : من عمر ظاهره باتباع السنة وباطنه بدوام المراقبة ، وغض بصره عن المحارم ، وكف نفسه عن الشبهات ، واغتذى بالحلال ، لم تخطئ له فراسة ، وكان شجاع هذا لا تخطئ له فراسة .

والله سبحانه يجزى العبد على عمله بما هو من جنس عمله ، ومن ترك الله شيئاً عوضه الله خيراً منه ، فإذا غض بصره عن محارم الله عوضه الله بأن يطلق نور بصيرته عوضاً عن حبس بصره لله ، ويفتح عليه باب العلم والإيمان والمعرفة والفراسة الصادقة المصيبة التى إنما تنال ببصيرة القلب ، وضد هذا ما وصف الله به اللوطيين من العمه الذى هو ضد البصيرة فقال تعالى ﴿ لعمرك إنهم لنى سكرتهم يععمون ﴾ ، [الحجر : ٧٢] فوصفهم بالسكرة التى هى فساد العقل ، والعمه الذى هو فساد البصيرة ، فالتعلق بالصور يوجب فساد العقل ، وعمه البصيرة وسكر القلب ، كما قال القائل :

سكران : سكر هوى ، وسكر مدامة ومتى من به إفاقة سكران ؟
وقال الآخر :

قالوا : جننت بمن تهوى ؟ فقلت لهم : العشق أعظم مما بالمجانين
العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وإنما يصرع المجنون في الحين
السابعة : أنه يورث القلب ثباتاً وشجاعة وقوة ، فجمع الله له بين سلطان
النصرة والحجة وسلطان القدرة والقوة ، كما في الأثر « الذي يخالف هواه
يَفْرُقُ ^(١) الشيطان من ظله » وضد هذا تجد في المتبع لهواه - من ذل النفس
ووضاعاتها ومهانتها ونخستها وحقارتها - ما جعله الله سبحانه فيمن عصاه ، كما
قال الحسن : « لأنهم وإن طعنت بهم البغال وهملجت بهم البراذين ، إن ذل
المعصية في رقابهم ، أبى الله إلا أن يذل من عصاه » وقد جعل الله سبحانه العز
قرين طاعته ، والذل قرين معصيته ، فقال تعالى ﴿ ولله العزة ولرسله وللمؤمنين ﴾ ،
[المنافقون : ٨] وقال تعالى ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم
مؤمنين ﴾ ، [آل عمران : ١٣٩] والإيمان قول وعمل ، ظاهر وباطن ، وقال
تعالى ﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل
الصالح يرفعه ﴾ ، [فاطر : ١٠] أى من كان يريد العزة فليطلبها بطاعة الله
وذكره من الكلم الطيب والعمل الصالح ، وفي دعاء القنوت « إنه لا يذل من
واليت ، ولا يعز من عاديت » ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه ، وله من
العز بحسب طاعته ، ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه ، وله من الذل بحسب
معصيته .

الثامنة : أنه يسد على الشيطان مدخله إلى القلب ، فإنه يدخل مع النظرة
وينفذ معها إلى القلب أسرع من نفوذ الهواء في المكان الخالي ، فيمثل له صورة

(١) يفرق : يخاف .

المنظور إليه ، ويزينها ويجعلها صنما يعكف عليه القلب ثم يَعِدُّه ويمنيه ويُوقد على القلب نار الشهوة ، ويلقى عليها حطب المعاصي التي لم يكن يتوصل إليها بدون تلك الصورة ، فيصير القلب في اللهب ، فمن ذلك اللهب تلك الأنفاس التي يجد فيها وهج النار ، وتلك الزفرات والحرقات ، فإن القلب قد أحاطت به النيران من كل جانب ، فهو في وسطها كالشاة في وسط التنور ، ولهذا كانت عقوبة أصحاب الشهوات للصور المحرمة : أن جعل لهم في البرزخ تنور من نار ، وأودعت أرواحهم فيه إلى يوم حشر أجسادهم ، كما أراه الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم في المنام في الحديث المتفق على صحته .

التاسعة : أنه يفرغ القلب للفكرة في مصالحة والاشتغال بها ، وإطلاق البصر ينسيه ذلك ويحول بينه وبينه ، فينفرط عليه أمره ، ويقع في اتباع هواه وفي الغفلة عن ذكر ربه قال تعالى ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فُرطاً ﴾ ، [الكهف : ٢٨] وإطلاق النظر يوجب هذه الأمور الثلاثة بحسبه .

العاشرة : أن بين العين والقلب منفذاً وطريقاً يوجب انتقال أحدهما عن الآخر ، وأن يصلح بصلاحه ، ويفسد بفساده ، فإذا فسد القلب فسد النظر ، وإذا فسد النظر فسد القلب ، وكذلك في جانب الصلاح ، فإذا خربت العين وفسدت خرب القلب وفسد ، وصار كالنزلة التي هي محل النجاسات ، والقاذورات والأوساخ ، فلا يصلح لسكنى معرفة الله ومحبته والإنابة إليه والأنس به والسرور بقربه فيه ، وإنما يسكن فيه أضداد ذلك .

فهذه إشارة إلى بعض فوائد غض البصر تطلعك على ما وراءها .

الطريق الثاني المانع من حصول تعلق القلب : اشتغال القلب بما يصده عن ذلك ، ويحول بينه وبين الوقوع فيه ، وهو إما خوف مقلق أو حب مزعج ،

فمضى خلا القلب من خوف ما فواته أضر عليه من حصول هذا المحبوب ، أو بخوف ما حصوله أضر من فوات هذا المحبوب ، أو محبته ما هو أنفع له وخير له . من هذا المحبوب ، وفواته أضر عليه من فوات هذا المحبوب ، لم يجد بداً من عشق الصور .

وشرح هذا : أن النفس لا تترك محبوباً إلا لمحسوب أعلى منه أو خشية مكروه حصوله أضر عليها من فوات هذا المحبوب ، وهذا يحتاج صاحبه إلى أمرين إن فقدهما أو أحدهما لم ينتفع بنفسه . أحدهما : بصيرة صحيحة يفرق بها بين درجات المحبوب والمكروه ، فيؤثر أعلى المحبوبين على أدناها ، ويحتمل أدنى المكروهين ليخلص من أعلاهما ، وهذا خاصة العقل ، ولا يعد عاقلاً من كان بضد ذلك ، بل قد تكون البهائم أحسن حالا منه .

الثاني : قوة عزم وصبر يتمكن به من هذا الفعل والترك ، فكثيراً ما يعرف الرجل قدر التفاوت ، ولكن يأبى له ضعف نفسه وهمته وعزمته على أشياء لا تنفع ، أمن خسسته وحرصه ووضاعة نفسه وخسرة همته ، ومثل هذا لا ينتفع به غيره ، وقد منع الله سبحانه إمامة الدين إلا من أهل الصبر واليقين ، فقال تعالى ، ويقول بهتدي المهتدون منهم ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ [السجدة : ٢٤] وهذا هو الذي ينتفع بعلمه ، وينتفع به الناس ، وضده لا ينتفع بعلمه ، ولا ينتفع به غيره ، ومن الناس من ينتفع بعلمه في نفسه ولا ينتفع به غيره ، فالأول يمشى في نوره ويمشى الناس في نوره ، والثاني قد طوى نوره ، فهو يمشى في الظلمات ومن تبعه في ظلمته ، والثالث يمشى في نوره وحده .

فصل

إذا عرفت هذه المقدمة فلا يمكن أن يجتمع للقلب حب المحبوب الأعلى وعشق الصور أبداً ، بل هما ضدان لا يتلاقيان . بل لابد أن يخرج أحدهما صاحبه ، فمن كانت قوة حبه كلها للمحسوب الأعلى الذى محبة ما سواه باطلة وعذاب على صاحبها صرفه ذلك عن محبة ما سواه ، وإن أحبه لم يحبه إلا لأجله ، أو لكونه وسيلة له إلى محبته ، أو قاطعاً له عما يضاد محبته وينقصها ، والمحبة الصادقة تقتضى توحيد المحبوب ، وأن لا يشرك بينه وبين غيره فى محبته ، وإذا كان المحبوب من الخلق يأنف ويغار أن يشرك معه محبة غيره فى محبته ، ويمقتة لذلك ، ويبعده ولا يحظيه بقربه ، ويعده كاذباً فى دعوى محبته ، مع أنه ليس أهلاً لصرف كل قوة المحبة إليه ، فكيف بالحبيب الأعلى الذى لا تنبغى المحبة إلا له وحده ، وكل محبة لغيره فهى عذاب على صاحبها ووبال ؟ ولهذا لا يغفر الله سبحانه أن يشرك به فى هذه المحبة ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

فمحبة الصور تفوت محبة ما هو أنفع للعبد منها ، بل تفوت محبة ما ليس له صلاح ولا نعيم ولا حياة نافعة إلا بمحبته وحده ، فليختر العبد إحدى المحبتين ، فإنهما لا يجتمعان فى القلب ولا يرتفعان منه ، بل من أعرض عن محبة الله وذكره والشوق إلى لقائه ابتلاه بمحبة غيره ، فيعذبه بها فى الدنيا وفى البرزخ وفى الآخرة ، فلما أن يعذبه بمحبة الأوثان ، أو بمحبة الصليبان ، أو المردان ، أو بمحبة النسوان ، أو محبة العشراء والإخوان ، أو محبة ما دون ذلك مما هو فى غاية الحقارة والهوان ، فالإنسان عبد محبوبه كائنًا من كان ، كما قيل :

أنت القاتل بكل من أحبته فاختر لنفسك فى الهوى من تصطفى

فمن لم يكن إلهه مالكة ومولاه كان إلهه هواه ، قال تعالى ﴿ أفأرأيت من

اتخذ إلهه هواه ، وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكرون ؟ ﴿ [الجاثية : ٢٣]

فصل

وخاصية التعبد : الحب مع الخضوع ، والدلل للمحبوب ، فمن أحب محبوباً وخضع له فقد تعبد قلبه له ، بل التعبد أحد مراتب الحب ، ويقال له : التتيم أيضاً ، فإن أول مراتبه العلاقة ، وسميت علاقة لتعلق المحب بالمحبوب ، قال الشاعر :

وعلقت ليلي وهى ذات تنائم ^(١) ولم يبد للأتراب من ثلها حجم
وقال الآخر :

أعلاقة أم الوليد بعد ما أفنان رأسك كالثغام المخلص ^(٢)
ثم بعدها الصباية ، وسميت بذلك لانصباب القلب إلى المحبوب ، قال الشاعر :
تشكى المحبون الصباية ليتنى تحملت ما يلقون من بينهم وحدى
فكانت لقلبي لذة الحب كلها فلم يقلها قبلى محب ولا بعدى
ثم الغرام ، وهو لزوم الحب للقلب لزوماً لا ينفك عنه ، ومنه سمي الغريم غريباً ، لملازمته صاحبه ، ومنه قوله تعالى ﴿ إن عذابها كان غراماً ﴾ [الفرقان : ٦٥] وقد أولع المتأخرون باستعمال هذا اللفظ في الحب ، وقل أن تجده في أشعار العرب ، ثم العشق وهو إفراط المحبة ولهذا لا يوصف به الرب تبارك وتعالى ولا يطلق في حقه ، ثم الشوق وهو سفر القلب إلى المحبوب أحث السفر ، وقد جاء إطلاقه في حق الرب تعالى كما في مسند الإمام أحمد عن عمار بن ياسر

(١) جمع تيمية : وهى ما يطلق على الأطفال لمنع الحسد والجن وغيرها ، ومن ذلك ما يسمى عند العامة اليوم بالمحبب التى يكتب فيها الدجالون بمضى تماويذ ، وكان ذلك من عادة أهل الجاهلية لوثنيتهم فإن التمام ملازمة للوثنية وفساد العقول بالأوهام ، وقد جاء الإسلام بإزالة ذلك ، فى الحديث « التمام والتولة شرك » .
(٢) الأفنان : جمع فنن ، وأصله الفصن . والثغام : ثبت أبيض الزهر والتمر ، يشبه به الشيب .

« أنه صلى صلاة فأوجز فيها ، فقليل له في ذلك ، فقال : أما إني دعوت فيها بدعوات كان النبي عليه الصلاة والسلام يدعو بهن : اللهم إني أسألك بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحيني إذا كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي ، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضى ، وأسألك القصد في الفقر والغنى ، وأسألك نعيماً لا ينفد ، وأسألك قرة عين لا تنقطع ، وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك ، وأسألك الشوق إلى لقائك ، في غير ضراء مضره ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان ، واجعلنا هداة مهتدين » وفي أثر آخر « طال شوق الأبرار إلى لقائي ، وأنا إلى لقائهم أشد شوقاً » وهذا هو المعنى الذي عبر عنه صلى الله عليه وسلم بقوله « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه » وقال بعض أهل البصائر في قوله تعالى ﴿ من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت ﴾ ، [العنكبوت : ٥] لما علم الله سبحانه شدة شوق أوليائه إلى لقائه ، وأن قلوبهم لا تهتدى دون لقائه ، ضرب لهم أجلاً وموعداً للقاءه ، تسكن نفوسهم به ، وأطيب العيش وألذه على الإطلاق عيش المحبين المشتاقين المستأنسين ، فحياتهم هي الحياة الطيبة في الحقيقة ، ولا حياة للقلب أطيب ولا أنعم ولا أهنأ منها ، وهي الحياة الطيبة في قوله تعالى ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ﴾ ، [النحل : ٩٧] ليس المراد منها الحياة المشتركة بين المؤمنين والكفار ، والأبرار والفجار من طيب المأكّل والملبس والمشرّب والمنكح ، بل ربما زاد أعداء الله على أوليائه في ذلك أضعافاً مضاعفة ، وقد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحاً أن يحييه حياة طيبة ، فهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده وأى حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها وصارت همّاً واحداً في مرضاة الله ؟ ولم يتشعب قلبه ، بل أقبل على الله ، واجتمعت إرادته وأفكاره التي كانت متقسمة بكل واد منها شعبة على الله ، فصار ذكره بمحبوبه الأعلى

وحبه والشوق إلى لقائه والأنس بقربه هو المستولى عليه . وعليه تدور همومه وإرادته وقصوده بكل خطرات قلبه ، فإن سكت سكت بالله ، وإن نطق نطق بالله . وإن سمع فبه يسمع ، وإن أبصر فبه يبصر ، وبه يبطلش ، وبه يمشى ، وبه يتحرك . وبه يسكن ، وبه يحيى ، وبه يموت ، وبه يبعث ، كما فى صحيح البخارى عنه صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى أنه قال « ما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشى ، ولئن سألتى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيدنه ، وما ترددت فى شيء أنا فاعله كترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه » .

فتضمن هذا الحديث الشريف الإلهى - الذى حرام على غليظ الطبع كثيف القلب فهم معناه والمراد به - حصر أسباب محبته فى أمرين : أداء فرائضه ، والتقرب إليه بالنوافل .

وأخبر سبحانه أن أداء فرائضه أحب ما يتقرب إليه المتقربون ثم بعدها النوافل ، وأن المحب لا يزال يكثر من النوافل حتى يصير محبوباً لله ، فإذا صار محبوباً لله أوجبت محبة الله له محبة أخرى منه لله فوق المحبة الأولى ، فشغلت هذه المحبة قلبه عن الفكرة والاهتمام بغير محبوبه ، وملكت عليه روحه ، ولم يبق فيه سعة لغير محبوبه البتة ، فصار ذكر محبوبه وحبه ومثله الأعلى مالكا لتمام قلبه مستولياً على روحه استيلاء المحبوب على محبه الصادق فى محبته التى قد اجتمعت قوى محبة حبه كلها له .

ولا ريب أن هذا المحب إن سمع سمع بمحبوبه . وإن أبصر أبصر به ، وإن بطش بطش به . وإن مشى مشى به ، فهو فى قلبه ومعه ، وأنيسه وصاحبه ،

فالبراء ههنا للمصاحبة ، وهى مصاحبة لا نظير لها ، ولا تدرك بمجرد الإخبار عنها والعلم بها ، فالمسألة حالية لا علمية محضة .

ولإذا كان المخلوق يجد هذا فى محبة المخلوق التى لم يخلق لها ولم يفطر عليها ، كما قال بعض المحبين :

خيالك فى عيني ، وذكرك فى فمي ومشواك فى قلبي ، فأين تغيب ؟
وقال آخر :

ومن عجب أنى أحسن إليهم فأسأل عنهم من لقيت ، وهم معي
وتطلبهم عيني ، وهم فى سوادها ويشتاquem قلبي ، وهم بين أضلعي
وهذا ألطف من قول الآخر :

إن قلت : غبت ، فقلبي لا يصدقنى إذ أنت فيه مكان السر لم تغب
أو قلت ما غبت ، قال الطرف : ذا كذب فقد تحيرت بين الصدق والكذب
فليس شئ أدنى إلى المحب من محبوبه ، وربما تمكنت منه المحبة حتى يصير
أدنى إليه من نفسه ، بحيث ينسى نفسه ولا ينساه ، كما قال :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لى ليلى بكل سبيل
وقال آخر :

يراد من القلب نسيانكم . وتبني الطباع على الناقل
وخص فى الحديث السمع والبصر واليد والرجل بالذكر فإن هذه الآلات
آلات الإدراك وآلات الفعل ، والسمع والبصر يوردان على القلب الإرادة والكراهة ،
ويجلبان إليه الحب والبغض ، فيستعمل اليد والرجل ، فإذا كان سمع العبد بالله
وبصره بالله آلات كان محفوظاً فى إدراكه وكان محفوظاً فى حبه وبغضه ، فحفظ
فى بطشه ومشيه .

وتأمل كيف اكتفى بذكر السمع والبصر واليد والرجل عن اللسان ، فإنه إذا كان إدراك السمع الذى يحصل باختياره تارة وبغير اختياره تارة ، وكذلك البصر قد يقع بغير الاختيار فجأة ، وكذلك حركة اليد والرجل التى لا بد للعبد منهما . فكيف بحركة اللسان التى لا تقع إلا بقصد واختيار ؟ وقد يستغنى العبد عنها إلا حيث أمر بها .

وأيضاً فانفعال اللسان عن القلب أتم من انفعال سائر الجوارح ، فإنه ترجمانه ورسوله .

وتأمل كيف حقق تعالى كون العبد به سمعه وبصره وبطشه ومشيه بقوله « كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها . ورجله التى يمشى بها » تحقيقاً لكونه مع عبده وكون عبده به فى إدراكاته بسمعه وبصره وحركاته بيده ورجله .

وتأمل كيف قال « فبى يسمع ، وبى يبصر » ولم يقل : فلى يسمع ولى يبصر ، وربما يظن الظان أن اللام أولى بهذا الموضع ، إذ هى أدل على الغاية ووقوع هذه الأمور لله . وذلك أخص من وقوعها به ، وهذا من الوهم والغلط ، إذ ليست الباء ههنا لمجرد الاستعانة ، فإن حركات الأبرار والفجار وإدراكاتهم إنما هى بمعونة الله لهم ، وإنما الباء ههنا للمصاحبة . أى إنما يسمع ويبصر ويبطش ويمشى وأنا صاحبه ومعه ، كقوله فى الحديث الآخر « أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه » وهذه هى المعية الخاصة فى قوله تعالى ﴿ لا تحزن إن الله معنا ﴾ ، [التوبة : ٤٠] وقول النبي « ما ظنك باثنين الله ثالثهما » وقوله تعالى ﴿ وإن الله لمع المحسنين ﴾ ، [العنكبوت : ٦٩] وقوله ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ ، [النحل : ١٢٨] وقوله ﴿ واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ ، [الأنفال : ٤٦] وقوله ﴿ كلا ، إن معى ربي سيهدين ﴾ ، [الشعراء : ٦٢] وقوله تعالى لموسى وهارون ﴿ إننى معكما أسمع وأرى ﴾ ، [طه : ٤٦]

فهذه الباء مفيدة لمعنى هذه المعية دون اللام ، ولا يتأتى للعبد الإخلاص والصبر والتوكل ونزوله فى منازل العبودية إلا بهذه الباء وهذه المعية .
فمضى كان العبد بالله هانت عليه المشاق وانقلبت عليه المخاوف فى حقه أماناً ، فبالله يهون كل صعب ، ويسهل كل عسير ، ويقرب كل بعيد ، وبالله تزول الهموم ، والغموم والأحزان : فلا هم مع الله ، ولا غم ولا حزن إلا حيث يفوته معنى هذه الباء فيصير قلبه حينئذ كالحوت إذا فارق الماء يثب وينقلب حتى يعود إليه .

ولما حصلت هذه الموافقة من العبد لربه فى محابه حصلت موافقة الرب لعبده فى بحوائجه ومطالبه ، فقال « ولئن سألتى لأعطينته ، ولئن استعاذنى لأعيننه » أى كما وافقنى فى مرادى بامتنال أوامرى والتقرب إلى بمحابه ، فأنا أوافقه فى رغبته ورهبته فيما يسألتى أن أفعله به ويستعيننى أن يناله ، وقوى أمر هذه الموافقة من الجانبين حتى اقتضى ذلك تردد الرب سبحانه فى إماتة عبده ، لأنه يكره الموت والرب تعالى يكره ما يكرهه عبده ويكره مساءته ، فمن هذه الجهة يقتضى أن لا يميتته ، ولكن مصلحته فى إماتته ، فإنه ما أماته إلا ليحييه ، ولا أمرضه إلا ليصحه ، ولا أفقره إلا ليغنيه ، ولا منعه إلا ليعطيه ، ولم يخرج من الجنة فى صلب أبيه إلا ليعيده إليها على أحسن أحواله ، ولم يقل لأبيه (اخرج منها) إلا وهو يريد أن يعيده إليها ، فهذا هو الحبيب على الحقيقة لا سواه ، بل لو كان فى كل منبت شعرة من العبد محبة تامة لله لكان بعض ما يستحقه على عبده .

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل فى الأرض يألوه الفتى وحينئذ أبداً لأول منزل

فصل

ثم التتيم ، وهو آخر مراتب الحب ، وهو تعبد المحب لمحبوبه ، يقال :

تيممه الحب ، إذا عبده ، ومنه تيم الله أى عبد الله ، وحقيقة التبعيد الذل والخضوع للمحبوب ومنه قولهم : طريق معبد أى مذل قد ذلته الأقدام ، فالعبد هو الذى ذلله الحب والخضوع لمحبيه ، ولهذا كانت أشرف أحوال العبد ومقاماته هى العبودية ، فلا منزل له أشرف منها .

وقد ذكر الله سبحانه أكرم الخلق عليه وأحبهم إليه ، وهو رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بالعبودية فى أشرف مقاماته ، وهى مقام الدعوة إليه ، ومقام التحدى بالنبوة ، ومقام الإسراء ، فقال سبحانه ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً ^(١) ﴾ [الجن : ١٩] وقال ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾ [البقرة : ٢٣] وقال ﴿ سبحانه الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴾ [الإسراء : ١] وفى حديث الشفاعة « اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » فقال مقام الشفاعة بكمال عبوديته ، وكمال مغفرة الله له ، والله سبحانه خلق الخلق لعبادته وحده لا شريك له ، التى هى أكمل أنواع المحبة مع أكمل أنواع الخضوع ولهذا هو حقيقة الإسلام وملة إبراهيم التى من رغب عنها فقد سفه نفسه ، قال تعالى ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه : أسلم ، قال أسلمت لرب العلمين ، ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب ، يا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ، أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ، إذ قال لبنيه : ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾ [البقرة : ١٣٠ - ١٣٣] ولهذا كان أعظم الذنوب عند الله الشرك وأصل الشرك بالله : الإشراف فى المحبة ، كما قال تعالى ﴿ ومن الناس

(١) يقول : كادوا يكونون عليه جماعات فى حرد وشراسة ، متكاثرين عليه بعضها فوق بعض كلبدة الأسد ، وهى شجرة التكاثر المحيط برأسه وعنقه .

من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حُباً لله ﴿ [البقرة : ١٦٥] فأخبر سبحانه أن من الناس من يشرك به ندّاً يحبه كما يحب الله ، وأخبر أن الذين آمنوا أشد حُباً لله من أصحاب الأنداد لأنّاداهم .
وقيل : بل المعنى أنهم أشد حُباً لله ، فلمنهم وإن أحبوا الله ، ولكن لما شركوا بينه وبين أناداهم في المحبة ضعفت محبتهم لله ، والموحدون لله لما خلصت محبتهم له كانت أشد من محبة أولئك ، والعدل برب العالمين والتسوية بينه وبين الأنداد هو في هذه المحبة ، كما تقدم .

ولما كان مراد الله من خلقه خلوص هذه المحبة له أنكر على من اتخذ من دونه ولياً أو شافعياً غاية الإنكار ، وجمع ذلك تارة ، وأفرد أحدهما عن الآخر فقال تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ، مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ، ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ ، [يونس : ٣] وقال تعالى ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ؟ ﴾ ، [السجدة : ٤] وقال تعالى ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ٥١] وقال في الأفراد ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ؟ قُلْ : أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ ؟ قُلْ : اللَّهُ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً ﴾ ، [الزمر : ٤٣] ، [٤٤] وقال تعالى ﴿ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ، وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً ، وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ، [الجاثية : ١٠] .

فإذا وإلى العبد ربه وحده أقام له الشفعاء ، وعقد الموالاة بينه وبين عباده المؤمنين فصبروا أوليائه في الله ، بخلاف من اتخذ مخلوقاً ولياً من دون الله .
فهذا لون وذاك لون ، كما أن الشفاعة الشركية الباطلة لون ، والشفاعة الحق

الثابتة التي إنما تنال بالتوحيد لون ، وهذا موضع فرقان بين أهل التوحيد وأهل الإشراك ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

والمقصود : أن حقيقة العبودية لا تحصل مع الإشراك بالله في المحبة ، بخلاف المحبة لله ، فإنها من لوازم العبودية وموجباتها ، فإن محبة الرسول - بل تقديمه في الحب على الأنفس والآباء والأبناء - لا يتم الإيمان إلا بها ، إذ محبته من محبة الله ، وكذلك كل حب في الله والله ، كما في الصحيحين عنه صلى الله عليه : « لا يجد حلاوة الإيمان إلا من كان فيه ثلاث خصال - : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار » .

وفي الحديث الذي في السنن « من أحب الله ، وأبغض الله ، وأعطى الله ، ومنع الله ، فقد استكمل الإيمان » .

وفي حديث آخر « ما تحابَّ رجلان في الله إلا كان أفضلهما أشدهما حباً لصاحبه » . فإن هذه المحبة من لوازم محبة الله وموجباتها ، وكلما كانت أقوى كان أصلها كذلك .

فصل

وهنا أربعة أنواع من المحبة ، يجب التفريق بينها ، وإنما ضل من ضل بعدم التمييز بينها .

أحدها : محبة الله . ولا تكفي وحدها في النجاة من عذاب الله والفوز بشوابه ، فإن المشركين وعباد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله .

الثاني : محبة ما يحب الله ، وهذه هي التي تدخله في الإسلام وتخرجه من الكفر ، وأحب الناس إلى الله أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها .

الثالث : الحب لله وفيه ، وهى من لوازم محبة ما يحب ، ولا تستقيم محبة ما يحب إلا فيه وله .

الرابع : المحبة مع الله ، وهى المحبة الشريكية ، وكل من أحب شيئاً مع الله ، لا لله ، ولا من أجله ، ولا فيه ، فقد اتخذته نداً من دون الله ، وهذه محبة المشركين وبقى قسم خامس ليس مما نحن فيه ، وهو المحبة الطبيعية ، وهى ميل الإنسان إلى ما يلائم طبعه ، كمحبة العطشان للماء ، والجائع للطعام ، ومحبة النوم والزوجة والولد ، فتلك لا تنم إلا إذا ألهت عن ذكر الله ، وشغلت عن محبته ، كما قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ﴾ . [المنافقون : ٩] وقال تعالى ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ : [النور : ٣٧] .

فصل

ثم الخلَّة ^(١) وهى تتضمن كمال المحبة ونهايتها ، بحيث لا يبقى فى القلب سعة لغير محبوبه ، وهى منصب لا يقبل المشاركة بوجه ما ، وهذا المنصب خاص للخليلين صلوات الله وسلامه عليهما : إبراهيم ومحمد ، كما قال صلى الله عليه وسلم « إن الله اتخذنى خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً » .

وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن صاحبكم خليل الله » .

وفى حديث آخر « إني أبرأ إلى كل خليل من خلته »

ولما سأل إبراهيم عليه السلام الولد فأعطيه ، وتعلق حبه بقلبه ، فأخذ منه شعبة ، غار الحبيب على خليله أن يكون فى قلبه موضع لغيره ، فأمره بذبحه ،

(١) الخلَّة : بضم الحاء ، الهبة التى تخلت أجزاء القلب .

وكان الأمر في المنام ليكون تنفيذ المأمور به أعظم ابتلاء وامتحاناً ، ولم يكن المقصود ذبح الولد ، ولكن المقصود ذبحه من قلبه ليخلص القلب للرب ، فلما بادر الخليل إلى الامتثال ، وقدم محبة الله على محبة ولده ، حصل المقصود فرفع الذبيح وفدّى الولد بذبح عظيم ، فإن الرب تعالى ما أمر بشيء ثم أبطله رأساً ، بل لا بد أن يبقى بعضه أو بدّله كما أبقى شريعة الفداء ، وكما أبقى استحباب الصدقة بين يدي المناجاة ^(١) وكما أبقى الخمس الصلوات بعد رفع الخمسين وأبقى ثوابها ، وقال « لا يبدل القول لدى » ، وهم خمس في الفعل وهي خمسون في الأجر .

وأما ما يظنه بعض الغالطين ، أن المحبة أكمل من الخلّة ، وأن إبراهيم خليل الله ومحمد صلى الله عليه وسلم حبيب الله ، فمن جهله ، فإن المحبة عامة والخلّة خاصة ، والخلّة نهاية المحبة ، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الله اتخذته خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلًا ، ونفى أن يكون له خليل غير ربه ، مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها ، ولعمر ابن الخطاب وغيرهم .

وأيضاً فإن الله سبحانه ﴿ يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ ، [البقرة : ٢٢٢] و ﴿ يحب الصابرين ﴾ ، [آل عمران : ١٤٦] و ﴿ يحب المحسنين ﴾ ، [آل عمران : ١٤٨] و ﴿ يحب المقسطين ﴾ ، [المائدة : ٤٢] والشاب التائب حبيب الله ، وخلته خاصة بالخليلين ، وإنما هذا من قلة العلم والفهم عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

فصل

قد تقدم أن العبد لا يترك ما يحبه ويهواه ، ولكن يترك أضعفهما محبة

(١) التي كان مأموراً بها في قوله تعالى في سورة المائدة : ١٢ (يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ... الخ)

لأقواهما محبة ، كما أنه يفعل ما يكرهه لحصول ما محبته أقوى عنده من كراهة ما يفعله ، أو لخلاصه من مكروه .

وتقدم أن خاصية العقل إيثار أعلى المحبوبين على أدناهما ، وأيسر المكروهين على أقواهما ، وتقدم أن هذا من كمال قوة الحب والبغض .

ولا يتم له هذا إلا بأمرين : قوة الإدراك ، وشجاعة القلب ، فإن التخلف عن ذلك والعمل بخلافه يكون إما لضعف الإدراك ، بحيث أنه لم يدرك مراتب المحبوب والمكروه على ما هي عليه ، وإما لضعف في النفس وعجز في القلب بحيث لا يطاوعه على إيثار الأصلح لرفع علمه بأنه الأصلح ، فإذا صح إدراكه وقويت نفسه وتشجع قلبه على إيثار المحبوب الأعلى والمكروه الأدنى ، فقد وفق لأسباب السعادة .

فمن الناس من يكون سلطان شهوته أقوى من سلطان عقله وإيمانه ، فيقهر الغالب الضعيف ، ومنهم من يكون سلطان إيمانه وعقله أقوى من سلطان شهوته ، وإذا كان كثير من المرضى يحميه الطبيب عما يضره فتأني عليه نفسه وشهوته إلا تناوله ، ويقدم شهوته على عقله ، وتسميه الأطباء : عديم المروءة فهكذا أكثر مرضى القلوب يؤثرون ما يزيد مرضهم لقوة شهوتهم له .

فأصل الشر من ضعف الإدراك وضعف النفس ودناءتها ، وأصل الخير من كمال الإدراك وقوة النفس وشرفها وشجاعتها .

فالحب والإرادة أصل كل فعل ومبدؤه ، والبغض والكراهة أصل كل ترك ومبدؤه ، وهاتان القوتان في القلب أصل سعادة العبد وشقاوته .

وجود الفعل الاختياري لا يكون إلا بوجود سببه من الحب والإرادة .

وأما عدم الفعل فتارة يكون لعدم مقتضيه وسببه ، وتارة يكون لوجود البغض والكراهة المانعة منه ، وهذا متعلق الأمر والنهي ، وهو الذي يسمى الكف ،

وهو متعلق الثواب والعقاب ، وبهذا يزول الاشتباه في مسألة الترك وهل هو أمر وجودى أو عدمى ؟ والتحقيق أنه قسمان ، فالترك المضاف إلى عدم السبب المقتضى عدمى ، والمضاف إلى السبب المانع من الفعل وجودى .

فصل

وكل واحد من الفعل والترك الاختياريين إنما يؤثره الحى لما فيه من حصول المنفعة التى يلتذ بحصولها ، أو زوال الألم الذى يحصل له الشفاء بزواله ، ولهذا يقال ، شفى صدره ، وشفى قلبه ، وقال :

هى الشفاء لدائى لو ظفرت بها وليس منها شفاء الداء مبذول وهذا مطلوب يؤثره العاقل بل الحيوان البهيم ، ولكن يغلط فيه أكثر الناس غلطاً قبيحاً ، فيقصد حصول اللذة بما يعقب عليه أعظم الألم ، فيؤلم نفسه من حيث يظن أنه يحصل لذتها ، ويشفى قلبه بما يعقب عليه غاية المرض ، وهذا شأن من قصر نظره على العاجل ولم يلاحظ العواقب ، وخاصة العقل النظر فى العواقب ، فأعقل الناس من أثر لذته وراحته الآجلة الدائمة على العاجلة المنقضية الزائلة ، وأسفه الخلق من باع نعيم الأبد وطيب الحياة الدائمة واللذة العظمى التى لا تنغيص فيها ولا نقص بوجه ما بلذة منقضية مشوبة بالآلام والمخاوف ، وهى سريعة الزوال وشيكة الانقضاء .

قال بعض العلماء « فكرت فيما يسعى فيه العقلاء فرأيت سعيهم كله فى مطلوب واحد ، وإن اختلفت طرقهم فى تحصيله ، رأيتهم جميعهم إنما يسعون فى دفع الهم والنغم عن نفوسهم ، فهذا بالأكل والشرب ، وهذا بالتجارة والكتب ، وهذا بالنكاح ، وهذا بسماع الغناء والأصوات المطربة ، وهذا باللهو واللعب ، فقلت : هذا المطلوب مطلوب العقلاء ، ولكن الطرق كلها غير موصلة إليه ، بل

لعل أكثرها إنما يوصل إلى ضده ، ولم أر في جميع هذه الطرق طريقاً موصلة إليه إلا الإقبال على الله ومعاملته وحده وإيثار مرضاته على كل شيء فإن سالك هذه الطريق إن فاته حظه من الدنيا فقد ظفر بالخط العالى الذى لا فوت معه ، وإن حصل للعبد حصل له كل شيء ، وإن فاته فاته كل شيء ، وإن ظفر بحظه من الدنيا ناله على أهنا الوجوه ، فليس للعبد أنفع من هذه الطريق ، ولا أوصل منها إلى لذته وبهجته وسعاده ، وبالله التوفيق .

فصل

والمحسوب قسمان : محبوب لنفسه ، ومحبوب لغيره ، والمحسوب لغيره لا بد أن ينتهى إلى المحبوب لنفسه ، دفعاً للتسلسل المحال ، وكل ما سوى المحبوب الحق فهو محبوب لغيره ، وليس شيء يُحِبُّ لذاته إلا الله وحده ، وكل ما سواه مما يحب فإنما محبته تبع لمحبة الرب تبارك وتعالى ، كمحبة ملائكته وأنبيائه وأوليائه ، فإنها تبع لمحبته سبحانه ، وهى من لوازم محبته ، فإن محبة المحبوب توجب محبة ما يحبه ، وهذا موضع يجب الاعتناء به فإنه محل فرقان بين المحبة النافعة لغيره والمحبة التى لا تنفع بل قد تضر .

فاعلم أنه لا يُحِبُّ لذاته إلا من كان كماله من لوازم ذاته ، وإلهيته وربوبيته وغناه من لوازم ذاته ، وما سواه فإنما يبغض ويكره لمنافاته محابه ومضاداته لها ، وبغضه وكرهه بحسب قوة هذه المنافسة وضعفها فما كان أشد منافاة لمحابه ، كان أشد كراهة من الأعيان والأوصاف والأفعال والإرادات وغيرها ، فهذا ميزان عادل توزن به موافقة الرب ومخالفته وموالاته ومعاداته ، فإذا رأينا شخصاً يحب ما يكرهه الرب تعالى ويكره ما يحبه علمنا أن فيه من معاداته بحسب ذلك ، وإذا رأينا الشخص يحب ما يحبه الرب ويكره ما يكرهه ، وكلما كان الشيء أحب إلى الرب كان أحب إليه وأثر عنده ، وكلما كان أبغض إليه كان

أبغض إليه وأبعد منه ، علمنا أن فيه من موالاة الرب بحسب ذلك . فتمسك بهذا الأصل في نفسك وفي غيرك ، فالولاية عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابه ومساخطه ، وليست بكثرة صوم ولا صلاة ولا تمزق ولا رياضة .

والمحبيب لغيره قسمان أيضاً : أحدهما ما يلتذ المحب بإدراكه وحصوله ، والثاني : ما يتألم به ولكن يحتمله لإفضائه إلى المحبوب ، كشرب الدواء الكريه ، قال تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ ، وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، [البقرة : ٢١٦] .

فأخبر سبحانه أن القتال مكروه لهم مع أنه خير لهم لإفضائه إلى أعظم محبوب وأنفعه ، والنفوس تحب الراحة والدعة والرفاهته ، وذلك شر لها لإفضائه إلى فوات هذا المحبوب ، فالعقل لا ينظر إلى لذة المحبوب العاجل فيؤثرها ، وألم المكروه العاجل فيرغب عنه ، فإن ذلك قد يكون شراً له ، بل قد يجلب عليه غاية الألم ويفوته أعظم اللذة ، بل عقلاء الدنيا يتحملون المشاق المكروهة لما يعقبهم من اللذة بعدها ، وإن كانت منقطعة .

فالأمور أربعة : مكروه يوصل إلى مكروه ، ومكروه يوصل إلى محبوب ، ومحبوب يوصل إلى محبوب ، ومحبوب يوصل إلى مكروه ، فالمحبيب الموصل إلى المحبوب قد اجتمع فيه داعي الفعل من وجهين ، والمكروه الموصل إلى مكروه قد اجتمع فيه داعي الترك من وجهين .

بقي القسمان الآخران يتجاذهما الداعيان - وهما معترك الابتلاء والامتحان - فالنفس تؤثر أقربهما جواراً منها ، وهو العاجل ، والعقل والإيمان يؤثر أنفعهما وأبقاهما ، والقلب بين الداعيين ، وهو إلى هذا مرة ، وإلى هذا مرة ، وههنا

محل الابتلاء شرعاً وقدرًا ، فداعى العقل والإيمان ينادى كل وقت : حى على الفلاح ، عند الصباح يحمد القوم السرى^(١) . وفى الممات يحمد العبد التقي . فإن اشتد ظلام ليل المحبة وتحكم سلطان الشهوة والإرادة يقول : ي نفسى اصبرى ، فما هى إلا ساعة ثم تنقضى . ويذهب هذا كله ويزول .

فصل

وإذا كان الحب أصل كل عمل من حق وباطل . فأصل الأعمال الدين حب الله ورسوله ، كما أن أصل الأقوال الدينية تصديق الله ورسوله . وكل إرادة تمنع كمال الحب لله ورسوله وتزاحم هذه المحبة . أو شبهة تمنع كمال التصديق ، فهى معارضة لأصل الإيمان أو مضغفة له . فإن قويت حتى عارضت أصل الحب والتصديق كانت كفرًا أو شركًا أكبر : وإن لم تعارضه قدحت فى كماله ، وأثرت فيه ضعفًا وفتورًا فى العزيمة والطلب : وهى تحجب الواصل . وتقطع الطالب ، وتنكس الراغب : فلا تصح الموالاة إلا بالمعاداة . كما قال تعالى عن إمام الحنفاء المحبين أنه قال لقومه ﴿ أفأرىتم ما كنتم تعبدون أنتم وآبؤكم الأقدمون ؟ فإنهم عدولى إلا رب العالمين ﴾ : [الشعراء : ٧٥-٧٧] فلم يصح لخليل الله هذه الموالاة والخلة إلا بتحقيق هذه المعاداة : فإنه لا ولاء إلا لله : ولا ولاء إلا بالبراءة من كل معبود سواه ، قال تعالى ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم : إنا برآء منكم وما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم . وبدأ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدًا ، حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ : [المتحنة : ٤] وقال تعالى ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون : إلا الذى فطرني فإنه سيهدين ، وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون ﴾ :

(١) السرى : هو السر ليلًا ، وهذا مثل يضرب للمجد الذى لا يسمع لداعى الفتور .

[الزخرف: ٢٦-٢٨] أى جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية فى عقبه يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض ، وهى كلمة : لا إله إلا الله ، وهى التى ورثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة وهى الكلمة التى قامت بها الأرض والسموات ، فطر الله عليها جميع المخلوقات ، وعليها أسست الملة ونصببت القبلة ، وجردت سيوف الجهاد ، وهى محض حق الله على جميع العباد ، وهى الكلمة العاصمة للدم والمال والذرية فى هذه الدار ، والمنجية من عذاب القبر وعذاب النار ، وهى المنشور الذى لا يدخل أحد الجنة إلا به ، والحبل الذى لا يصل إلى الله من لم يتعلق بسببه ، وهى كلمة الإسلام ، ومفتاح دار السلام ، وبها انقسم الناس إلى شقي وسعيد ومقبول وطريد ، وبها انفصلت دار الكفر من دار الإيمان ، وتميزت دار النعيم من دار الشقاء والهون ، وهى العمود الحامل للفرض والسنة « ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » .

وروح هذه الكلمة وسرها : أفراد الرب جل ثناؤه ، وتقديست أسماؤه ، وتبارك اسمه ، وتعالى جده ، ولا إله غيره : بالمحبة والإجلال والتعظيم ، والخوف والرجاء وتوابع ذلك : من التوكل والإنابة والرغبة والرهبة ، فلا يحب سواه ، وكل ما يحب غيره فإنما يحب تبعاً لمحبتة ، وكونه وسيلة إلى زيادة محبتة ، ولا يخاف سواه ولا يرجى سواه ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يرغب إلا إليه ولا يرهب إلا منه ، ولا يحلف إلا باسمه ، ولا ينذر إلا له ، ولا يتاب إلا إليه ، ولا يطاع إلا أمره ، ولا يتحسب إلا به ، ولا يستغاث فى الشدائد إلا به ، ولا يلتجأ إلا إليه ، ولا يسجد إلا له ولا يذبح إلا له وباسمه ، ويجمع ذلك فى حرف واحد ، وهو : أن لا يعبد إلا إياه بجميع أنواع العبادة ، فهذا هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ، ولهذا حرم على النار من شهد أن لا إله إلا الله حقيقة الشهادة ، ومحال أن يدخل النار من تحقق بحقيقة هذه الشهادة وقام

بها ، كما قال تعالى ﴿ والذين هم بشهاداتهم قائمون ﴾ ، [المعارج : ٣٣] فيكون قائماً بشهادته في ظاهره وباطنه في قلبه وقلبه ، فإن من الناس من تكون شهادته ميتة ، ومنهم من تكون نائمة إذا نبتت انتبت ، ومنهم من تكون مضطجعة ، ومنهم من تكون إلى القيام أقرب ، وهى في القلب بمنزلة الروح في البدن ، فروح ميتة ، وروح مريضة إلى الموت أقرب ، وروح إلى الحياة أقرب ، وروح صحيحة قائمة بمصالح البدن ، وفي الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم « إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت إلا وجدت روحه لها روحاً » فحياة الروح بحياة هذه الكلمة فيها ، كما أن حياة البدن بوجود الروح فيه ، وكما أن ن مات على هذه الكلمة فهو في الجنة يتقلب فيها ، فمن عاش على تحقيقها والقيام بها فروحه تتقلب في جنة المأوى وعيشه أطيب عيش ، قال تعالى : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هي المأوى ﴾ [النازعات : ٤٠ ، ٤١] فالجنة مأواه يوم اللقاء ؟ وجنة المعرفة والمحبة والأنس بالله والشوق إلى لقائه والفرح به والرضى به وعنه مأوى روحه في هذه الدار ، فمن كانت هذه الجنة مأواه ههنا كانت جنة الخلد مأواه يوم المعاد ، ومن حرم الجنة فهو لتلك الجنة أشد حرماناً ، والأبرار في النعيم وإن اشتد بهم العيش وضائق عليهم الدنيا ، والفجار في جحيم وإن اتسعت عليهم الدنيا ، قال تعالى ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلننجينه حياة طيبة ﴾ [النحل : ٩٧] ، وطيب الحياة جنة الدنيا ، وقال تعالى ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً ﴾ ، [الأنعام : ١٢٥] فأى نعيم أطيب من شرح الصدر ؟ وأى عذاب أمر من ضيق الصدر ؟ وقال تعالى ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشري في الحياة

الدنيا وفي الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم ﴿ ، [يونس : ٦٢ - ٦٤] فالؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشاً ، وأنعمهم بالآ ، وأشرحهم صدرًا ، وأسّرهم قلباً ، وهذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة .

قال النبي صلى الله عليه وسلم « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال : حلق الذكر » . ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم « ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة » . ومن هذا قوله - وقد سأله عن وصاله ^(١) في الصوم - « إني لست كهيتكم ، إني أظل عند ربي يطعمني ويسقني » فأخبر صلى الله عليه وسلم أن ما يحصل له من الغذاء عند ربه يقوم مقام الطعام والشراب الحسى ، وأن ما يحصل له من ذلك أمر يختص به لا يشاركه فيه غيره ، فإذا أمسك عن الطعام والشراب فله عنه عوض يقوم مقامه وينوب منابه ، ويغنى عنه ، كما قيل :

لها أحاديث من ذكراك تشغلها عن الشراب وتلهيها عن الزاد
لها بوجهك نور تستضيء به ومن حديثك في أعقابها حادى
إذا شكت من كلال السير أوعدها روح اللقاء ، فتحيا عند ميعاد
وكلما كان وجود الشيء أنفع للعبد وهو إليه أحوج كان تأله بفقدته أشد ،
وكلما كان عدمه أنفع له كان تأله بوجوده أشد ، ولا شيء على الإطلاق أنفع
للعبد من إقباله على الله ، واشتغاله بذكره ، وتنعمه بحبه ، وإيثاره لمرضاته ،
بل لا حياة له ولا نعيم ولا سرور ولا بهجة إلا بذلك ، فعلمه ألم شيء له وأشدّه
عليه ، وإنما تغيب الروح عن شهود هذا العذاب والألم لاشتغالها بغيره ، واستغراقها
في ذلك الغير ، فتغيب به عن شهود ما هي فيه من ألم الفوات بفراق أحب شيء

(١) الوصال : هو أن يصوم أياماً من غير أن يتناول شيئاً من الطعام أو الشراب لا فطوراً ولا سموراً ، وهو منهي عنه ، وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم أنه جعل خاصة له .

إليها وأنفعه لها ، وهذه منزلة السكران المستغرق في سكره الذي احترقت داره وأمواله وأهله وأولاده ، وهو لاستغراقه في السكر لا يشعر بالألم ذلك القوات وحسرتة ، حتى إذا صبحا وكشف عنه غطاء السكر وانتبه من رقدة الخمر ، فهو أعلم بحاله حينئذ ، وهكذا الحال سواء عند كشف الغطاء ومعاينة طلائع الآخرة والإشراف على مفارقة الدنيا ، والانتقال منها إلى الله ، بل الألم والحسرة والعذاب هناك أشد بأضعاف مضاعفة ، فإن المصاب في الدنيا يرجو جبر مصيبتة بالعوض ، ويعلم أنه قد أصيب بشيء زائل لا بقاء له ، فكيف بمن مصيبتة بما لا عوض عنه ، ولا بدل منه ، ولا نسبة بينه وبين الدنيا جميعها ؟ فلو قضى الله سبحانه (عليه) بالموت من هذه الحسرة والألم لكان العبد جديراً به ، فإن الموت ليعود أعظم أمنيته وأكبر حسراته ، وهذا لو كان الألم على مجرد القوات ، فكيف وهناك من العذاب على الروح والبدن بأمور أخرى وجودية مالا يقدر قدره ؟ فتبارك من حمل هذا الخلق الضعيف هذين الألمين العظيمين اللذين لا تحملهما الجبال الرواسي .

فاعرض (الآن) على نفسك أعظم محبوب لك في الدنيا ، بحيث لا تطيب لك الحياة إلا معه ، فأصبحت وقد أخذ منك ، وحيل بينك وبينه أحوج ما كنت إليه ، كيف يكون حالك ؟ هذا ومنه كل عوض ، فكيف بمن لا عوض عنه كما قيل :

من كل شيء إذا ضيعته عوض وما من الله إن ضيعته عوض
وفي أثر إلهي « ابن آدم ، خلقتك لعبادتي فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، ابن آدم ، اطلبني تجلني ، فإن وجلتني وجلت كل شيء ، وإن فتك فاتك كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء » .

فصل

ولما كانت المحبة جنساً تحته أنواع متفاوتة في القدر والوصف ، كان أغلب ما يذكر فيها في حق الله تعالى ما يختص به ويليق به من أنواعها ، ومالا تصلح

إلا له وحده ، مثل العبادة والإنابة ونحوها ، فإن العبادة لا تصلح إلا له وحده ، وكذلك الإنابة ، وقد تذكر المحبة باسمها المطلق كقوله تعالى ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ ، [المائدة : ٥٤] وقوله تعالى ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ ، [البقرة : ١٦٥] وأعظم أنواع المحبة المذمومة : المحبة مع الله التي يسوى المحب فيها بين محبته لله ومحبته للنبي الذي اتخذه من دونه .

وأعظم أنواعها المحمودة محبة الله وحده ومحبة ما أحب ، وهذه المحبة هي أصل السعادة ورأسها التي لا ينجو أحد من العذاب إلا بها ، والمحبة المذمومة الشريكية هي أصل الشقاوة ورأسها التي لا يبق في العذاب إلا أهلها ، فأهل المحبة الذين أحبوا الله وعبدوه وحده لا شريك له لا يدخلون النار ، ومن دخلها منهم بذنوبه فإنه لا يبق فيها منهم أحد .

ومدار القرآن على الأمر بتلك المحبة ولوازمها ، والنهي عن المحبة الأخرى ولوازمها ، وضرب الأمثال والمقاييس للنوعين ، وذكر قصص النوعين ، وتفصيل أعمال النوعين وأوليائهم ومعبود كل منها ، وإخباره عن فعله بالنوعين ، وعن حال النوعين في الدور الثلاثة : دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار ، والقرآن جاء في شأن النوعين .

وأصل دعوة جميع الرسل عليهم السلام من أولهم إلى آخرهم : إنما هي عبادة الله وحده لا شريك له ، المتضمنة لكمال حبه ، وكمال الخضوع والذل له ، والإجلال والتعظيم ، ولوازم ذلك : من الطاعة ، والتقوى .

وقد ثبت في الصحيحين من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « والذي نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » .

وفي صحيح البخارى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « يا رسول الله ، والله لأنت أحبُّ إلىَّ من كل شيء إلا من نفسى ، فقال : لا يا عمر حتى أكون أحبُّ إليك من نفسك ، قال : والذي بعثك بالحق لأنت أحبُّ إلى من نفسى ، قال : الآن يا عمر » فإذا كان هذا شأن محبة عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ووجوب تقديمها على محبة نفس الإنسان وولده ووالده والناس أجمعين ، فما الظن بمحبة مرسله سبحانه وتعالى ، ووجوب تقديمها على محبة ما سواه ؟

ومحبة الرب سبحانه تختص عن محبة غيره فى قدرها وصفتها ، وإفراده سبحانه بها ، فإن الواجب له من ذلك كله أن يكون أحبُّ إلى العبد من ولده ووالده ، بل سمعه وبصره ونفسه التى هى بين جنبيه ، فيكون إلهه الحق ومعبوده أحبُّ إليه من ذلك كله ، والشئ قد يحبُّ من وجه دون وجه ، وقد يحب بغيره ، وليس شئ يحب لذاته من كل وجه إلا الله وحده ، ولا تصلح الألوهية إلا له ، و ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ ، [الأنبياء : ٢٢] والتأله : هو المحبة والطاعة والخضوع .

فصل

وكل حركة فى العالم العلوى والسفلى فأصلها المحبة ، فهى علتها الفاعلية والغائية وذلك لأن الحركات ثلاثة أنواع : حركة اختيارية إرادية ، وحركة طبيعية ، وحركة قسرية .

والحركة الطبيعية أصلها السكون ، وإنما يتحرك الجسم إذا خرج عن مستقره ومركزه الطبيعى ، فهو يتحرك للعود إليه ، وخروجه عن مركزه ومستقره إنما هو بتحريك القاسر المحرك له ، فله حركة قسرية تتحرك بتحريك محرك وقاسره ، وحركة طبيعية بذاتها يطلب بها العود إلى مركزه ، وكلا حركتيه متتابعة

للقاسر المخرك ، فهو أصل الحركتين .
والحركة الاختيارية الإرادية هي أصل الحركتين الأخريين وهي تابعة
للإرادة والمحبة .

والدليل على (انحصار) الحركات في هذه الثلاث : أن المتحرك إن كان له
شعور بالحركة فهي الإرادية ، وإن لم يكن له شعور بها ، فلما أن تكون على وفق
طبعه أولاً ، فالأولى هي الطبيعية ، والثانية القسرية ، إذا ثبت هذا فما في السموات
والأرض وما بينهما من حركات الأفلاك والشمس والقمر والنجوم والرياح
والسحاب والمطر والنبات وحركات الأجنة في بطون أمهاتها ، فإنما هي بواسطة
الملائكة المدبرات أمراً والمقسمات أمراً ، كما دل على ذلك نصوص من القرآن
والسنة في غير موضع ، والإيمان بذلك من تمام الإيمان بالملائكة : فإن الله وكل
بالرحم ملائكة ، وبالقطر ملائكة ، وبالنبات ملائكة ، وبالرياح ملائكة وبالأفلاك
والشمس والقمر والنجوم ، ووكل بكل عبد أربعة من الملائكة ، كاتبين عن
يمينه وشماله ، وحافظين من بين يديه ومن خلفه ، ووكل ملائكة بقبض روحه
وتجهيزها إلى مستقرها من الجنة والنار ، ووكل ملائكة بمساءلته وامتحانه في
قبره وعذابه هناك أو نعيمه ، وملائكة تسوقه إلى المحشر إذا قام من قبره ،
وملائكة بتعذيبه في النار أو نعيمه في الجنة ، ووكل بالجمال ملائكة ، وبالسحاب
ملائكة تسوقه حيث أمرت به وبالقطر ملائكة تنزل بأمر الله بقدر معلوم كما
شاء الله ، ووكل ملائكة بغرس الجنة وعمل آلتها وفرشها والقيام عليها ، وملائكة
بالنار كذلك ، فأعظم جند الله الملائكة ، ولفظ « الملك » يشعر بأنه رسول منفذ
لأمر غيره ، وليس لهم من الأمر شيء ، بل الأمر كله لله ، وهم يدبرون الأمر
ويقسمونه بأمر الله وإذنه ، قال تعالى إخباراً عنهم ﴿ وما ننزل إلا بأمر ربك ،
له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً ﴾ [مریم : ٦٤] وقال

تعالى ﴿وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً ، إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾ [النجم : ٢٦] وأقسم سبحانه بطوائف من الملائكة المنفذين لأمره في الخليقة كما قال تعالى ﴿والصّافات صفّاً ، فالزاجرات زجراً ، فالتاليات ذكراً﴾ ، [الصّافات : ١ - ٣] وقال ﴿ والمرسلات عرفاً ، فالعاصفات عصفاً ، والناشرات نشرّاً ، فالفارقات فرقاً ، فالملقيات ذكراً ، عذراً أو نذراً ﴾ ، [المرسلات : ١ - ٦] وقال تعالى ﴿ والنازعات غرقاً ، والناشطات نشطاً ، والسابحات سباحاً ، فالسابقات سبقاً ، فالمُدبرات أمراً ﴾ [النازعات : ١ - ٥] وقد ذكرنا معنى ذلك وسر الإقسام به في كتاب « التبيان في أقسام القرآن » .

وإذا عرف ذلك فجميع تلك المحبات والحركات والإرادات والأفعال هي عبادة منهم لرب الأرض والسموات ، وجميع الحركات الطبيعية والقسرية تابعة لها : فلولا الحب ما دارت الأفلاك ، ولا تحركت الكواكب النيرات ، ولا هبت الرياح المسخرات ، ولا مرت السحب الحاملات ، ولا تحركت الأجنة في بطون الأمهات ، ولا انصدع عن الحب أنواع النبات ، ولا اضطربت أمواج البحار الزاخرات ، ولا تحركت المدبرات والمقسمات ، ولا سبحت بحمد فاطرها الأرضون والسموات ، وما فيها من أنواع المخلوقات ، فسبحان من ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهنّ ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليماً غفوراً ﴾ ، [الإسراء : ٤٤] .

فصل

فإذا عرف ذلك فكل حى له إرادة ومجبة وعمل بحسبه ، وكل متحرك فأصل حركته المحبة والإرادة ، ولا صلاح للموجودات إلا بأن تكون حركاتها ومحبتها لفاطرها وبازائها وحده ، كما لا وجود لها إلا بإبداعه وحده .

ولهذا قال تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء : ٢٢] .
ولم يقل سبحانه : ولكانتا معدومتين ، ولا قال : لعدمتا ، إذ هو سبحانه قادر
أن يبقيهما على وجه الفساد ، لما وجدنا لكن لا يمكن أن يكونا على وجه الصلاح
والاستقامة إلا بأن يكون الله وحده هو معبودهما ومعبود ما حوتهما وسكن فيهما ،
فلو كان للعالم إلهان لفسد نظامه غاية الفساد ، فإن كل إله كان يطلب مغالبة
الآخر ، والعلو عليه ، وتفردته دونه بآلهيته ، إذ الشراكة نقص في كمال الإلهية ،
والإله لا يرضى لنفسه أن يكون إلهًا ناقصًا فإن قهر أحدهما الآخر كان هو الإله
وحده والمقهور ليس بإله ، وإن لم يقهر أحدهما الآخر لزم عجز كل منهما ونقصه ،
ولم يكن تام الإلهية فيجب أن يكون فوقهما إله قاهر لهما حاكم عليهما ، وإلا
ذهب كل منهما بما خلق ، وطلب كل منهما العلو على الآخر ، وفي ذلك فساد
أمر السموات والأرض ومن فيهما ، كما هو المعهود من فساد البلد إذا كان فيه
ملكان متكافئان ، وفساد الزوجة إذا كان لها بعلان ، (والشؤل إذا كان فيه فحلان) .
وأصل فساد العالم إنما هو من اختلاف الملوك والخلفاء ، ولهذا لم يطمع أعداء
الإسلام فيه في زمن من الأزمنة إلا في زمن تعدد ملوك المسلمين واختلافهم ،
وانفراد كل منهم ببلاد ، وطلب بعضهم العلو على بعض ، فصلاح السموات
والأرض واستقامتهما وانتظام أمر المخلوقات على أتم نظام من أظهر الأدلة على
أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على
كل شيء قدير ، وأن كل معبود من لدن عرشه إلى قرار أرضه باطل إلا وجهه
الأعلى ، قال الله تعالى ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، إذا لذهب كل
إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحانه الله عما يصفون ، عالم الغيب
والشهادة فتعالى عما يشركون﴾ ، [المؤمنون : ٩١ ، ٩٢] وقال تعالى ﴿أم اتخذوا
آلهة من الأرض هم يُنشرون ؟ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسيحان الله

رب العرش عما يصفون ، لا يُسْتَل عما يفعل وهم يُسْتَلون ﴿٢١﴾ ، [الأنبياء : ٢١-٢٣] وقال تعالى ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذّا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا ﴾ ، [الإسراء : ٤٢] فقل ، لابتغوا السبيل إليه بالمغالبة والقهر ، كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض ، ويدل عليه قوله في الآية الأخرى ﴿ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ .

قال شيخنا رضى الله عنه : والصحيح أن المعنى لابتغوا إليه سبيلا بالتقرب إليه وطاعته ، فكيف تعبدونهم من دونه ؟ وهم لو كانوا آلهة كما يقولون لكانوا عبيداً له ، قال : ويدل على هذا وجوه :
منها : قوله تعالى ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ، ويخافون عذابه ﴾ ، [الإسراء : ٥٧] أى هؤلاء الذين تعبدونهم من دونى هم عبادى كما أنتم عبادى ترجون رحمتى وتخافون عذابى ، فلماذا تعبدونهم من دونى ؟ .

الثانى : أنه سبحانه لم يقل لابتغوا عليه سبيلا . بل قال ﴿ لابتغوا إليه سبيلا ﴾ وهذا اللفظ إنما يستعمل فى التقرب ، كقوله تعالى ﴿ اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة ﴾ ، [المائدة : ٣٥] وأما فى المغالبة فإنما يستعمل بعل ، كقوله ﴿ فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ﴾ ، [النساء : ٣٤] .

الثالث : أنهم لم يقولوا إن آلهتهم تغالبه وتطلب العلو عليه ، وهو سبحانه قد قال ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون ﴾ وهم إنما كانوا يقولون : إن آلهتهم تبتغى التقرب إليه وتقربهم زلى إليه ، فقال : لو كان الأمر كما تقولون لكانت تلك الآلهة عبيداً له ، فلماذا تعبدون عبيده من دونه ؟

فصل

والمحبة لها آثار وتوابع ولوازم وأحكام ، سواء كانت محمودة أو مذمومة ،

نافعة أو ضارة من الوجد ، واللوق ، والحلاوة ، والشوق ، والأنس ، والاتصال بالمحبيب والقرب منه ، والانفصال عنه والبعد منه ، الصدم والمهجران ، والفرح والسرور ، والبكاء والحزن ، وغير ذلك من أحكامها ولوازمها .

والمحبة المحموده هي المحبة النافعة التي تجلب لصاحبها ما ينفعه في دنياه وآخرته ، وهذه المحبة هي عنوان السعادة ، والضارة هي التي تجلب لصاحبها ما يضره في دنياه وآخرته ، وهي عنوان الشقاوة .

ومعلوم أن الحي العاقل لا يختار محبة ما يضره ويشقيه ، وإنما يصدر ذلك عن جهل وظلم ، فإن النفس قد تهوى ما يضرها ولا ينفعها . وذلك ظلم من الإنسان لنفسه ، إما بأن تكون جاهلة بحال محبوبها بأن تهوى الشيء وتحب غير عالمة بما في محبته من المضرة ، وهذا حال من اتبع هواه بغير علم ، وإما عالمة بما في محبته من الضرر لكن تؤثر هواها على علمها ، وقد تتركب محبتها من أمرين : اعتقاد فاسد ، وهوى مذموم ، وهذا حال من اتبع الظن وما تهوى الأنفس ، فلا تقع المحبة الفاسدة إلا من جهل أو اعتقاد فاسد أو هوى غالب ، أو ما تركب من ذلك فأعان بعضه بعضاً فتنفّق (١) شبهة وشهوة ، شبهة يشتهى بها الحق بالباطل وتزين له أمر المحبوب ، وشهوة تدعوه إلى حصوله فيتساعد جيش الشهوة والشهوة على جيش العقل والإيمان ، والغلبة لأتقواهما .

وإذا عرف هذا فتوابع كل نوع من أنواع المحبة له حكم متبوعه ، فالمحبة النافعة المحموده التي هي عنوان سعادة العبد توابعها كلها نافعة له ، فحكمها حكم متبوعها . فإن بكى نفعه ، وإن حزن نفعه ، وإن فرح نفعه ، وإن انقبض نفعه ، وإن انبسط نفعه ، فهو يتقلب في منازل المحبة وأحكامها في مزيد وريح وقوة .

(١) نفقت السلمة : أي راجت .

والمحبة الضارة المذمومة توابعها وآثارها كلها ضارة لصاحبها مبعدة له من ربه ، كيفما تقلب في آثارها ونزل في منازلها فهو في خسارة وبعد .
وهذا شأن كل فعل تولد عن طاعة ومعصية ، فكل ما تولد من الطاعة فهو زيادة لصاحبها وقربة ، وكل ما تولد عن المعصية فهو خسران لصاحبه وبعد ، قال تعالى ﴿ ذَلِكْ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظُلْمٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ ^(١) فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْثُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ، وَلَا يَنْفَقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ، لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ، [التوبة : ١٢٠ ، ١٢١] .

فأخبر سبحانه في الآية الأولى : أن المتولد عن طاعتهم وأفعالهم يكتب لهم به عمل صالح ، وأخبر في الثانية : أن أعمالهم الصالحة التي باشروها تكتب لهم أنفسهم ، والفرق بينهما : أن الأول ليس من فعلهم ، وإنما تولد عنه ، فكتب لهم به عمل صالح ، والثاني : نفس أعمالهم فكتب لهم .
فليتأمل قتيل المحبة هذا الفصل حق التأمل ، ليعلم ماله وما عليه .
سيعلم يوم العرض أى بضاعة أضاع ، وعند الوزن ما كان حصلاً

فصل

وكما أن المحبة والإرادة أصل كل فعل كما تقدم ، فهى أصل كل دين سواء أكان حقاً أو باطلاً ، فإن الدين هو من الأعمال الباطنة والظاهرة ، والمحبة والإرادة أصل ذلك كله ، والدين هو الطاعة والعبادة والخلق ، فهو الطاعة اللازمة الدائمة التي صارت خلقاً وعادة ، ولهذا فسر الخلق بالدين في قوله تعالى

(١) النصب : التنب والثناء ، والمخمصة : شدة الجوع .

﴿ وإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾ ، [القلم : ٤] ، قال الإمام أحمد عن ابن عيينة قال ابن عباس « لعلى دين عظيم » وسئلت عائشة عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت « كان خلقه القرآن » والدين فيه معنى الإذلال والقهر ، وفيه معنى الدل والخضوع والطاعة ، فلذلك يكون من الأعلى إلى الأسفل ، كما يقال : دنته فدان ، أى قهرته فذل ، قال الشاعر :

هو دان الرباب إذ كرهوا الد ين فأضحوا بعزة وصيال
ويكون من الأدنى إلى الأعلى ، كما يقال : دنت لله ودنت لله ، وفلان لا يدين الله ديناً ، ولا يدين الله بدين ، فدان الله : أى أطاع الله وأحبه وخافه ، ودان الله : تخشع له وخضع وذل وانقاد .

والدين الباطن لا بد فيه من الحب والخضوع كالعبادة سواء ، بخلاف الدين الظاهر ، فإنه لا يستلزم الحب وإن كان فيه انقياد وذل فى الظاهر .
وسمى الله سبحانه يوم القيامة (يوم الدين) فإنه اليوم الذى يدين فيه الناس بأعمالهم ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وذلك يتضمن جزاءهم وحسابهم ، فلذلك فسروه بيوم الجزاء ويوم الحساب .

وقال تعالى ﴿ فلولاً إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ، ترجعونها إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ، [الواقعة : ٨٦ ، ٨٧] أى هلا تردون الروح إلى مكانها إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَرْبُوبِينَ ولا مقهورين ولا مجزيين ، وهذه الآية تحتاج إلى تفسير ، فإنها سيقى للاحتجاج عليهم فى إنكارهم البعث والحساب ، ولا بد أن يكون الدليل مستلزماً للدلوله ، بحيث ينتقل الذهن منه إلى المدلول . لما بينهما من التلازم ، فكل ملزوم دليل على لازمه ، ولا يجب العكس .

ووجه الاستدلال : أنهم إذا أنكروا البعث والجزاء فقد كفروا برهم ،

وأنكروا قدرته وربوبيته وحكمته ، فإما أن يقولوا بأن لهم رباً قاهراً متصرفاً فيهم ، كما سيميتهم إذا شاء ، ويحييهم إذا شاء ، ويأمرهم وينهاهم ، ويثيب محسنهم ويعاقب مسيئهم ، وإما أن لا يقولوا برب هذا شأنه ، فإن أقروا به آمنوا بالبعث والنشور ، والدين الأمري والجزائي ، وإن أنكروه كفروا به ، فقد زعموا أنهم غير مربوبين ولا محكوم عليهم ، ولا لهم رب يتصرف فيهم كما أراد ، فهلا يقدر على دفع الموت عنهم إذا جاءهم ، وعلى رد الروح إلى مستقرها إذا بلغت الحلقوم ؟ وهذا خطاب للحاضرين عند المحتضر ، وهم يعاينون موته : أى فهلا تردون الروح إلى مكانها إن كان لكم قدرة وتصرف ولستم بمربوبين ولا بمقهورين لقاهر قادر ، تمضى عليكم أحكامه ، وتنفذ أوامره ، وهذا غاية التعجيز لهم ، إذ بين عجزهم عن رد نفس واحدة إلى مكانها ، ولو اجتمع على ذلك الثقلان ، فيالها من آية دالة على ربوبيته سبحانه ، ووحدانيته ، وتصرفه في عبادته ، ونفوذ أحكامه فيهم ، وجريانها عليهم .

والدين دينان . دين شرعى أمرى ، ودين حسابى جزائى . وكلاهما لله وحده ، فالدين كله لله أمراً أو جزاء ، والمحبة أصل كل واحد من الدينين ، فإن ما شرعه سبحانه وتعالى وأمر به فإنه يحبه ويرضاه ، وما نهى عنه فإنه يكرهه ويبغضه لمنافاته لما يحبه ويرضاه ، فهو يحب ضده ، فعاد دينه الأمري كله إلى محبته ورضاه ودين العبد لله به إنما يقبل إذا كان عن محبته ورضاه ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً » فهذا الدين قائم ، بالمحبة وبسببها شرع ، ولأجلها شرع ، وعليها أسس . وكذلك دينه الجزائى فإنه يتضمن مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، وكل من الأمرين محبوب للرب ، فإنهما عدله وفضله ، وكلاهما من صفات كماله ، وهو سبحانه يحب صفاته

وأسماءه ، ويحب من يحبها ، وكل واحد من الدينين فهو صراطه المستقيم الذى هو عليه سبحانه فهو على صراط مستقيم فى أمره ونبيه وثوابه وعقابه . كما قال تعالى إخباراً عن نبيه هود عليه الصلاة والسلام إذ قال لقومه ﴿ إني أشهد الله ، واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه ، فكيّدونى جميعاً ثم لا تنظرون . إني توكلت على الله ربى وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم ﴾ ، [هود : ٥٤ - ٥٦] .

ولما علم نبي الله هود عليه السلام أن ربه على صراط مستقيم فى خلقه وأمره ونبيه ، وثوابه وعقابه ، وقضائه وقدره ، ومنعه وعطائه ، وعافيته وبلائه ، وتوفيقه وخللانه ، لا يخرج فى ذلك عن موجب كماله المقدس ، الذى تقتضيه أسماؤه وصفاته ، من العدل ، والحكمة والرحمة ، والإحسان ، والفضل . ووضع الثواب موضعه والعقوبة فى موضعها اللائق بها ، ووضع التوفيق والخللان والعطاء والمنع والهداية والإضلال كل ذلك فى أماكنه ومحاله اللائقة به ، بحيث يستحق على ذلك كمال الحمد والثناء - أوجب له ذلك العلم والعرفان ، إذ نادى على رموس الملا من قومه بجنان ثابت وقلب غير خائف بل متجرد لله ﴿ إني أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيّدونى جميعاً ثم لا تنظرون ، إني توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم ﴾ [هود : ٥٤ - ٥٦] .

ثم أخبر عن عموم قدرته وقهره لكل ما سواه ، ودل كل شئ لعظمته ، فقال : ﴿ ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم ﴾ ، فكيف أخاف من ناصيته بيد غيره ، وهو فى قهره وقبضته وتحت قهره وسلطانه دونه ؟ وهل هذا إلا من أجهل الجهل وأقبح الظلم ؟

ثم أخبر أنه سبحانه على صراط مستقيم ، فى كل ما يقضيه ويقدره ،

فلا يخاف العبد جوره ولا ظلمه ، فلا أخاف ما دونه فإن ناصيته بيده ، ولا أخاف جوره وظلمه ، فإنه على صراط مستقيم ، فهو سبحانه ماض في عبده حكمه ، عدل فيه قضاؤه ، له الملك وله الحمد ، لا يخرج في تصرفه في عباده عن العدل والفضل ، إن أعطى وأكرم وهدى ووفق فبفضله ورحمته ، وإن منع وأهان وأضل وخلل وأشقى فبعده وحكمته ، وهو على صراط مستقيم في هذا وهذا .

وفي الحديث الصحيح « ما أصاب عبداً قط هم ولا حزن فقال : اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماض في حكمك ، عدل في قضاؤك ، أسألت اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك : أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي وغمي . إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله مكانه فرحاً ، قالوا : يا رسول الله ، ألا نتعلمهن ؟ قال : بلى ينبغي لمن سمعن أن يتعلمهن » وهذا يتناول حكم الرب الكوني والأمري وقضائه الذي يكون باختيار العبد وغير اختياره ، وكلا الحكيمين ماض في عبده ، وكلا القضاة عدل فيه ، فهذا الحديث مشتق من هذه الآية ، بينهما أقرب نسب .

فصل

ونختم الجواب بفصل متعلق بعشق الصور وما فيه من المفساد العاجلة والآجلة وإن كانت أضعاف ما ذكره ذاكر ، فإنه يفسد القلب بالذات ، وإذا فسد القلب فسدت الإرادات والأقوال والأعمال ، وفسد ثغر التوحيد كما تقدم ، وكما سنقرره أيضاً إن شاء الله تعالى .

والله سبحانه وتعالى إنما حكى هذا المرض عن طائفتين من الناس وهم اللوطية

والنساء ، فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف وما راودته وكادته به ، وأخبر عن الحال التي صار إليها يوسف بصبره وعفته وتقواه ، مع أن الذي ابتلى به أمر لا يصبر عليه إلا من صبره الله ، فإن واقعة الفعل بحسب قوة الداعي وزوال المانع ، وكان الداعي ها هنا في غاية القوة ، وذلك من وجوه :

أحدها : ما ركبته الله سبحانه في طبع الرجل من ميله إلى المرأة ، كما يميل العطشان إلى الماء ، والجائع إلى الطعام ، حتى إن كثيراً من الناس يصبر عن الطعام والشراب ولا يصبر عن النساء ، وهذا لا يذم إذا صادف حلالاً ، بل يحمد كما في كتاب الزهد للإمام أحمد من حديث يوسف بن عطية الصنفار عن ثابت البناني عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم « حُببَ إِلَيَّ من دنياكم النساء ، والطيب أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن » .

الثاني : أن يوسف عليه السلام كان شاباً ، وشهوة الشاب وحدته أقوى .

الثالث : أنه كان عزباً ليس له زوجة ولا سرية تكسر قوة الشهوة .

الرابع : أنه كان في بلاد غربة يتأتى للغريب فيها من قضاء الوطر ما لا يتأتى له في وطنه بين أهله ومعارفه .

الخامس : أن المرأة كانت ذات منصب وجمال ، بحيث أن كل واحد من

هذين الأمرين يدعو إلى مواقعتها .

السادس : أنها غير ممتنعة ولا أبية ، فإن كثيراً من الناس يزيل رغبته

في المرأة بإبائها وامتناعها ، لما يجد في نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها ، وكثير

من الناس يزيده الإباء والامتناع إرادة وجباً ، كما قال الشاعر :

وزادني كلفاً في الحب أن منعت أحب شيء إلى الإنسان ما منعا

فطباع النفس مختلفة ، فمنهم من يتضاعف حبه عند بلل المرأة ورغبتها

ويضمحل عند إبائها وامتناعها ، وأخبرني بعض القضاة أن إرادته وشهوته

تضمحل عند امتناع امرأته أو سريته وإبائها ، بحيث لا يعاودها ، ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بالمنع فيشتد شوقه كلما مُنِع ، ويحصل له من اللذة بالظفر نظير ما يحصل له من اللذة بالظفر بالضد بعد امتناعه ونفاره ، اللذة بإدراك المسألة بعد استصعابها وشدة الحرص على إدراكها .

السابع : أنها طلبت وأرادت وراودت وبذلت الجهد ، فكفته مؤنة الطلب وذل الرغبة إليها ، بل كانت هي الرغبة الدليلة ، وهو العزيز المرغوب إليه .
الثامن : أنه في دارها وتحت سلطانها وقهرها ، بحيث يخشى إن لم يطاوعها من أذاها فاله ، فاجتمع داعي الرغبة والرغبة .

التاسع : أنه لا يخشى أن تنم عليه هي ولا أحد من جهتها ، فإنها هي الطالبة الرغبة ، وقد غلقت الأبواب وغيبت الرقباء .

العاشر : أنه كان في الظاهر مملوكًا لها في الدار ، بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ، ولا ينكر عليه ، وكان الأنس سابقًا على الطلب ، وهو من أقوى الدواعي ، كما قيل لامرأة شريفة من أشراف العرب : ما حملك على الزنى ؟ قالت : قرب الوساد وطول السرار ، تغنى قرب وساد الرجل من وسادتي ، وطول السرار بيننا .

الحادي عشر : أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال ، فأرته إياهن وشكت خالها إليهن لتستعين بهن عليه ، فاستعان هو بالله عليهن فقال ﴿ وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ﴾ . [يوسف : ٣٣] .

الثاني عشر : أنها توعده بالسجن والصغار ، وهذا نوع إكراه ، إذ هو تهديد من يغلب على الظن ووقوع ما هدد به ، فيجتمع داعي الشهوة وداعي السلامة من ضيق السجن والصغار .

الثالث عشر : أن الزوج لم يظهر من الغيرة والنخوة ما يفرق به بينهما ويبعد كلا منهما عن صاحبه ، بل كان غاية ما قابلها به أن قال ليوسف ﴿ أعرض عن هذا ﴾ وللمرأة ﴿ استغفري لذنبك ، إنك كنت من الخاطئين ﴾ وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع ، وهذا لم يظهر منه غيرة .

ومع هذه الدواعي كلها فآثر مرضاة الله وخوفه ، وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنى ﴿ قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ﴾ ، [يوسف : ٣٣] وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه ، وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن صبا إليهن بطبعه ، وكان من الجاهلين ، وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه .

وفي هذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على ألف فائدة ، لعلنا إن وفق الله أن نفردها في مصنف مستقل .

فصل

والطائفة الثانية ، الذين حكى الله عنهم العشق : هم للوطية ، كما قال تعالى ﴿ وجاء أهل المدينة يستبشرون ، قال إن هؤلاء ضيبي فلا تفضحون ، واتقوا الله ولا تحزون ، قالوا : أو لم ننهلك عن العالمين ؟ قال : هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين ، لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾ ، [الحجر : ٦٧ - ٧٢] فهذه الأمة عشقت . فحكاه سبحانه عن طائفتين ، عشق كل منهما ما حرم عليه من الصور ، ولم يبال بما في عشقه من الضرر .

وهذا داء أعياء الأطباء دواؤه ، وعز عليهم شفاؤه ، وهو لعمر الله الداء العضال ، والسقم القتال الذي ما علق بقلب إلا وعز على الورى خلاصه من إيساره ، ولا اشتعلت ناره في مهجة إلا وصعب على الخلق تخليصها من ناره ، وهو أقسام :

تارة يكون كفرًا ، كمن اتخذ معشوقه ندًا ، يحبه كما يحب الله ، فكيف إذا كانت محبته أعظم من محبة الله في قلبه ؟ فهذا عشق لا يغفر لصاحبه ، فإنه من أعظم الشرك . والله لا يغفر أن يشرك به ، وإنما يغفر بالتوبة الماحية ما دون ذلك ، وعلامة هذا العشق الشركي الكفرى : أن يقدم العاشق رضاء معشوقه على رضاء ربه ، وإذا تعارض عنده حق معشوقه وحظه وحق ربه وطاعته ، قدم حق معشوقه على حق ربه ، وأكثر رضاه على رضاه ، وبذل له أنفس ما يقدر عليه ، وبذل لربه - إن بذل - أردأ ما عنده . واستفرغ وسعه في مرضاة معشوقه وطاعته والتقرب إليه ، وجعل لربه - إن أطاعه - الفضلة التي تفضل عن معشوقه من ساعاته .

فتأمل حال أكثر عشاق الصور تجدها مطابقة لذلك ، ثم ضع جالهم في كفة ، وتوحيدهم وإيمانهم في كفة ، ثم زن وزنًا يرضى الله به ورسوله ويطابق العدل ، وربما صرح العاشق منهم بأن وصل معشوقه أحب إليه من توحيد ربه ، كما قال العاشق الخبيث (١) .

يترشّفن من فمى رشفات هنّ أحلى فيه من التوحيد
وكما صرح الخبيث الآخر أن وصله أشهى إليه من رحمة ربه وقد مر .
ولا ريب أن هذا العشق من أعظم الشرك ، وكثير منهم يصرح بأنه لم يبق في قلبه موضع لغير معشوقه ألّبتة ، بل قد ملك عليه قلبه كله فصار عبدًا محضًا من كل وجه لمعشوقه : فقد رضى هذا من عبودية الخالق جل جلاله بعبودية مخلوق مثله ، فإن العبودية هي كمال الحب والخضوع ، وهذا قد استفرغ قوة حبه وخضوعه وذله لمعشوقه فقد أعطاه حقيقة العبودية .

(١) البيت للمثنى ، وهو ما أخذ عليه ، ويقال : التوحيد : ضرب من جيد التمر .

ولا نسبة بين مفسدة هذا الأمر العظيم ومفسدة الفاحشة ، فإن تلك ذنب كبير لفاعله حكم أمثاله ، ومفسدة هذا العشق مفسدة الشرك ، وكان بعض الشيوخ من العارفين يقول : لَأَنْ أُبْتَلَىٰ بِالْفَاحِشَةِ مَعَ تِلْكَ الصُّورَةِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ ابْتَلَىٰ فِيهَا بِعَشْقٍ يَتَعَبَّدُ لَهَا قَلْبِي وَيَشْغَلُهُ عَنِ اللَّهِ .

فصل

ودواء هذا الداء القتال : أن يعرف أن ما ابتلى به من هذا الداء المضاد للتوحيد (إنما هو من جهله وغفلة قلبه عن الله ، فعليه أن يعرف توحيد ربه وسننه وآياته أولاً ^(١)) ، ثم يأتي من العبادات الظاهرة والباطنة بما يشغل قلبه عن دوام الفكرة فيه ، ويكثر اللجأ والتضرع إلى الله سبحانه في صرف ذلك عنه ، وأن يراجع بقلبه إليه ، وليس له دواء أنفع من الإخلاص لله ، وهو الدواء الذي ذكره الله في كتابه حيث قال ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف : ٢٤] .

وأخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء من العشق والفحشاء من الفعل بإخلاصه ، فإن القلب إنما أخلص وأخلص عمله لله لم يتمكن منه عشق الصور ، فإنه إنما يتمكن من قلب فارغ ، كما قال :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا
وليعلم العاقل أن العقل والشرع يوجبان تحصيل المصالح وتكميلها وإعدام
المفاسد وتقليلها فإذا عرض للعاقل أمر يرى فيه مصلحة ومفسدة ، وجب عليه
أمران : أمر علمي وأمر عملي ، فالعلمي طلب معرفة الراجح من طرفي المصلحة
والمفسدة ، فإذا تبين له الرجحان وجب عليه إثبات الأصلح له .

(١) هذه الزيادة ساقطة من نسخة مخطوطة ، ونرى أنه لا بد منها .

ومن المعلوم أنه ليس في عشق الصور مصلحة دينية ولا دنيوية بل مفسدته الدينية والدنيوية أضعاف أضعاف ما يقدر فيه من المصلحة وذلك من وجوه :

أحدها : الاشتغال بحب المخلوق وذكره عن حب الرب تعالى وذكره ، فلا يجتمع في القلب هذا وهذا إلا ويقهر أحدهما الآخر ، ويكون السلطان والغلبة له .

والثاني : عذاب قلبه به ، فإن من أحب شيئاً غير الله عذب به ولا بد . كما قيل :

فما في الأرض أشقى من محب	وإن وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكياً في كل حين	مخافة فرقة أو لاشتياق
فيبكى إن نأوا شوقاً إليهم	ويبكى إن دَنَو حذر الفراق
فتسخن عينه عند الفراق	وتسخن عينه عند التلاق

والعشق ، وإن استعذبه صاحبه ، فهو من أعظم عذاب القلب .

الثالث : أن قلبه أسير في قبضة غيره يسومه الهوان ، ولكن لسكرته لا يشعر بمصابه ، فقلبه كعصفورة في كف طفل يسومها حياض الردى والطفل يلهو ويلعب ، كما قال بعض هؤلاء :

ملكك فؤادي بالقطيعة والجفا	وأنت خلّى البال تلهو وتلعب
فعيشنا ناشق عيش الأسير الموثق	وعيش الخلى عيش المسيب المطلق
طليق برأى العين وهو أسير	عليل على قطب الهلاك يدور
وميت يُرى في صورة الحى غاديا	وليس له حتى النشور نشور
أخو غمرات ضاع فيهن قلبه	فليس له حتى الممات حضور

الرابع : أنه يشتغل به عن مصالح دينه ودنياه ، فليس شيء أضيع لمصالح

الدين والدنيا من عشق الصور ، أما مصالح الدين فإنها منوطة بلم شعث القلب وإقباله على الله ، وعشق الصور أعظم شيء تشعيثاً وتشتيثاً له ، وأما مصالح الدنيا فهي تابعة في الحقيقة لمصالح الدين ، فمن انضطت عليه مصالح دينه وضاعت عليه ، فمصالح دنياه أضيع وأضيع .

الخامس : أن آفات الدنيا والآخرة أسرع إلى عشاق الصور من النار في يابس الحطب ، وسبب ذلك : أن القلب كلما قرب من العشق وقوى اتصاله به بُعد من الله . فأبعد القلوب من الله قلوب عشاق الصور ، وإذا بعد القلب من الله طرقت الآفات ، وتولاه الشيطان من كل ناحية واستولى عليه ، لم يدع أذى يمكنه إيصاله إليه إلا أوصله ، فما الظن بقلب تمكن منه عدوه وأحرص العلق على غيه وفساده ، وبعد منه وليه ، ومن لاسعادة ولا فلاح ولا سرور إلا بقربه وولايته ؟

السادس : أنه إذا تمكن من القلب واستحكم وقوى سلطانه أفسد الذهن وأحدث الوسواس ، وربما ألحق صاحبه بالمجانين الذين فسدت عقولهم فلا ينتفعون بها ، وأنجبار العشاق في ذلك موجودة في مواضعها بل بعضها مشاهد بالعيان ، وأشرف ما في الإنسان عقله وبه يتميز عن سائر الحيوانات ، فإذا عدم عقله التحق بالحيوان البهيم ، بل ربما كان حال الحيوان أصلح من حاله ، وهل أذهب عقل مجنون ليلي وأضرابه إلا ذلك ؟ وربما زاد جنونه على جنون غيره ، كما قيل :

قالوا : جنت بمن تهوى ، فقلت لهم : العشق أعظم ممّا بالمجانين
العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وإنما يُصرع المجنون في الحين
السابع : أنه ربما أفسد الحواس أو بعضها ، إما إفساداً معنوياً أو صورياً ، أما الفساد المعنوي فهو تابع لفساد القلب ، فإن القلب إذا فسد فسدت العين

والأذن واللسان ، فيرى القبيح حسناً منه ومن معشوقه كما في المسند مرفوعاً « حبك الشيء يعمى ويصم » فهو يعمى عين القلب عن رؤية مساوى المحبوب وعيوبه فلا ترى العين ذلك ، ويصم أذنه عن الإصغاء إلى العذل فيه ، فلا تسمع الأذن ذلك ، والرغبات تستر العيوب ، فالراغب في الشيء لا يرى عيوبه حتى إذا زالت رغبته فيه أبصر عيوبه ، فشدة الرغبة غشاوة على العين تمنع من رؤية الشيء على ما هو به ، كما قيل :

هويتك إذ عيني عليها غشاوة فلما انجلت قطعت نفسي ألومها

والداخل في الشيء لا يرى عيوبه ، والخارج منه الذى لم يدخل فيه لا يرى عيوبه ، ولا يرى عيوبه إلا من دخل فيه ثم خرج منه ، ولهذا كان الصحابة الذين دخلوا في الإسلام بعد الكفر خيراً من الذين ولدوا في الإسلام .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه « إنما تنتقض عرى الإسلام عروة عروة إذا ولد في الإسلام من لم يعرف الجاهلية » .

وأما فساد الحواس ظاهراً فإنه يمرض البدن وينهكه ، وربما أدى إلى تلفه ، كما هو المعروف من أخبار من قتلهم العشق .

وقد رفع إلى ابن عباس وهو بعرفة شاب قد انتحل حتى عاد لحماً (١) على عظم ، فقال : ما شأن هذا ؟ قالوا : به العشق ، فجعل ابن عباس يستعيد بالله من العشق عامة يومه .

الثامن : أن العشق كما تقدم هو الإفراط في المحبة ، بحيث يستولى المشوق على قلب العاشق ، حتى لا يخلو من تخيله وذكره والفكر فيه ، بحيث لا يغيب عن خاطرهم وذهنه ، فعند ذلك تشتغل النفس عن استخدام القوة الحيوانية

(١) كذا ، ولعل الأصل « جلدأ على عظم » .

والنفسانية فتتعطل تلك القوة ، فيحدث بتعطيلها من الآفات على البدن والروح
ما يعز دواؤه ويتعذر ، فتغير أفعاله وصفاته ومقاصده ، ويختل جميع ذلك ،
فتعجز البشر عن صلاحه ، كما قيل :

الحب أول ما يكون لجاجة يأتى بها وتسوقه الأقدار
حتى إذا خاض الفتى لجج الهوى جاءت أمور لا تطاق كبار
والعشق مبادئه سهلة حلوة ، وأوسطه هم وشغل قلب وسقم ، وآخره عطب
وقتل ، إن لم تتداركه عناية من الله تعالى ، كما قيل :
وعش خالياً فالحب أوله عنى وأوسطه سقم ، وآخره قتل
وقال الآخر :

تولع بالعشق حتى عشق فلما استقبل به لم يطق
رأى لجة ظنها موجة فلما تمكن منها غرق
والذنب له ، فهو الجانى على نفسه ، وقد قعد تحت المثل السائر « يداك
أوكتا ، وفوك نفخ » (١) .

فصل

والعاشق له ثلاث مقامات : مقام ابتداء ، ومقام توسط ، ومقام انتهاء .
فأما مقام ابتدائه ، قالوا : يجب عليه فيه مدافعتة بكل ما يقدر إذا كان
الوصول إلى معشوقه متعذراً قدرأ وشرعاً ، فإن عجز عن ذلك وأبى قلبه إلا السفر
إلى محبوبه - وهذا مقام التوسط والانتهاء - فعليه كتمان ذلك ، وأن لا يفشيه
إلى الخلق ، ولا يشمت بمحبوبه ويهتكه بين الناس ، فيجمع بين الشرك والظلم ،

(١) هذا مثل ، وأصله أن رجلاً كان في جزيرة من جزائر البحر فأراد أن يعبر على زق قد نفخه ، فلم
يحسن إحكامه ، حتى إذا توسط البحر خرجت منه الريح ففرق ، فلما غشيه الموت استغاث برجل فقال له
« يداك أوكتا وفوك نفخ » يضرب لمن يحنى على نفسه ، وأوكى القربة : أى ربطها .

فإن الظلم في هذا الباب من أعظم أنواع الظلم ، وربما أعظم ضرراً على المعشوق وأهله من ظلمه في ماله ، فإنه يعرض المعشوق بهتكه في عشقه إلى وقوع الناس فيه وانقسامهم إلى مصدق ومكذب ، وأكثر الناس يصدق في هذا الباب بأدنى شبهة ، وإذا قيل فلان فعل بفلان أو بفلانة كذبه واحد وصدقه تسعمائة وتسعة وتسعون ، وخبر العاشق المتهتك عند الناس في هذا الباب يفيد القطع اليقيني ، بل إذا أخبرهم المفعول به عن نفسه كذباً وافتراء على غيره جزموا بصدقه جزماً لا يحتمل النقيض ، بل لو جمعهما مكان واحد اتفاقاً لجزموا أن ذلك عن وعد واتفاق بينهما ، وجزمهم في هذا الباب على الظنون والتخيل والشبه والأوهام (والأخبار) الكاذبة ، كجزمهم بالحسيات المشاهدة ، وبذلك وقع أهل الإفك في الطيبة المطيبة حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم المبرأة من فوق سبع سموات ، بشبهة مجيء صفوان بن المعطل بها وحده خلف العسكر ، حتى هلك من هلك ، ولولا أن تولى الله سبحانه براءتها والذب عنها وتكذيب قاذفها لكان أمراً آخر . والمقصود : أن في إظهار المبتلى عشق من لا يحل له الاتصال به من ظلمه وأذاه ما هو عدوان عليه وعلى أهله ، وتعريض لتصديق كثير من الناس ظنونهم فيه ، فإن استعان عليه بمن يستميله إليه إما برغبة أو رهبة تعدى الظلم وانتشر ، وصار ذلك الوسطة ديوناً ظالماً ، وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد لعن الرائش - وهو الوسطة بين الراشئ والمرتشئ في إيصال الرشوة - فما ظنك بالديوث الوسطة بين العاشق والمعشوق في الوصل ، فيتساعد العاشق والديوث على ظلم المعشوق وظلم غيره ممن يتوقف حصول غرضه على ظلمه في نفس أو مال أو عرض ؟ فإنه كثيراً ما يتوقف المطلوب فيه على قتل نفس يكون حياتها مانعة من غرضه ، وكم من قتيل طُلِّدَ دمه ^(١) بهذا السبب من زوج وسيد وقريب ، وكم

(١) طل دمه : أى هدر ، فلم يقتص به ولم تؤخذ له دية .

نُحِبَّتِ (١) امرأة على بعلمها وجارية وعبد سيدهما ، وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من فعل ذلك وتبرأ منه ، وهو من أكبر الكبائر ، وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد نهى أن يخطب الرجل على خطبة أخيه ، أو أن يستام على سوم أخيه ، فكيف بمن يسعى في التفريق بين رجل وبين امرأته وأمه حتى يتصل بهما ؟ وعشاق الصور ومساعدوهم من الدياثة (٢) لا يرون ذلك ذنباً ، فإن طلب العاشق وصل معشوقه ومشاركة الزوج والسيد ، ففي ذلك من إثم ظلم الغير ما لعله لا يقصر عن إثم الفاحشة ، إن لم يربُّ عليها ، ولا يسقط حق الغير بالتوبة من الفاحشة ، فإن التوبة وإن أسقطت حق الله فحق العبد باق له المطالبة به يوم القيامة ، فإن من ظلم الوالد إفساد ولده وفلذة كبده ومن هو أعز عليه من نفسه فظلم الزوج بإفساد حبيبته والجناية على فراشه ، أعظم من ظلمه بأخذ ماله كله ، ولهذا يؤذيه ذلك أعظم مما يؤذيه أخذ ماله ، ولا يعدل ذلك عنده إلا سفك دمه ، فياله من ظلم أعظم إثمًا من فعل الفاحشة ، فإن كان ذلك حقًا ليغازي في سبيل الله وقف له الجاني الفاعل يوم القيامة ، وقيل له « خذ من حسناته ما شئت » كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم « فما ظنكم ؟ » أي فما تظنون يبقى له من حسناته ؟ فإن انضاف إلى ذلك أن يكون المظلوم جاراً ، أو ذا رحم محرم ، تعدد الظلم فصار ظلماً مؤكداً لقطيعة الرحم وإيذاء الجار ، ولا يدخل الجنة قاطع رحم ولا من لا يأمن جاره بوائقه (٣) .

فإن استعان العاشق على وصال معشوقه بشياطين من الجن - إما بسحر

(١) غيب المرأة على زوجها . ما زال يخدمها وينويها حتى أفسدها عليه .

(٢) الدياثة - يفتح الدال والياء - جمع ديوث .

(٣) أي قوائمه وشروره ، جمع بائقة وهي في الأصل الداهية .

أو استخدام أو نحو ذلك - ضم إلى الشرك والظلم كفر السحر ، فإن لم يفعله هو ورضى به كان راضياً بالكفر غير كاره لحصول مقصده ، وهذا ليس ببعيد من الكفر .

والمقصود : أن التعاون في هذا الباب تعاون على الإثم والعدوان .

وأما ما يقترون بحصول غرض العاشق من الظلم المنتشر المتعدى ضرره فأمر لا يخفى ، فإنه إذا حصل له مقصوده من المعشوق فللمعشوق أغراض أخر يريد من العاشق إعانته عليها ، فلا يجد من إعانته بدءاً ، فبقى كل منهما يعين الآخر على الظلم والعدوان ، فالمعشوق يعين العاشق على ظلم من يتصل به من أهله وأقاربه وسيده وزوجه ، والعاشق يعين المعشوق على ظلم من يكون غرض المعشوق متوقفاً على ظلمه ، فكل منهما يعين الآخر على أغراضه التي فيها ظلم الناس ، فيحصل العدوان والظلم للناس بسبب اشتراكهما في القبح لتعاونهما بذلك على الظلم ، كما جرت به العادة بين العشاق والمعشوقين ، من إعانة العاشق لمعشوقه على ما فيه من ظلم وعدوان وبغى ، حتى ربما يسعى له في منصب لا يليق به ولا يصلح لمثله ، وفي تحصيل مال من غير حله ، وفي استغلاله على غيره ، فإذا اختصم معشوقه وغيره أو تشاكيا لم يكن إلا في جانب المعشوق ظالماً كان أو مظلوماً ، هذا إلى ما ينضم إلى ذاك من ظلم العاشق للناس بالتحيل على أخذ أموالهم ، والتوصل بها إلى معشوقه بسرقة أو غصب أو خيانة أن يمين كاذبة أو قطع طريق ونحو ذلك ، وربما أدى ذلك إلى قتل النفس التي حرم الله ليأخذ ماله ليتوصل به إلى معشوقه .

فكل هذه الافات وأضعافها وأضعاف أضاعفها تنشأ من عشق الصور ، وربما حمل على الكفر الصريح ، وقد تنصر جماعة ممر نشئوا في الإسلام بسبب العشق ، كما جرى لبعض المؤذنين حين أبصر امرأة جهلة على سطح ، فتن بها ونزل

ودخل عليها وسألها نفسها فقالت : هي نصرانية فإن دخلت في ديني تزوجت بك ، ففعل ، فرقى في ذلك اليوم على درجة عندهم ، فسقط منها ، فمات ، ذكر هذا عبد الحق في كتاب العاقبة له .

وإذا أراد النصراني أن ينصروا الأسير أروه امرأة جميلة وأمروها أن تطعمه في نفسها ، حتى إذا تمكن حبها من قلبه بذلت له نفسها إن دخل في دينها ، فهناك ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ويضل الله الظالمين ، ويفعل الله ما يشاء ﴾ ، [إبراهيم : ٢٧]

وفي العشق من ظلم كل واحد من العاشق والمعشوق لصاحبه بما وئنته على الفاحشة وظلمه لنفسه (ما فيه) وكل منهما ظالم لنفسه وصاحبه ، وظلمهما متعد إلى الغير كما تقدم وأعظم من ذلك ظلمهما بالشرك ، فقد تضمن العشق أنواع الظلم كلها ، والمعشوق إذا لم يتق الله فإنه يعرض العاشق للتلف ، وذلك ظلم منه ، بأن يطعمه في نفسه ويتزين له ويستميله بكل طريق حتى يستخرج منه ماله ونفعه ولا يمكنه من نفسه ، لئلا يزول غرضه بقضاء وطره منه ، فهو يسومه سوء العذاب ، والعاشق ربما قتل معشوقه ليشفي نفسه منه ، ولا سيما إن جاد بالوصال لغيره ، فكم للعشق من قتيل من الجانبين ، وكم قد أزال من نعمة ، وأفقر من غنى ، وأسقط من مرتبة ، وشتت من شمل ، وكم أفسد من أهل للرجل وولده ، فإن المرأة إذا رأت بعلمها عاشقاً لغيرها اتخذت هي معشوقاً لنفسها ، فيصير الرجل متردداً بين خراب بيته بالطلاق وبين القيادة ، فمن الناس من يؤثر هذا ، ومنهم من يؤثر هذا .

على العاقل أن لا يحكم على نفسه عشق الصور لئلا يؤديه ذلك إلى هذه المفاسد أو أكثرها أو بعضها ، فمن فعل ذلك فهو المفرط بنفسه المغرور بها ، فإذا هلكت فهو الذي أهلكها ، فلولا تكراره النظر إلى وجه معشوقه وطعمه في

وصاله لم يتمكن عشقه من قلبه ، فإن أول أسباب العشق الاستحسان سواء تولد عن نظراً أو سماع ، فإن لم يقارنه طمع في الوصال وقارنه الإيأس من ذلك لم يحدث له العشق ، فإن اقترن به الطمع فصرفه عن فكره ولم يشتغل قلبه به لم يحدث له ذلك ، فإن أطال مع ذلك الفكر في محاسن المعشوق وقارنه خوف ما هو أكبر عنده من لذة وصله ، إما خوف ديني ، كدخول النار ، وغضب الجبار واحتقاب (١) الأوزار ، وغلب هذا الخوف على ذلك الطمع والفكر لم يحدث له ذلك العشق ، فإن فاتته هذا الخوف فقارنه خوف دنيوي كخوف إتلاف نفسه أو ماله أو ذهاب جاهه وسقوط مرتبته عند الناس ، وسقوطه من عين من يعز عليه ، وغلب هذا الخوف لداعي العشق دفعه ، وكذلك إذا خاف من فوات محبوب هو أحب إليه وأنفع من ذلك المعشوق وقدم محبته على محبة ذلك المعشوق اندفع عنه العشق ، فإن انتفى ذلك كله وغلبت محبة المعشوق لذلك انجذب إليه القلب بكليته ومالت إليه النفس كل الميل . فإن قيل : قد ذكرتم آفات العشق ومضاره ومفاسده ، فهلا ذكرتم منافعه وفوائده التي من جملتها : رقة الطبع ، وترويح النفس ، وخفتها ، وزوال ثقلها ، ورياضتها ، وحملها على مكارم الأخلاق ، من الشجاعة والكرم والمروءة ورقة الحاشية ولطف الجانب ؟

وقد قيل ليحيى بن معاذ الرازي : إن ابنك قد عشق فلانة . فقال : الحمد لله الذي صيره إلى طبع الآدمي .

وقال بعضهم : العشق داء أفئدة الكرام .

وقال غيره : العشق لا يصلح إلا لدى مروءة وخليقة طاهرة ، أو لدى لسان فاضل وإحسان كامل ، أو لدى أدب بارع وحسن ناصع .

(١) احتقب الأوزار : سخطها .

وقال آخر : العشق يشجع جنان الجبان ، ويصنى ذهن الغبي ، ويسخى كف البخيل ، ويذل عزة الملوك ، ويسكن نوافر الأخلاق ، وهو أنيس من لا أنيس له ، وجليس من لا جليس له .

وقال آخر : العشق يزيل الأثقال ، ويلطف الروح ، ويصنى كدر القلب ، ويوجب الارتياح لأفعال الكرام ، كما قال الشاعر :

سيهلك في الدنيا شفيق عليكم إذا غاله من جانب الحب غائله
كريم يميئ السر ، حتى كأنه إذا استفهموه عن حديثك جاهله
يود بأن يسمى سقيا لعلها إذا سمعت عنه بشكوى تراسله
ويهتز للمعروف في طلب العلا لتحمد يوما عند ليلي شمائله
فالعشق يحمل على مكارم الأخلاق .

وقال بعض الحكماء : العشق يروض النفس ، ويهذب الأخلاق ، إظهاره طبيعي ، وإضماره تكليفي .

وقال آخر : من لم يهيج نفسه بالصوت الشجي والوجه البهي فهو فاسد المزاج يحتاج إلى علاج ، وأنشدوا في ذلك :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فمالك في طيب الحياة نصيب
وقال آخر :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فأنت وعير في الفلاة سواء
وقال آخر :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فقم فاعتلف تبنًا ، فأنت حمار
وقال بعض العشاق أولو العفة والصيانة : عَفُوا تشرفوا ، واعشقوا تظرفوا .
وقيل لبعض العشاق : ما كنت تصنع لو ظفرت بمن تهوى ؟ فقال : كنت

أمتع طرفي بوجهه ، وأروح قلبي بذكره وحديثه ، وأستر منه مالا يحب كشفه .
ولا أصير بقبيح الفعل إلى ما ينقض عهده ، ثم أنشد :

أخلو به ، فأعفُ عنه تكراً خوف الديانة ، لست من عشاقه
كالماء في يد صائم يلتذّه ظمأً ، فيصبر عن لذيق مذاقه

وقال أبو إسحاق بن إبراهيم : أرواح العشاق عطرة لطيفة ، وأبدانهم رقيقة
خفيفة ، نزهتهم الموانسة ، وكلامهم يحيي موات القلوب ويزيد في العقول ،
ولولا العشق والهوى لبطل نعيم الدنيا .

وقال آخر : العشق للأرواح بمنزلة الغذاء للأبدان ، إن تركته ضرك ، وإن
أكثرته منه قتلك ، وفي ذلك قيل :

خليلي ، إن الحب فيه لذاذة وفيه شقاء دائم وكسروب
على ذاك ما عيش يطيب بغيره ولا عيش إلا بالحبيب يطيب
ولا خير في الدنيا بغير صباة ولا في نعيم ليس فيه حبيب
وذكر الخرائطي عن أبي غسان قال : مر أبو بكر الصديق رضي الله عنه
بجارية وهي تقول :

وهويته من قبل قطع تمنّمي متمايلاً مثل القضيب الناعر
فسألتها : أحرّة أنت أم مملوكة ؟ قالت : بل مملوكة ، فقال : من هواك ؟
فتلكأت ، فأقسم عليها ، فقالت :

وأنا التي لعب الهوى بفؤادها قتلت بحب محمد بن القاسم
فاشتراها من مولاها ، وبعث بها إلى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب^(١)
فقال : هؤلاء فتن الرجال . وكم والله قد مات بهن كريم ، وعطب بهن سليم .

(١) تكررت هذه القصة ، ولا يعقل أن يدرك محمد بن القاسم أبا بكر الصديق ؟ فلا بد أن يكون
أبو بكر آخر ، وتكون كلمة « الصديق » مقحمة لا أصل لها . والخرائطي ليس من يوثق بنقله .

وجاءت جارية إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه تستعدي على رجل من الأنصار ، فقال لها عثمان : ما قصتك ؟ فقالت ، كلفت يا أمير المؤمنين بابن أخيه ، فما أنفك أراعيه ، فقال عثمان : إما أن تهبها لابن أخيك ، أو أعطيك ثمنها من مالى ، فقال : أشهدك يا أمير المؤمنين أنها له .

ونحن لا ننكر فساد العشق الذى متعلقه فعل الفاحشة بالمعشوق ، وإنما الكلام فى العشق العفيف ، من الرجل الطريف ، الذى يأتى له دينه وعفته ومروءته أن يفسد ما بينه وبين الله وما بينه وبين معشوقه بالحرام ، وهذا عشق السلف الكرام والأئمة الأعلام ، فهذا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحد الفقهاء السبعة عشق حتى اشتهر أمره ، ولم ينكر عليه ، وعُدَّ ظالماً من لاهمه ، ومن شعره :

كتمت الهوى حتى أضربك الكتم	ولامك أقوام ، ولومهم ظلم
فتم ^(١) عليك الكاشحون ، وقبلهم	عليك الهوى قد نم ، لو ينفع الكتم
فأصبحت كالهندى إذ مات حسرة	على إثر هند ، أو كمن شفه ^(٢) سقم
تجنبتي إتيان الحبيب تأثما	ألا إن هجران الحبيب هو الإثم
فذق هجرها ، قد كنت تزعم أنه	رشاد ، ألا يا ربما كذب الزعم

وهذا عمر بن عبد العزيز وعشقه مشهور لجارية فاطمة بنت عبد الملك ، وكانت جارية بارعة الجمال ، وكان معجباً بها ، وكان يطلبها من امرأته ويحرص على أن تهبها له ، فتأبى ، ولم تزل الجارية فى نفس عمر ، فلما استخلف أمرت فاطمة بالجارية فأصلحت ، وكانت مثلاً فى حسنها وجمالها ، ثم دخلت على عمر وقالت : يا أمير المؤمنين إنك كنت معجباً بجاريتى فلانة ، وسألتها فأبيت

(٢) ثم الحديث : أفشاء .

(٣) شفه : أى هزله حتى صار نخيلاً .

عليك ، والآن فقد طابت نفسى لك بها ، فلما قالت له ذلك استبان الفرح فى وجهه ، وقال : عجل على بها ، فلما دخلت بها عليه ازداد بها عجباً ، وقال لها : ألقى ثيابك ، ففعلت ، ثم قال لها : على رِسلك ، أخبرينى لمن كنت ؟ ومن أين صرت لفاطمة ؟ فقالت : أغرم الحجاج عاملاً له بالكوفة مالا ، وكنت فى رقيق ذلك العامل ، فأخذنى وبعث بى إلى عبد الملك فوهبنى لفاطمة ، قال : وما فعل ذلك العامل ؟ قالت : هلك ، قال : وهل ترك ولدًا ؟ قالت : نعم ، قال : فما حالهم ؟ قالت : سيئة ، فقال : شُدنى عليك ثيابك واذهبى إلى مكانك ، ثم كتب إلى عامله على العراق : أن ابعث إلى فلان بن فلان على البريد ، فلما قدم قال له : ارفع إلى جميع ما أغرمه الحجاج لأبيك ، فلم يرفع إليه شيئاً إلا دفعه إليه ، ثم أمر بالجارية فدفعت إليه ثم قال له : إياك وإياها ، فلعل أباك قد ألم بها ، فقال الغلام : هى لك يا أمير المؤمنين ، قال : لا حاجة لى بها ، قال : فابتعها منى ، قال : لست إذا ممن نهى النفس عن الهوى ، فلما عزم الفتى على الانصراف بها قالت : أين وَجَدُك بى يا أمير المؤمنين ؟ قال : على حاله ، ولقد زاد . ولم تزل الجارية فى نفس عمر حتى مات رحمه الله .

وهذا أبو بكر محمد بن داود الظاهرى العالم المشهور فى فنون العلم : من الفقه ، والحديث ، والتفسير ، والأدب ، وله قول فى الفقه ، وهو من أكابر العلماء ، وعشقه مشهور .

قال نِفْطَوِيَه : دخلت عليه فى مرضه الذى مات فيه ، فقلت : كيف تجدك ؟ فقال : حب من تعلم أورثنى ما ترى ، فقلت : وما يمنعك من الاستمتاع به مع القدرة عليه ؟ فقال : الاستمتاع على وجهين : أحدهما : النظر المباح ، والآخر : لذة المحظورة ، فأما النظر المباح فهو الذى أورثنى ما ترى ، وأما اللذة المحظورة فيمنعنى منها ما حدثنى أبى حدثنا سويد بن سعيد حدثنا على بن مُسهر عن أبى يحيى

العتات عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما يرفعه « مَنْ عَشِقَ وَكَمْ وَعَفَّ
وصبر ، غفر الله له وأدخله الجنة »
ثم أنشد :

انظر إلى السحر يجرى في لوحظه وانظر إلى دَعَجٍ في طرفه الساجي (١)
وانظر إلى شعرات فوق عارضه كأنهن زِمَالُ دَبٍّ في عجاج
ثم أنشد :

ما لهم أنكروا سوادًا بخديه ولا ينكرون ورد الغصون
إن يكن عيب خده برد الشعر فعيب العيون شعر الجفون
فقلت له : نفيت القياس في الفقه وأثبتته في الشعر ؟ فقال : غلبة الوجد
وملكة النفس دعت إليه ، ثم مات من ليلته ، وبسبب معشوقه صنف كتاب الزهرة
ومن كلامه فيه : « من يئس ممن يهواه ولم يمت من وقته سلاه ، وذلك أن أول
روعات اليأس تأتي القلب وهو غير مستعد لها ، فأما الثانية فتأتي القلب وقد
وطأته لها الروعة الأولى » .

والتي هو وأبو العباس بن سريج في مجلس أبي الحسن على بن عيسى الوزير ،
فتناظرا في مسألة من الإيلاء ، فقال له بن سريج : أنت بأن تقول : من دامت
لحظاته كثرت حسراته - أحق منك بالكلام على الفقه ، فقال : لئن كان
ذلك فلاني أقول :

أنزه في روض المحاسن مقلتي وأمنع نفسي أن تنال محرما
وأحمل من ثقل الهوى ما لو أنه يصب على الصخر الأصم تهلما
وينطق طرفي عن مترجم خاطري فلولا اختلاسي وده لتكلما

(١) الدعج : سواد العينين مع ستهما . وطرف ساج : أى ساكن .

رأيت الهوى دعوى من الناس كلهم فلست أرى وُدًا صحيحًا مسلما
فقال له أبو العباس بن سريج : بم تفخر على ؟ ولو شئت لقلت :
ومطاعم كالشهد في نغماته قد يت أمنعه لذيد سناته (١)
بصبابة وبحسنه وحديثه وأنزه اللحظات عن وجناته
حتى إذا ما الصبح لاح عموده ولى بخاتم ربه وبراته (٢)
فقال أبو بكر : يحفظ عليه الوزير ما أقربه حتى يقيم شاهدين على أنه ولى
بخاتم ربه وبراته ، فقال ابن سريج : يلزمنى في هذا ما يلزمك في قولك :
أنزه في روض المحاسن مقلتي وأمنع نفسى أن تنال محرما
فضحك الوزير ، وقال : لقد جمعنا لطفًا وظرفًا ، ذكر ذلك أبو بكر الخطيب
في تاريخه ، وجاءته يوماً فتيا (٣) مضمونها :

يا ابن داود ، يا فقيه العراق أفتنا في قوائل الأحقاد
هل عليها بما أنت من جناح أم حلال لها دم العشاق ؟
فكتب الجواب بخطه تحت البيتين فقال :
عندى جواب مسائل العشاق فاسمعه من قرح الحشا (٤) مشتاق
لما سألت عن الهوى هيجتنى وأرقى دمعاً لم يكن بمرق
إن كان معشوقاً يعذب عاشقاً كان المعذب أنعم العشاق
قال صاحب كتاب منازل الأحباب شهاب الدين محمود بن سليمان بن فهد
صاحب كتاب الإنشاء . وقلت في جواب البيتين على قافيتهما مجيباً :
قل لمن جاء سائلاً عن لحاظ هن يلعبن في دم العشاق

(١) جمع سنة ، وهى النوم .

(٢) أى كما برأه الله ، أى خلقه ، يريد أنه لم يس بسوء ، أو ببراته .

(٣) بضم الفاء وسكون التاء .

(٤) قرح : بفتح القاف وكسر الراء ، أى جريح الحشا .

ما على السيف في الورى من جناح إن ثنى الحد عن دم مهراق
وسيفو اللعاظ أولى بأن تصفح عما جنت على العشاق
لأنما كل من قتلن شهيد ولهذا يفنى ضئى وهو باق
ونظير ذلك فتوى وردت على الشيخ أبى الخطاب بن أحمد الكلوذانى شيخ
الحنابلة فى وقته رحمه الله :

قل للإمام أبى الخطاب مسألة جاءت إليك وما خلق سواك لها
ماذا على رجل رام الصلاة فمذ لاحت لخاطره ذات الجمال لها (١)
فأجاب تحت السؤال :

قل للأديب الذى وافى بمسألة سرت فؤادى لما أن أصبحت لها
إن التى فتنته عن عبادته خريدة ذات حسن فائضى لها
إن تاب ثم قضى عنه عبادته فرحمة الله تغشى من عصى لها

وقال عبد الله بن معمر القيسى : حججت سنة ثم دخلت ذات ليلة مسجد
المدينة لزيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينما أنا جالس بين القبر
والمنبر إذ سمعت أنينا ، فأصغيت إليه ، فإذا هو يقول :

أشجاك نوح حمام السدر (٢) أهجن منك بلابل الصدر
أم عز نومك ذكر غانية أهدت إليك وساوس الفكر
يا ليلة طالت على دنف (٣) يشكر السهاد وقلة الصبر
أسلمت من تهوى لحر جوى متوقد كتوقد الجمر
فالبدر يشهد أنى كلف مغرم بحب شبيهة البدر

(١) من اللهو : أى شغل عن الصلاة .

(٢) شجر النبق .

(٣) الدنف : هو الذى أضناه الموى وأسقمه الفرام .

ما كنت أحسبني أهم بها حتى بليت ، وكنت لا أدري
ثم انقطع الصوت ، فلم أدر من أين جاء ، وإذا به قد أعاد البكاء والأنين ،
ثم أنشد :

أشجاك من ريا خيال زائر	والليل مسود النواشب عاكر
واغتال مهجتك الهوى برسيه	واهتاج مقلتك الخيال الزائر
ناديت ريا والظلام كأنه	يم تلاطم فيه موج زائر
والبدر يسرى في السماء كأنه	ملك ترجل والنجوم عساكر
وترى به الجوزاء ترقص في الدجى	رقص الحبيب علاه سكر ظاهر
يا ليل ، طُلت على محب ماله	إلا الصباح مساعد ومواز
فأجابني : مت حتف أنفك واعلمن	أن الهوى هو الهوان الحاضر

قال : وكنت ذهبت عند ابتدائه بالأبيات فلم ينتبه إلا وأنا عنده ، فرأيت
شاباً مقتبلاً شبابه قد خرق الدمع في خده خرقين ، فسلمت عليه ، فقال :
اجلس من أنت ؟ قلت : عبد الله بن معمر القيسي ، قال : ألك حاجة ؟ قلت :
نعم ، كنت جالساً في الروضة فما راعني إلا صوتك ، فبنفسي أفديك ، فما الذي
تجد ؟ فقال : أنا عتبة بن الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري ، غدوت
يوماً إلى مسجد الأحزاب فصليت فيه . ثم اعتزلت غير بعيد ، فإذا أنا بنسوة
قد أقبلن يتهادين مثل القطا ، وإذا في وسطهن جارية بديعة الجمال ، كاملة
الملاحة ، فوقفت على فقالت : يا عتبة ، ما تقول في وصل من تطلب وصلك ؟
ثم تركنني وذهبت فلم أسمع لها خبراً ، ولا قفوت لها أثراً ، وأنا حيران أنتقل
من مكان إلى آخر ، ثم صرخ وأكب مغشياً عليه ، ثم أفاق كأنما صبغت وجنتاه
بورس (١) ثم أنشد :

(١) نبت أصفر يعرف الآن بالكرم ، أو هو الزعفران .

أراكم بقلبي من بلاد بعيدة فيا هل تروني بالفؤاد على بعدى
فؤادى وطرفى يأسفان عليكم وعندكم روحى ، وذكركم عندى
ولست ألد العيش حتى أراكم ولو كنت فى الفردوس فى جنة الخلد
فقلت : يا ابن أخى تب إلى ربك واستغفره من ذنبك ، فبين يديك هول
المطلع ، فقال : ما أنا بسالٍ حتى يؤوب القارطان ، ولم أزل معه إلى أن طلع
الصبح ، فقلت : قم بنا إلى مسجد الأحزاب ، ففعل الله أن يكشف كربتك ،
فقال : أرجو ذلك إن شاء الله ببركة طاعتك ، فذهبنا حتى أتينا مسجد الأحزاب
فسمعته يقول :

يا للرجال ليوم الأربعاء ، أما ينفك يحدث لى بعد النهى^(١) طربا
ما إن يزال غزال منه يقتلنى يأتى إلى مسجد الأحزاب منتقبا
يعبر الناس أن الأجر همته وما أتى طالبا للخير محتسبا
لو كان ينبغي ثوبا ما أتى صلفا^(٢) مضمخا بفتيت المسك مختضبا
ثم جلسنا حتى صلينا الظهر ، وإذا بالنسوة قد أقبلن وليست الجارية فيهن ،
فوقفن عليه وقلن له : يا عتبة ما ظنك بطالبة وصلك ، وكاسفة بالك ، قال :
وما بالها ، قلن : أخذها أبوها وارتحل بها إلى أرض السماوة^(٣) فسألتهن عن
الجارية ، فقلن : هى ريا ابنة الغطريف السلمى ، فرفع عتبة رأسه إليهن وقال :
خليلى ، ريا قد أجدُّ بكوها وسارت إلى أرض السماوة غيرها
خليلى ، إني قد عشت^(٤) من البكى فهل عند غيرى مقلة أستعيرها
فقلت له : إني قد وردت بمال جزيل أريد به أهل الستر ، والله لأبذلنه أمامك
حتى تبلغ رضاك وفوق الرضى ، فقم بنا إلى مسجد الأنصار ، فقمنا وسرنا حتى

(١) النهى : العقل .

(٢) الصلف : هو من يدعى اللطف والظرف فى تكبر .

(٣) بادية بين الكوفة والشام .

(٤) العشا : ضعف البصر .

أشرفنا على ملائمتهم ، فسلمت فأحسنوا الرد ، فقلت : أيها الملائمة ما تقولون في عتبة وأبيه ، قالوا : من سادات العرب ، قلت : فإنه قد رُئى بداهية من الهوى ، وما أريد منكم إلا المساعدة إلى السماوة ، فقالوا : سمعاً وطاعة ، فركبنا وركب القوم معنا حتى أشرفنا على منازل بني سليم ، فأعلم الغطريف بنا فخرج مبادراً فاستقبلنا ، وقال : حبيتم يا كرام ، فقلنا : وأنت فحيالك الله ، إنا لك أضياف ، فقال : نزلتم أكرم منزل ، ثم نادى : يا معشر العبيد أنزلوا القوم ، ففرشت الأنطاع والنارق وذبحت الذبائح ، فقلنا : لسنا بدائق طعامك حتى تقضى حاجتنا ، فقال : وما حاجتكم ؟ قلنا : نخطب عقيلتك الكريمة لعتبة ابن الحباب بن المنذر ، فقال : إن التي تخطبونها أمرها إلى نفسها ، وأنا أدنا أخبرها ، ثم دخل مغضباً على ابنته ، فقالت : يا أبت مالى أرى الغضب في وجهك ، فقال : قد ورد الأنصار يخطبونك منى ، فقالت : سادات كرام ، استغفر لهم النبي صلى الله عليه وسلم ، فلمن الخطبة منهم ؟ فقال : لعتبة بن الحباب ، قالت : والله لقد سمعت عن عتبة هذا أنه يبنى بما وعد ، ويدرك إذا قصد ، فقال : أقسمت لا زوجتك به أبداً ، ولقد نمت إلى بعض حديثك معه ، فقالت : ما كان ذلك ، ولكن إذ أقسمت فإن الأنصار لا يردون رداً قبيحاً ، حسن لهم الرد ، فقال : بئى شيء ؟ قالت : أغلظ لهم المهر ، فإنهم يرجعون ولا يجيبون ، فقال : ما أحسن ما قلت ، ثم خرج مبادراً ، فقال : إن فتاة الحى قد أجابت ، ولكنى أريد لها مهر مثلها ، فمن القائم به ؟ فقال عبد الله بن معمر : أنا ، فقل ما شئت ، فقال : ألفت مثقال من الذهب ومائة ثوب من الأبراد ، وخمسة أكرشة عنبر ، فقال عبد الله : لك ذلك كله ، فهل أجبت ؟ قال : أجل ، قال عبد الله : فأنفذت نفرًا من الأنصار إلى المدينة فاتوا بجميع ما طلب ، ثم صنعت الوليمة ، وأقمنا على ذلك أياماً ، ثم قال : خذوا فتاتكم وانصرفوا مصاحبين ، ثم حملها في هودج وجهازها بثلاثين راحلة من المتاع والتحف ، فودعناه وسرنا ، حتى إذا

بقى بيننا وبين المدينة مرحلة واحدة خرجت علينا خيل تريد الغارة أحسبها من سليم ، فحمل عليها عتبة بن الحباب ، فقتل منهم رجالا ، وجرح آخرين ، ثم رجع وبه طعنة تفور دما ، فسقط إلى الأرض ، وانثنى بخده ، فطردت عنا الخيل وقد قضى عتبة نحبه ، فقلنا : واعتبتاه فسمعتنا الجارية ، فألقت نفسها من البعير ، وجعلت تصيح بحرقة ، وأنشدت :

تصبرت لا أنى صبرت ، وإنما أعلل نفسي أنها بك لاحقـه
فلو أنصفت روحى لكنت إلى الردى أمامك من دون البرية سابقـه
فما أحد بعدى وبعـدك منصف خيلا ، ولا نفس لنفس موافقه

ثم شهقت وقضت نحبها ، فاحتفرنا لهما قبرا واحداً ودفناهما فيه ، ثم رجعت إلى المدينة فأقامت سبع سنين ، ثم ذهبت إلى الحجاز ووردت المدينة ، فقلت : والله لآتين قبر عتبة أزوره ، فأتيت القبر ، فإذا عليها شجرة عليها عصائب حمر وصفـر ، فقلت لأرباب المنزل : ما يقال لهذه الشجرة ؟ قالوا : شجرة العروسين .

ولو لم يكن في العشق من الرخصة المخالفة للتشديد إلا الحديث الوارد بالحسن من الأسانيد^(١) ، وهو حديث سويد بن سعيد عن علي بن مسهر عن أبي يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس يرفعه « من عشق وعف ، وكنم فمات ، فهو شهيد » ورواه سويد أيضا عن ابن مسهر عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة مرفوعا ، ورواه الخطيب عن الأزهرى عن المعافى بن زكريا عن قطبة عن ابن الفضل عن أحمد بن مسروق عنه ، ورواه الزبير بن بكار عن عبد العزيز المالحشون عن عبد العزيز ابن أبي حازم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس .
وهذا سيد الأولين والآخرين ورسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم نظر إلى

(١) كتب ابن القيم .

زينب بنت جحش رضى الله عنها فقال « سبحان مقلب القلوب » وكانت تحت زيد بن حارثة مولاه ، فلما همَّ بطلاقها قال له « اتق الله وأمسك عليك زوجك » فلما طلقها زوجها الله سبحانه من رسوله صلى الله عليه وسلم من فوق سبع سموات . فكان هو وليها وولى تزويجها من رسوله صلى الله عليه وسلم ، وعقد عقد نكاحها من فوق عرشه ، وأنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتُخفى فى نفسك ما الله مبديه . وتحشى الناس ، والله أحق أن تخشاه ﴾ [الأحزاب : ٣٧] (١)

وهذا داود نبى الله عليه السلام لما كان تحته تسع وتسعون امرأة ثم أحب تلك المرأة فتزوجها وكمل بها المائة .

وقال الزهرى : أول حب كان فى الإسلام حب النبى صلى الله عليه وسلم عائشة رضى الله عنها ، وكان مسروق يسميها : حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال أبو قيس مولى عبد الله بن عمرو « أرسلنى عبد الله بن عمرو إلى أم سلمة أسأله . أكان النبى صلى الله عليه وسلم يقبل أهله وهو صائم ؟ فقالت ، لا . فقال : إن عائشة رضى الله عنها قالت : إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقبلها وهو صائم ، فقالت أم سلمة رضى الله عنها إن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى عائشة لا يتألك عنها » .

وذكر سعيد بن إبراهيم عن عامر بن سعد عن أبيه ، قال : كان إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم يزور هاجر فى كل يوم من الشام على البراق من شغفه بها ، وقلة صبره عنها .

وذكر الخرائطى أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما اشتري جارية رومية ، فكان يحبها حباً شديداً ، فوقع ذات يوم عن بغلة له ، فجعل يمسح التراب عن وجهها ويقبلها ، وكانت تكثر من أن يقول له : يا بطرون أنت قالون ، تعنى

(١) فى هذا الكلام دخل ، ولا نقره على ما هو عليه .

يا مولاي أنت جيد ، ثم إنها هربت منه ، فوجد عليها وجدًا شديدًا ، وقال :
قد كنت أحسبني قالون فانصرفت فاليوم أعلم أنني غير قالون
قال أبو محمد بن حزم : وقد أحب من الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين
كثير . وقال رجل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : يا أمير المؤمنين رأيت امرأة
فحسنتها ، فقال : ذلك ما لا تملك .

فالجواب ، وبالله التوفيق : أن الكلام في هذا الباب لابد فيه من التمييز
بين الواقع والجائز ، والنافع والضار ، ولا يحكم عليه بالذم والإنكار ولا بالمدح
والقبول من حيث الجملة ، وإنما يبين حكمه وينكشف أمره بذكر متعلقه ،
وإلا فالعشق من حيث هو لا يحمد ولا يذم ، ونحن نذكر النافع من الحب
والضار ، والجائز والحرام .

اعلم أن أنفع المحبة على الإطلاق وأوجبها وأعلاها وأجلها محبة من جبلت
القلوب على محبته ، وفطرت الخليقة على تأليهه ، وبها قامت الأرض والسموات ،
وعاينها فطرت المخلوقات وهي سر شهادة أن لا إله إلا الله ، فإن الإله هو الذى
تأله القلوب بالمحبة والإجلال والتعظيم والذل له والخضوع والتعبد ، والعبادة
لا تصلح إلا له وحده ، والعبادة هي كمال الحب مع كمال الخضوع والذل ،
والشرك في هذه العبودية من أظلم الظلم الذى لا يغفره الله ، والله تعالى يحب لذاته
من جميع الوجوه ، وما سواه فإنما يحب تبعاً لمحبته .

وقد دل على وجوب محبته سبحانه جميع كتبه المنزلة ، ودعوة جميع رسله ،
وفطرته التي فطر عباده عليها ، وما ركب فيهم من العقول ، وما أسبغ عليهم
من النعم ، فإن القلوب مفضولة على محبة من أنعم عليها وأحسن إليها ،
فكيف بمن كمل الإحسان منه ، وما بخلقه جميعهم من نعمة فمنه وحده لا شريك
له ، كما قال تعالى ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ ، ثم إذا مسكم الضر فإليه

تَجَارُونَ ﴿٥٣﴾ ، [النحل : ٥٣] وما تعرّف به إلى عباده من أسمائه الحسنی وصفاته العلا ، وما دلت عليه آثار مصنوعاته من كماله ونهاية جلاله وعظمته .

والمحبة لها داعيان : الجمال والإجلال ، والرب تعالى له الكمال المطلق من ذلك ، فإنه جميل يحب الجمال بل الجمال كله له ، والإجلال كله منه : فلا يستحق أن يحب لذاته من كل وجه سواه ، قال الله تعالى ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ ، [آل عمران : ٣١] وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزّة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ، إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ، ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾ ، [المائدة : ٥٤ - ٥٦]

فالولاية أصلها الحب ، فلا موالاة إلا بحب ، كما أن العداوة أصلها البغض ، والله ولي الذين آمنوا وهم أولياؤه ، فهم يوالونه بمحبته لهم ، وهو مواليهم بمحبته لهم ، فالله يوالى عبده بحسب محبته له .

ولهذا أنكر الله سبحانه على من اتخذ من دونه أولياء ، بخلاف من والى أولياءه ، فإنه لم يتخذهم أولياء من دونه . بل موالاته لهم من تمام موالاته .

وقد أنكر على من سوى بينه وبين غيره في المحبة : وأخبر أن من فعل ذلك فقد اتخذ من دونه أنداداً يحبهم كحب الله ، قال تعالى ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ ، [البقرة : ١٦٥] وأخبر عن سوى بينه وبين الأنداد في الحب أنهم يقولون في النار لمعبودهم ﴿ تالله إن كنا لفي ضلال مبين ، إذ نسويكم برب العالمين ﴾ ، [الشعراء :

وبهذا التوحيد في الحب أرسل الله سبحانه جميع رسله ، وأنزل جميع كتبه ، وأطبقت عليه دعوة جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم ، ولأجله خلقت السموات والأرض والجنة والنار ، فجعل الجنة لأهله والنار للمشركين به فيه .

وقد أقسم النبي صلى الله عليه وسلم أنه « لا يؤمن عبد حتى يكون هو أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » فكيف بمحبة الرب جل جلاله ؟ وقال لعمر ابن الخطاب رضي الله عنه « لا ، حتى أكون أحب إليك من نفسك » أي لا تؤمن حتى تصل محبتك إلى هذه الغاية .

ولإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم أولى بنا من أنفسنا في المحبة ولوازمها ، أفليس الرب جل جلاله وتقدس أساؤه أولى بمحبته وعبادته من أنفسهم ؟ وكل ما منه إلى عبده المؤمن يدعوه إلى محبته مما يحب العبد ويكره ، فعطاؤه ومنعه ، ومغافاته وابتلاؤه ، وقبضه وبسطه ، وعدله وفضله ، وإماتته وإحيائه ، وبره ، ورحمته وإحسانه ، وستره وعفوه ، وحلمه وصبره على عبده ، وإجابته لدعائه ، وكشف كربيه ، وإغاثة لطفته ، وتفريج كربته من غير حاجة منه إليه ، بل مع غناه التام عنه من جميع الوجوه ، كل ذلك داع للقلوب إلى تأليهه ومحبته ، بل تمكينه عبده من معصيته وإعانتها عليها وستره حتى يقضى وطره منها وكلاءته وحراسته له ، وهو يقضى وطره من معصيته ، يعينه ويستعين عليها بنعمه - من أقوى الدواعي إلى محبته ، فلو أن مخلوقاً فعل بمخلوق أدنى شيء من ذلك لم يملك قلبه عن محبته ، فكيف لا يحب العبد بكل قلبه وجوارحه من يحسن إليه على الدوام بعدد الأنفاس ، مع إساءته ؟ فخير له إليه نازل ، وشره إليه صاعد ، يتحجب إليه بنعمه ، وهو غنى عنه ، والعبد يتبغض إليه بالمعاصي وهو فقير إليه ، فلا إحسانه وبره وإنعامه عليه يصد عنه معصيته ، ولا معصية العبد ولؤمه يقطع إحسان ربه عنه .

فَالْأَمُّ اللُّؤْمُ تخلف القلوب عن محبة من هذا شأنه وتعلقها بمحبة سواه .
وأيضاً ، فكل من تحبه من الخلق ويحبك إنما يريدك لنفسه وغرضه منك ،
والله سبحانه يريدك لك ، كما في الأثر الإلهي « عبادي كل يريدك لنفسه ،
وأنا أريدك لك » فكيف لا يستحي العبد أن يكون ربه له بهذه المنزلة وهو معرض
عنه مشغول بحب غيره ، قد استغرق قلبه بمحبة سواه ؟

وأيضاً فكل من تعامله من الخلق إن لم يربح عليك لم يعاملك ، ولا بد له
من نوع من أنواع الربح ، والرب تعالى إنما يعاملك لتربح أنت عليه أعظم
الربح وأعلاه ، فالدرهم بعشرة أمثاله إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ،
والسيئة بواحدة وهي أسرع شئ محواً .

وأيضاً فهو سبحانه خلقتك لنفسه ، وخلق كل شئ لك في الدنيا والآخرة ،
فمن أولى منه باستفراغ الوسع في محبته وبذل الجهد في مرضاته ؟

وأيضاً فمطالبك - بل مطالب الخلق كلهم جميعاً - لديه ، وهو أجود
الأجودين وأكرم الأكرمين ، أعطى عبده قبل أن يسأله فوق ما يؤمله ، يشكر
القليل من العمل وينمي ، ويغفر الكثير من الزلل ويمحوه ، يسأله من في السموات
والأرض كل يوم هو في شأن ، لا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلظه كثرة المسائل
ولا يتبرم بالبحاح الملحين ، بل يحب الملحين في الدعاء ، ويحب أن يسأل ،
ويغضب إذا لم يسأل ، يستحي من عبده حيث لا يستحي العبد منه ، ويستره
حيث لا يستر نفسه ، ويرحمه حيث لا يرحم نفسه ، دعاه بنعمه وإحسانه
وأياديته إلى كرامته ورضوانه فأبى ، فأرسل رسله في طلبه ، وبعث إليه معهم
عهده ، ثم نزل إليه سبحانه بنفسه وقال « من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني
فأغفر له ؟ » كما قيل : أدعوك وللوصل تأبى ، أبعث رسولاً في الطلب ، أنزل
إليك بنفسى ، ألقاك في النوم .

وكيف لا تحب القلوب من لا يأتى بالحسنات إلا هو ، ولا يذهب بالسيئات إلا هو ، ولا يعجيب الدعوات ، ويقيّل العثرات ، ويغفر الخطيئات ، ويستر العورات ، ويكشف الكربات ، ويغيث اللهفات ، وينيل الطلبات سواء ؟ فهو أحق من ذكر ، وأحق من شكر وأحق من عبد ، وأحق من حمد ، وأنصر من ابتغى ، وأرف من ملك ، وأجود من سئل ، وأوسع من أعطى ، وأرحم من استرحم ، وأكرم من قصد ، وأعز من التّجىء إليه ، وأكفى من توكل العبد عليه ، أرحم بعبيده من الوالدة بولدها ، وأشدّ فرحاً بتوبة التائب من الفاقد لراحته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا يئس من الحياة ثم وجدها ، وهو الملك لا شريك له ، والفرد فلا ندّ له ، كل شيء هالك إلا وجهه لن يطاع إلا بإذنه ، ولن يعصى إلا بعلمه ، يطاع فيشكر ، وبتوقيفه ونعمته أطيع ، ويعصى فيغفر ، ويعفو وحقه أضيع ، فهو أقرب شهيد ، وأجل حفيظ ، وأوفى بالعهد ، وأعدل قائم بالقسط ، حال دون النفوس ، وأخذ بالنواصي ، وكتب الآثار ، ونسخ الآجال ، فالقلوب له مفضية ، والسر عنده علانية ، والغيب لديه مكشوف ، وكل أحد إليه ملهوف ، وعنت الوجوه ^(١) لنور وجهه ، وعجزت العقول عن إدراك كنهه ، ودلت الفطر والأدلة كلها على امتناع مثله وشبهه ، أشرقت لنور وجهه الظلمات ، واستنارت له الأرض والسموات ، وصلحت عليه جميع المخلوقات ، لا ينام ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجاب النور ولو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ^(٢) ما انتهى إليه بصره من خلقه .

ما اعتاض باذل حبه لسواه من عوض ، ولو ملك الوجود بأسره

(١) عنت : أى خضعت وذلت .

(٢) سبحات - بفتح السين وضم الباء - والمعنى لو انكشف شيء من أنوار الله التي تحجب العباد عنه هلك كل ما وقع عليه ذلك النور كما خر موسى صمقاً .

فصل

وهنا أمر عظيم يجب على اللبيب الاعتناء به ، وهو أن كمال اللذة والفرح والسرور ونعيم القلب وابتهاج الروح تابع للأمرين : أحدهما : كمال المحبوب في نفسه وجماله ، وأنه أولى بإيثار المحبة من كل ما سواه .

والأمر الثاني : كمال محبته ، واستفراغ الوسع في حبه ، وإيثار قربهِ والوصول إليه على كل شيء .

وكل عاقل يعلم أن اللذة بحصول المحبوب بحسب قوة محبته ، فكلما كانت المحبة أقوى كانت لذة المحبة أكمل ، فلذة من اشتدظمؤه بإدراك الماء الزلال ، ومن اشتد جوعه بأكل الطعام الشهى ، ونظائر ذلك على حسب شوقه وشدة إرادته ومحبته .

ولذا عرف هذا ، فاللذة والسرور والفرح أمر مطلوب في نفسه ، بل هو مقصود كل حى وعاقل ، وإذا كانت اللذة مطلوبة لنفسها فهي تدم إذا أعقبت ألماً أعظم منها . أو منعت لذة خيراً منها وأجل ، فكيف إذا أعقبت أعظم الحسرات ، وفوتت أعظم اللذات المسرات ؟ وتحمد إذا أعانت على لذة عظيمة دائمة مستقرة لا تنغيص فيها ولا نكد بوجه ما ، وهي لذة الآخرة ونعيمها وطيب العيش فيها ، كما قال تعالى ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى ﴾ ، [الأعلى : ١٦ ، ١٧] وقال السحرة لفرعون لما آمنوا ﴿ فاقض ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ، إنا آمنة بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى ﴾ ، [طه : ٧٢ ، ٧٣] .

والله سبحانه وتعالى خلق الخلق لينيلهم هذه اللذة الدائمة في دار الخلد . وأما الدنيا فمنقطعة . ولذاتها لا تصفو أبداً ولا تدوم . بخلاف الآخرة . فإن

لذاتها دائمة ونعيمها خالص من كل كدر وألم ، وفيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذذ الأعين مع الخلود أبداً ، ولا تعلم نفس ما أخفى الله لعباده فيها من قرة أعين ، بل فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وهذا المعنى الذى قصده الناصح لقومه بقوله ﴿ يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ، يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ، وإن الآخرة هي دار القرار ﴾ ، [غافر : ٣٨ ، ٣٩] فأخبرهم أن الدنيا متاع يستمتع بها إلى غيرها ، وأن الآخرة هي المستقر .

وإذا عرف أن لذات الدنيا ونعيمها متاع ووسيلة إلى لذات الآخرة ، ولذلك خلقت الدنيا ولذاتها ، فكل لذة أعانت على لذة الآخرة وأوصلت إليها لم يذم تناولها ، بل يحمد بحسب إيصالها إلى لذة الآخرة .

إذا عرف هذا ، فأعظم نعيم الآخرة ولذاتها : هو النظر إلى وجه الرب جل جلاله . وسماع كلامه منه ، والقرب منه ، كما ثبت في الصحيح في حديث الرؤية « فوالله ما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه » وفي حديث آخر « إنه إذا تجلى لهم ورأوه نسوا ما هم فيه من النعيم » .

وفي النسائي ومسنَد الإمام أحمد عن عمار بن ياسر رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه « وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم ، والشوق إلى لقائك » وفي كتاب السنة لعبد الله بن الإمام أحمد مرفوعاً « كأن الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن ، إذا سمعوه من الرحمن فكأنهم لم يسمعوه قبل ذلك » .

وإذا عرف هذا ، فأعظم الأسباب التى تحصل هذه اللذة هو أعظم لذات الدنيا على الإطلاق ، وهو لذة معرفته سبحانه ولذة محبته ، فإن ذلك هو جنة الدنيا ونعيمها العالى ، ونسبة لذاتها الفانية إليه كتفلة في بحر ، فإن الروح والقلب والبدن إنما خلق لذلك ، فأطيب ما في الدنيا معرفته ومحبته ، وألذ ما في الجنة رؤيته ومشاهدته ، فمحبته ومعرفته قرة العيون ، ولذة الأرواح ، وبهجة القلوب ،

ونعيم الدنيا وسرورها ، بل لذات الدنيا القاطعة عن ذلك تنقلب آلاماً وعذاباً ، ويبقى صاحبها في المعيشة الضنك ، فليست الحياة الطيبة إلا بالله ، وكان بعض المحبين تمر به أوقات فيقول : إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب ، وقد تقدم ذلك ، وكان غيره يقول : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف .

وإذا كان صاحب المحبة الباطلة التي هي عذاب على قلب المحب يقول في حاله :

وما الناس إلا العاشقون ذوو الهوى فلا خير فيمن لا يحب ويعشق
ويقول غيره :

أف للدنيا إذا ما لم يكن صاحب الدنيا محبا أو حبيبا
ويقول الآخر :

ولا خير في الدنيا ولا في نعيمها وأنت وحيد مفرد غير عاشق
ويقول الآخر :

اسكن إلى سكن تلذ بحبه ذهب ^(١) الزمان وأنت منفرد
ويقول الآخر :

تشكى المحبون الصحابة ، ليتنى تحملت ما يلقون من بينهم وحدي
فكانت لقلبي لذة الحب كلها فلم يلحقها قبلي محب ولا بعدى

فكيف بالمحبة التي هي حياة القلوب وغذاء الأرواح ، وليس للقلب لذة ، ولا نعيم ، ولا فلاح ، ولا حياة إلا بها ؟ وإذا فقدها القلب كان ألمه أعظم من ألم العين إذا فقدت نورها ، والأذن إذا فقدت سمعها ، والأنف إذا فقدت شمه ، واللسان إذا فقد نطقه ، بل فساد القلب إذا خلا من محبة فطره وبارئته وإلهه

(١) في نسخة « وصب الزمان » والوصب : المم والتعب .

الحق أعظم من فساد البدن إذا خلا من الروح ، وهذا الأمر لا يصدق به إلا من فيه حياة ، وما لجرح بميت لإيلا م .

والمقصود : أن أعظم لذات الدنيا هو السبب الموصل إلى أعظم لذة في الآخرة ، ولذات الدنيا ثلاثة أنواع :

فأعظمها وأكملها : ما أوصل إلى لذة الآخرة ، ويثاب الإنسان على هذه اللذة أتم ثواب ، ولهذا كان المؤمن يثاب على ما يقصد به وجه الله من أكله وشربه ولباسه ونكاحه وشفاء غيظه بقهر عدو الله وعدوه ، فكيف بلذة إيمانه ، ومعرفته بالله ، ومحبتة له ، وشوقه إلى لقائه ، وطمعه في رؤية وجهه الكريم في جنات النعيم ؟

النوع الثانى : لذة تمنع لذة الآخرة وتعقب آلاما أعظم منها ، كلذة الذين اتخلوا من دون الله أوثانا مودة بينهم في الحياة الدنيا ، يحبونهم كحب الله ، ويستمتعون بعضهم ببعض كما يقولون في الآخرة إذا لقوا ربهم ﴿ ربنا استمتع بعضنا ببعض ، وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا ، قال : النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله ، إن ربك حكيم عليم ، وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون ﴾ ، [الأنعام : ١٢٨ ، ١٢٩] ولذة أصحاب الفواحش والظلم والبغى في الأرض والعلو بغير الحق ، وهذه اللذات في الحقيقة إنما هى استدراج من الله لهم ليذيقهم بها أعظم الآلام ويحرمهم بها أكمل اللذات ، بمنزلة من قدم لغيره طعاما لذيذا مسموما يستدرجه به إلى هلاكه ، قال تعالى ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم إن كيدى متين ﴾ ، [الأعراف : ١٨٢ ، ١٨٣] .

قال بعض السلف فى تفسيرها : كلما أحدثوا ذنباً أحدثنا لهم نعمة ﴿ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين ﴾ [الأنعام : ٤٤ ، ٤٥]

وقال تعالى في أصحاب هذه اللذة ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين
نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾ ، [المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦]
وقال في حقهم ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ، إنما يريد الله ليضلهم بها
في الحياة الدنيا ، وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ ، [التوبة : ٥٥]
وهذه اللذة تنقلب آخرآ آلاماً من أعظم الآلام كما قيل :
مآرب كانت في الحياة لأهلها عذاباً ، فصارت في المعاد عذاباً
النوع الثالث : لذة لا تعقب لذة في دار القرار ولا آلاماً ، ولا تمنع أصل لذة
دار القرار ، وإن منعت كمالها ، وهذه اللذة المباحة التي لا يستعان بها على لذة
الآخرة ، فهذه زمانها يسير ، ليس لتمتع النفس بها قدر ، ولا بد أن تشغل عما هو
خير وأنفع منها .

وهذا القسم هو الذي عناه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله « كل هو يلهو به الرجل
فهو باطل ، إلا رميه بقوسه ، وتأديبه فرسه ، وملاعبته امرأته ، فإنهن من الحق »
فما أعان على اللذة المطلوبة لذاتها فهو حق ، وما لم يعن عايتها فهو باطل .

فصل

فهذا الحب لا ينكر ولا يدم ، بل هو أحمد أنواع الحب ، وكذلك حب
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإثمانعى المحبة الخاصة ، والتي تشغل قلب المحب
وفكره وذكره بمحبوبه ، وإلا فكل مسلم في قلبه محبة لله ورسوله لا يدخل في الإسلام
إلا بها ، والناس متفاوتون في درجات هذه المحبة تفاوتاً لا يحصيه إلا الله ،
فبين محبة الخليطين ومحبة غيرهما ما بينهما ، فهذه المحبة هي التي تُلطف
وتخفف أثقال التكاليف ، وتسخر البخيل ، وتشجع الجبان ، وتصفي الذهن ،
وتروض النفس ، وتطيب الحياة على الحقيقة ، لا محبة الصور المنحرفة ، وإذا

بليت السرائر يوم اللقاء كانت سريرة صاحبها من خير سرائر العباد ، كما قيل :
 سيبقى لكم في مضمر القلب والحشا سريرة حب يوم تبلى السرائر (١)
 وهذه المحبة هي التي تنور الوجه ، وتشرح الصدر ، وتحيي القلب ، وكذلك
 محبة كلام الله ، فإنه من علامة محبة الله ، وإذا أردت أن تعلم ما عندك وعند
 غيرك من محبة الله ، فانظر محبة القرآن من قلبك ، والتذاذك بسماعه أعظم
 من التذاذ أصحاب الملهي والغناء المطرب بسماعهم ، فإن من المعلوم أن من أحب
 محبوباً كان كلامه وحديثه أحب شيء إليه ، كما قيل :

إن كنت تزعم حبي فلم هجرت كتابي ؟
 أما تأملت ما فيهِ من لذيذ خطابي

وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه « لو طهرت قلوبنا لما شبعنا من كلام
 الله » وكيف يشبع المحب من كلام محبوبه وهو غاية مطلوبه ؟ وقال النبي صلى الله
 عليه وسلم يوماً لعبد الله بن مسعود رضى الله عنه « اقرأ على » فقال : اقرأ عليك ، وعليك
 أنزل ؟ فقال : إني أحب أن أسمع من غيري ، فاستفتح فقرأ سورة النساء ،
 حتى إذا بلغ قوله ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء
 شهيداً ﴾ [النساء : ٤١] قال : حسبك ، فرفع رأسه فإذا عينا رسول الله صلى الله
 عليه وسلم تذرفان من البكاء « وكان الصحابة إذا اجتمعوا وفيهم أبو موسى يقولون :
 يا أبا موسى ذكرنا ربنا ، فيقرأ ، وهم يستمعون ، فلمجي القرآن - من الوجد ،
 والذوق ، واللذة ، والحلاوة ، والسرور - أضعاف ما لمجي السماع الشيطاني ،
 فإذا رأيت الرجل ، ذوقه ، ووجدته ، وطربه ، وتشوقه إلى سماع الأبيات دون
 سماع الآيات ، وسماع الألحان دون سماع القرآن ، كما قيل :
 تقرأ عليك الختمة وأنت جامد كالبحر وببيت من الشعر ينشد تميل كالسكران

(١) تبلى السرائر : بالبناء للمفعول ، أى تختبر ويظهر الله ويكشف ما كانت تخفيه .

فهذا أقوى الأدلة على فراغ قلبه من محبة الله وكلامه ، وتعلقه بمحبة سماع الشيطان ، والمغرور يعتقد أنه على شيء .

ففي محبة الله وكلامه ورسوله صلى الله عليه وسلم أضعاف أضعاف ما أورد السائل من فوائد العشق ومنافعه ، بل لا حب على الحقيقة أنفع منه . وكل حب سوى ذلك باطل ، إن لم يعن عليه ويسوق المحبة إليه .

فصل

وأما محبة الزوجات : فلا لوم على المحب فيها . بل هي من كماله ، وقد امتن الله سبحانه بها على عباده فقال ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ ، [الروم : ٢١] فجعل المرأة سكناً للرجل يسكن قلبه إليها ، وجعل بينهما خالص الحب ، وهو المودة المقترنة بالرحمة ، وقد قال تعالى عقيب ذكره ما أحل لنا من النساء وما حرم منهن ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم ، والله عليم حكيم ، والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً ، يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ ، [النساء : ٢٦ - ٢٨] .

ذكر سفيان الثوري في تفسيره عن ابن طاوس عن أبيه : كان إذا نظر إلى النساء لم يصبر .

وفي الصحيح من حديث جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه رأى امرأة فأتى زينب فقضى حاجته منها ، وقال : إن المرأة تقبل في صورة شيطان ، وتدبر في صورة شيطان ، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله ، فإن ذلك يرد ما في نفسه » ففي هذا الحديث عدة فوائد .

منها : الإرشاد إلى التسلي عن المطلوب بجنسه ، كما يقوم الطعام مقام الطعام ، والثوب مقام الثوب .

ومنها : الأمر بمداواة الإعجاب بالمرأة المورث لشهوتها بأنفع الأدوية ، وهو قضاء وطره من أهله ، وذلك ينقض شهوته لها ، وهذا كما أرشد المتحابين إلى النكاح ، كما في سنن ابن ماجة مرفوعا « لم ير للمتحابين مثل النكاح » فنكاح المعشوقة هو دواء العشق الذى جعله الله دواء شرعا ، وقد تداوى به داود صلى الله عليه وسلم ، ولم يرتكب نبي الله محرمًا ، وإنما تزوج المرأة وضمها إلى نسائه لمحبتة لها ، وكانت توبته بحسب منزلته عند الله وعلو مرتبته ، ولا يليق بنا المزيد على هذا .

وأما قصة زينب بنت جحش : فزيد كان قد عزم على طلاقها ولم توافقه ، وكان يستشير النبي صلى الله عليه وسلم في فراقها ، وهو يأمره بإمسакها ، فعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مفارقها ولا بد . فأخفى في نفسه أنه يتزوجها إذا فارقها زيد ، وخشى مقالة الناس : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج زوجة ابنه ، فإنه كان قد تبنى زيدًا قبل النبوة ، والرب تعالى يريد أن يشرع شرعًا عامًا فيه مصالح عباده ، فلما طلقها زيد وانقضت عدتها منه أرسله إليها يخطبها لنفسه ، فجاء زيد واستدبر الباب بظهره ، وعظمت في صدره لما ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فناداها من وراء الباب « يا زينب إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطبك ، فقالت ما أنا بصانعة شيئًا حتى أؤامر ربى ، وقامت إلى محرابها فصلت ، فتولى الله عز وجل نكاحها من رسوله صلى الله عليه وسلم بنفسه ، وعقد النكاح له فوق عرشه ، وجاء الوحي بذلك ﴿ فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها ﴾ [الأحزاب : ٣٧] فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم لوقته فدخل عليها ، فكانت تفخر على نساء النبي صلى الله عليه وسلم بذلك وتقول : « أنتن زوجكن

أهاليكن ، وزوجني الله من فوق سبع سموات » فهذه قصة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع زينب .

ولا ريب أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد حبيب لإليه النساء ، كما في الصحيحين عن أنس عنه صلى الله عليه وسلم « حبيب إلى من دنياكم النساء والطيب ، وجعلت قرّة عيني في الصلاة » هذا لفظ الحديث ، لا ما يرويه بعضهم « حبيب إلى من دنياكم ثلاث » زاد الإمام أحمد في كتاب الزهد في هذا الحديث « أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن » وقد حسده أعداء الله اليهود على ذلك فقالوا : ما همه إلا النكاح ، فرد الله سبحانه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ونافح عنه فقال ﴿ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما ﴾ (١) ، [النساء : ٥٤]

وهذا خليل الله إبراهيم كان عنده سارة أجمل نساء العالمين وأحب هاجر وتسرى بها .

وهذا داود عليه السلام كان عنده تسعة وتسعون امرأة فأحب تلك المرأة وتزوجها فكل المائة ، وهذا سليمان ابنه عليه السلام كان يطوف في الليلة على تسعين امرأة ، وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أحب الناس إليه فقال « عائشة رضي الله عنها » وقال عن خديجة « إني رزقت حبها » .

فمحبّة النساء من كمال الإنسان ، قال ابن عباس « خير هذه الأمة أكثرها نساء » وذكر الإمام أحمد أن عبد الله بن عمر وقع في سهمه يوم جُلّولاء (١) جارية كان عنقها إبريق فضة ، قال عبد الله : « فما صبرت أن قبلتها والناس ينظرون » وبهذا احتج الإمام أحمد على جواز الاستمتاع من المسبية قبل الاستبراء بغير الوطء ، بخلاف الأمة المشتراة .

(١) جُلّولاء : بلدة في طريق خراسان من سواد العراق ، كانت بها وقعة مشهورة على الفرس للمسلمين في سنة ١٦ هـ . فاستباحهم المسلمون .

والفرق بينهما أن انفساخ الملك لا يتوهم في المسبية ، بخلاف المشتراة ، فقد ينفسخ فيها الملك ، فيكون مستمتعاً بأمة غيره .

وقد شفع النبي صلى الله عليه وسلم لعاشق أن تواصله معشوقته بأن تتزوج به فأبّت ، وذلك في قصة مغيث وبريرة لما رآه النبي صلى الله عليه وسلم يمشى خلفها ودموعه تجري على خديه ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو راجعته ؟ » فقالت : أتأمرني يا رسول الله ؟ فقال : لا ، إنما أشفع ، فقالت : لا حاجة لي به ، فقال لعمه : يا عباس ألا تعجب من حب مغيث وبريرة ومن بغضها له ؟ « ولم ينكر عليه حبها ، وإن كانت قبله بآنت منه .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يسوى بين نسائه في القسم ، ويقول « اللهم هذا قسمي فيما أملك ، فلا تلمني فيما لا أملك » يعنى في الحب . وقد قال تعالى ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾ ، [النساء : ١٢٩] يعنى في الحب والجماع .

ولم يزل الخلفاء الراشدون والرحماء من الناس يشفعون للعشاق إلى معشوقهم الجائز وصلهن كما تقدم من فعل أبي بكر وعثمان ، وكذلك على رضى الله عنه أتى بغلام من العرب وجد في دار قوم بالليل ، فقال له : ما قصتك ؟ قال : لست بسارق ولكني أصدقك :

تعلقت في دار الرياحي خوذة	يذل لها من حسن منظرها البسدر
لها في بنات الروم حسن ومنصب	إذا افتخرت بالحسن خافتها الفخر
فلما طرقت الدار من حر مهجتي	أبيت وفيها من توقدها الجمر
تبادر أهل الدار بي ثم صيخوا	هو اللص محتوماً له القتل والأسر

فلما سمع على بن أبي طالب رضى الله عنه شعره رق له ، وقال للمهلب ابن رباح : اسمح له بها ، فقال : يا أمير أمير المؤمنين ، سله من هو ؟ فقال : النهاس بن عيينة ، فقال : خلدها فهي لك .

واشتري معاوية جارية ، فأعجب بها إعجاباً شديداً ، فسمعها يوماً تنشد أبياتاً منها :

وفارقت كالفصن يهتز في الثرى طريراً وسياً بعدما طرّ شاربسه
فسألها ، فأخبرته أنها تحب سيدها ، فردها إليه ، وفي قلبه منها .
وذكر الزمخشري في ربيعة أن زبيدة قرأت في طريق مكة على حائط :
أما في عباد الله أو في إمامه كريم يجلى الهم عن ذاهب العقل
له مقلة أما الأماق قريحه وأما الحشا فالنار منه على رجل
فندرت أن تحتال لقائلهما إن عرفته حتى تجمع بينه وبين من يحبه ،
فبينما هي بالمزدلفة إذ سمعت من ينشدهما ، فطلبت ، فزعم أنه قالهما في ابنة عم
له نذر أهلها أن لا يزوجوها منه ، فوجهت إلى الحى ، وما زالت تبذل لهم المال
حتى زوجوها منه ، وإذا المرأة أعشق له منه لها ، فكانت تعده من أعظم حسناتها
وتقول . ما أنا بشيء أسر منى من جمعى بين ذلك الفتى والفتاة .
قال الخرائطى : وكان لسليمان بن عبد الملك غلام وجارية يتحابان ، فكتب
الغلام إليها يوماً :

ولقد رأيتك في المنام كأنما عاطيتنى من ريق فيك البارد
وكان كفك في يدي ، وكأننا بتنا جميعاً في فراش واحد
فطفقت يومى كله متراقداً لأراك في نوى ، ولست براقداً
فأجابته الجارية :

خييراً رأيت ، وكل ما أبصرته ستناله منى برغم الحاسد
إني لأرجو أن تكون معانق فتبيت منى فوق ثدى ناهد
وأراك بين خلاخلى ودمالجى وأراك فوق ترائي ومجاسدى
فبلغ ذلك سليمان فأنكحها الغلام ، وأحسن حالهما على فرط غيرته .
وقال جامع بن برخية : سألت سعيد بن المسيب مفتي المدينة : هل في حب

دهمنا من وزر ؟ فقال سعيد : إنما تلام على ما تستطيع من الأمر ، فقال سعيد :
والله ما سألتني أحد عن هذا ، ولو سألتني ما كنت أجيب إلا به .
فعشق النساء ثلاثة أقسام : قسم هو قرينة وطاعة ، وهو عشق امرأته وجاريتها ،
وهذا العشق عشق نافع ، فإنه أدعى إلى المقاصد التي شرع الله لها النكاح :
وأكف للبصر والقلب عن التطلع إلى غير أهله ، ولهذا يحمد هذا العاشق عند الله
وعند الناس .

وعشق هو مقت من الله ويُبعد من رحمته ، وهو أضر شيء على العبد في دينه
ودنياه ، وهو عشق المردان ، فما ابتلى به إلا من سقط من عين الله ، وطرد عن
بابه ، وأبعد قلبه عنه ، وهو من أعظم الحجب القاطعة عن الله ، كما قال بعض
السلف : إذا سقط العبد من عين الله ، ابتلاه بمحبة المردان ، وهذه المحبة هي التي
جلبت على قوم لوط ما جلبت ، فما أتوا إلا من هذا العشق ، قال الله تعالى
﴿ لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾ ، [الحجر : ٧٢] .

ودواء هذا الداء : الاستغاثة بمقلب القلوب ، وصدق اللجاء إليه ، والاشتغال
بذكره ، والتعوض بحبه وقربه ، والتفكير في الألم الذي يعقبه هذا العشق ،
واللذة التي تفوته به ، فيترتب عليه فوات أعظم محبوب ، وخصول أعظم
مكروه ، فإذا أقدمت نفسه على هذا وآثرته فليكبّر على نفسه تكبير الجنابة ،
وليعلم أن البلاء قد أحاط به .

والقسم الثالث : العشق المباح وهو الواقع من غير قصد ، كعشق من وصفت
له امرأة جميلة ، أو رآها فجأة من غير قصد ، فتعلق قلبه بها ، ولم يحدث له
ذلك العشق معصية . فهذا لا يملك ولا يعاقب عليه ، والأنفع له مدافعتة والاشتغال
عنه بما هو أنفع له منه ، ويجب الكتم والعفة والصبر فيه على البلوى ، فيثيبه
الله على ذلك ، ويعوضه على صبره لله وعفته ، وتركه طاعة هواه ، وإيثار مرضاة
الله وما عنده .

والناس في العشق ثلاثة أقسام : منهم من يعشق الجمال المطلق ، وقلبه يهيم في كل واد ، له في كل صورة جميلة مراد ، ومنهم من يعشق الجمال المقيد ، سواء طمع في وصاله أو لا ، ومنهم من لا يعشق إلا من يطمع في وصاله . وبين هذه الأنواع الثلاثة تفاوت في القوة والضعف .

فعاشق الجمال المطلق يهيم قلبه في كل واد ، وله في كل صورة جميلة مراد فيوماً بحزورى ويوماً بالعقيق وبالغليب يوماً ويوماً بالخليصاء .
وتارة ينتحى نجسداً وآونة شعب العقيق وطوراً قصر تيماء
فهذا عشقه أوسع ، ولكنه غير ثابت كثير التنقل .

يهيم بهذا ثم يعششق غيره ويسلام من وقته حين يصبح وعاشق الجمال المقيد أثبت على معشوقه ، وأدوم محبة له ، ومحبته أقوى من محبة الأول ، لاجتماعهما في واحد ، ولكن يضعفهما عدم الطمع في الوصال ، وعاشق الجمال الذى يطمع في وصاله أعقل العشاق وأعرفهم ، وحبه أقوى ، لأن الطمع يمدد ويقويه .

وأما حديث « من عشق ففعل » فهذا يرويه سويد بن سعيد ، وقد أنكره حفاظ الإسلام عليه .

قال ابن عدى في كامله : هذا الحديث أحد ما أنكر على سويد . وكذا ذكر البيهقي وابن طاهر في الذخيرة والتذكرة ، وأبو الفرج ابن الجوزى وعده في الموضوعات ، وأنكره أبو عبد الله الحاكم على تساهله ، وقال : أنا أتعجب منه . قلت : والصواب في الحديث أنه من كلام ابن عباس رضى الله عنهما موقوفاً عليه ، فغلط سويد في رفعه .

قال محمد بن خلف بن المرزبان : حدثنا أبو بكر الأزرق عن سويد به ، فعاتبه على ذلك ، فأسقط ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان بعد ذلك يسأل عنه فلا يرفعه ، ولا يشبه هذا كلام النبوة .

وأما رواية الخطيب له عن الزهرى : حدثنا المعافى بن زكريا ، حدثنا قطبة ابن الفضل ، حدثنا أحمد بن محمد بن مسروق ، حدثنا سويد بن مسهر عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة مرفوعاً فمن أبين الخطأ ، ولا يحمل هشام عن أبيه عن عائشة مثل هذا عند من شَمَّ أدلى رائحة من الحديث ، ونحن نشهد الله أن عائشة ما حدثت بهذا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قط ، ولا حدثت به عروة عنها ، ولا حدث به هشام قط .

وأما حديث ابن الماجشون عن عبد العزيز بن أبي حازم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعاً ، فكذب على ابن الماجشون ، فإنه لم يحدث بهذا ، ولا حدث به عنه الزبير بن بكار ، وإنما هذا من تركيب بعض الوضعيين . ويا سبحان الله ! كيف يحتمل هذا الإسناد مثل هذا المتن ؟ فقبح الله الوضعيين . وقد ذكره أبو الفرج ابن الجوزى من حديث محمد بن جعفر بن سهل : حدثنا يعقوب بن عيسى عن ولد عبد الرحمن بن عوف عن ابن أبي نجيح عن مجاهد مرفوعاً ، وهذا غلط قبيح ، فإن محمد بن جعفر هذا هو الخرائطي ، ووفاته سنة سبع وعشرين وثلاثمائة ، فمحال أن يدرك شيخه يعقوب بن أبي نجيح ، لا سيما وقد رواه في كتاب الاعتدال عن يعقوب هذا عن الزبير عن عبد الملك عن عبد العزيز عن ابن أبي نجيح ، والخرائطي هذا مشهور بالضعف في الرواية ، ذكره أبو الفرج في كتاب الضعفاء .

وكلام حفاظ الإسلام في إنكار هذا الحديث هو الميزان ، وإليهم يرجع في هذا الشأن ، ولا صححه ولا حسنه أحد يعول في علم الحديث عليه ، ويرجع في التصحيح إليه ، ولا من عادته التسامح والتساهل ، فإنه لم يصف نفسه له ، ويكفى أن ابن طاهر الذى يتساهل في أحاديث التصوف ويروى منها الغث والسمين قد أنكره وشهد ببطلانه .

نعم ابن عباس لا ينكر ذلك عنه .
وقد ذكر أبو محمد بن حزم عنه : أنه سئل عن الميت عشقاً ، فقال « قتيل
الهوى لا عقل له ولا قود » ورفع إليه بعرفات شاب قد صار كالفرخ ، فقال :
ما شأنه ؟ قالوا : العشق ، فجعل عامة يومه يستعيد من العشق ، وقد تقدم ذلك .
فهذا نفس ما روى عنه ذلك .

ومما يوضح ذلك : أن النبي صلى الله عليه وسلم عدّ الشهداء في الصحيح ، فذكر
المقتول في الجهاد ، والمبطلون ، والحرق ، والنفساء يقتلها ولدها ، والغرق ،
وصاحب ذات الجنب ، ولم يذكر منهم من يقتله العشق .

وحسب قتيل العشق أن يصح له هذا الأثر عن ابن عباس رضى الله عنهما ،
على أنه لا يدخل الجنة حتى يصبر لله ، ويعف لله ، ويكتم لله ، لكن العاشق
إذا صبر وعف وكتم مع قدرته على معشوقه ، وأثر محبة الله وخوفه ورضاه ،
هذا من أحق من دخل تحت قوله تعالى ﴿ وأما من خاف مقامَ رَبِّهٖ ونهى النفسَ
عن الهوى ، فإن الجنة هي المأوى ﴾ ، [النازعات : ٤٠ ، ٤١] وتحت قوله
تعالى ﴿ ولن خاف مقامَ رَبِّهٖ جنتان ﴾ ، [الرحمن : ٤٦] .

فنسأل الله العظيم ، رب العرش الكريم ، أن يجعلنا ممن أثر حبه على هواه ،
وابتغى بذلك قربه ورضاه .

تم بحمد الله ومنه طبع هذا الكتاب النفيس



فہرس

کتاب «الجواب الکافی لمن یسأل عن الدواء الشافی»

صفحة

مقدمة الناشر	۵
ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء	۷
دواء العی السؤال	۸
معالجة أئی سعید اللدیغ بالفاتحة	۸
الدعاء الصادق من أنفع الأدوية	۱۰
فصل : الدعاء مع البلاء ثلاث مقامات	۱۱
فصل : الآفات التي تمنع أثر الدعاء	۱۲
فصل : شروط قبول الدعاء	۱۳
أدعية مأثورة لتفريج الكرب	۱۳
فصل : الدعاء سلاح المؤمن	۱۷
فصل : هل یرفع الدعاء المقدر ؟	۱۸
رتب الله الخیرات والسرور فی الدنيا والآخرة علی الأعمال	۲۲
فصل : لیحذر العاقل مغالطة نفسه علی هذه الأسباب	۲۳
من تعلق من المغرورین بالجیر	۲۵
ما هو حسن الظن بالله ؟	۲۸
فصل : کثیر من الجهال اعتمدوا علی عفو الله ورحمته	
فضیعوا أمره ونهیہ	۳۱
حدیث البراء فی عذاب القبر وأحادیث أخرى	۳۳
دحض معاذیر المغترین بعاجل دنیا المؤثرین لها	
علی الآخرة	۴۱
فصل : الفرق بین حسن الظن و بین الغرور	
وأمثلة لكل منهما	۴۵
فصل : الأمور التي يستلزمها الرجاء	۴۶

فصل : ضرر الذنوب في القلوب أشد من ضرر السموم في الأجسام	٥٠
فصل : آثار المعاصي المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة	
منها : حرمان العلم ، والوحشة ، والقلق	٦٤
فصل : المعصية سبب مهانة العبد عند الله وعند خلقه	٧٠
فصل : المعصية تورث الذل وتفسد العقل	٧١
فصل : المعصية تورث الطبع على القلب وتدخل تحت لعنة رسول الله ﷺ	٧٢
فصل : الحديث الطويل في رؤية النبي ﷺ عواقب العصاة	٧٤
فصل : المعاصي تحدث أنواعاً من الفساد في الأرض	٧٧
فصل : من أعظم عقوباتها : القطيعة بين العبد وبين ربه	٩٩
فصل : المعاصي تمنح بركة العمر والرزق والعلم والعمل	١٠٠
فصل : المعاصي تجعل المعاصي من السفلة وتنزع عنه الهيبة	١٠٣
هل يعود التائب إلى ما كان عليه قبل المعصية ؟	١٠٤
حكم شيخ الإسلام ابن تيمية في ذلك	١٠٥
فصل : عقوبات الذنوب شريعة وقدرية	١٣٤
فصل : حكمة جعل قطع اليد بإزاء إفساد المال	١٣٦
فصل : العقوبات القدرية : على القلوب وعلى الأبدان ، في الدنيا والآخرة . نعيم الأبرار في الدنيا والآخرة	١٣٨
تفاوت العقوبات بحسب تفاوت الذنوب	١٤٩
الذنوب الملكية والشيطانية	١٥٠
فصل : الذنوب السبعية والبهيمية	١٥٠
فصل : إنما أرسل الله رسله وأنزل كتبه ليعرف ، ويعبد وحده	١٥٤
فصل : زعم المشرك أنه إنما قصد تعظيم ربه	١٥٦
الشرك شركان ، وأنواع كل منهما	١٥٦
فصل : حقيقة الشرك هو تشبيه المخلوق بالخالق	١٦٢
فصل : أعظم الذنوب إساءة : الظن بالله وبأسمائه وصفاته وحكمته وتدبيره وتقديره وشرعه	١٦٦
ما قدر الله حق قدره من هان عليه أمره فعصاه	١٦٨

صفحة

فصل : الشرك أكبر الكبائر وأظلم الظلم	١٧٣
فصل : أنزل الله الكتب ليقوم الناس بالقسط	١٧٥
هل لقاتل المسلم عمداً توبة ؟	١٧٥
فصل : معنى قوله : ﴿ من قتل نفساً بغير نفسٍ ﴾	١٧٨
أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً	١٨١
فصل : مفسدة الزنى وما فيها من هدم النظام	١٨٢
الآيات في غض البصر وحفظ الفرج	١٨٢
فصل : أكثر ما تدخل المعاصي من اللحظات والخطرات واللفظات والخطوات	١٨٣
النفس الأمارة والنفس المطمئنة إنما تتعاديان	١٨٨
عند الغافلين عن آيات الله وسننه وحكمه	١٩٠
فصل : اللفظات ، وبماذا تحفظ ؟	١٩١
الأحاديث في حفظ اللسان والتحذير من سقطاته	١٩٥
فصل : الخطوات ، وبماذا تحفظ ؟	٢٠٣
عقوبة من عمل عمل قوم لوط أشد عقوبة	٢١٠
الأجوبة من زعم أن عقوبة من عمل عمل قوم لوط	٢١٣
دون عقوبة الزنى	٢١٤
فصل : أقوال الفقهاء فيمن يأتي البهائم	٢١٤
فصل : الجواب على ما زعموه من مشابهة إتيان الذكور	٢١٤
بسحاق النساء	٢١٤
فصل : هل من دواء لهذا الداء العضال ؟	٢١٤
الدواء من طريقتين : حسم مادته قبل حصولها	٢١٤
وقلعها بعد نزولها	٢١٥
الطريق المانع من الحصول	٢١٨
والطريق الثاني : وهو قلع الداء بعد نزوله	٢٢٠
فصل : لا يجتمع في القلب حب الله وعشق الصور أبداً	٢٢١
فصل : خاصية التعبد الحب مع الخضوع والذل للمحبيب	٢٢٣
معنى حديث « ما تقرب إلى عبيد يمثل أداء ما افترضت عليه — الخ »	٢٢٦
فصل : التتيم : آخر مراتب المحبة	٢٢٦

صفحة	
٢٢٩	أصل الشرك : الإشراف مع الله في المحبة
٢٢٩	لا يكون الهدى إلا بالتفريق بين أنواع المحبة
٢٣٠	فصل : الخلقة : منصب لا يقبل المشاركة
٢٣٤	فصل : المحبوب قسمان : محبوب لنفسه ومحبوب لغيره
	فصل : أصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله ،
٢٣٦	وأصل الأقوال الدينية : تصديق الله ورسوله
٢٣٧	روح وسر « لا إله إلا الله »
	فصل : أغلب ما ذكر من المحبة في حق الله :
٢٤٠	ما يليق به ، وهو العبادة والإنابة ونحوهما
٢٤١	مدار القرآن على الأمر بتلك المحبة والنهي عن ضدها
	فصل : أصل كل حركة في العالم العلوى والسفلى
٢٤٢	ناشئة عن المحبة
٢٤٤	فصل : كل متحرك فأصل حركته المحبة والإرادة
٢٤٨	فصل : المحبة أصل كل دين حق أو باطل
	الدين دينان : دين شرعى أمرى ودين حسابى جزأى
٢٥٠	وهما صراط الله المستقيم
	فصل : نختم الجواب بفصل متعلق بعشق الصور ،
٢٥٢	ومفاسدة العاجلة والآجلة
٢٥٥	فصل : ما حكى الله عن قوم لوط
٢٥٧	فصل : ودواء هذا الداء القاتل
٢٦١	فصل : للعاشق ثلاث مقامات
٢٦٥	على العاقل أن يحكم على نفسه سد باب عشق الصور
٢٦٦	ما زعمه السفهاء من منافع العشق
٢٦٧	حكايات عن بعض العاشقين
	فصل : كمال اللذة والسرور ونعيم القلب بكمال المحبوب في نفسه
٢٨٤	وبكمال محبته
٢٩١	فصل : محبة الزوجات
٢٩٥	فصل : الكلام على حديث قتيل العشق
٢٩٩	فهرست